جنون
النفس
رواية
جنون
النفس
عباس مدحت البياتي

رواية

جنوح النفس

جنوح النفس

رواية

عباس مدحت البياتي

إهداء

هـذه الروايــة والتــي فــي مجمـل وقائعهـا حقـائق طفحـت علـى أرض الواقـع بعـد أن وطئـت قـدم المحتـل الغاصـب- الأمريكـي البريطـاني- أرض الــوطن، والتــي دارت أحــداثها فــي فتــرة حرجــة مــن تــاريخ العـراق، ابتـدأت مـع بـدأ نـاقوس فوضـى الاحـتلال فـي **2003\3\19** واستمرت حتى نهاية سنة **2005.**

أهـدي روايتـي لكـل مـن سـولت لـه نفسـه أن يجـنح فـي دروب الطمـع، ولكـل مـن حـاول تغييـر جلـده ولونـه، ولـلـذين يختتـون عـروقهم بمـوس الظـرف، ولأصـحاب القلـوب الرهيفـة الـذين تضـيق علـيهم أحـذيتهم فـي دروب السـعي والمنـال، ولكـل خوان أثيم.

من جهلت نفسه قدره

يرى غيره منه ما لا يرى

المتنبي

الفصل الأول

1

لـم تغـفُ عـينُ **أم قاسـم** لحظـةً واحـدةً، وهــي تـركن أذنيهـا لعـزف الجنـون الـذي اجتـاح سـماء بغـداد مـع أولـى رعشـات الاحـتلال فـي ربيـع 2003. كانـت ليلـة الخمـيس الأسـوأ فـي حياتهـا، بـل فـي حيـاة العــراقيين بأســرهم، لا تقـــاس إلا بأصـــداء الصـــراخ المختنـــق فـــي شوارع المدينة وهي تبتلع صدمات القصف المتوالي.

فــي تلـك الليلـة، صـغتْ بروحهـا لتلـك المهـاوي التــي أغرقـت عيـون بغـداد فــي الـذعر، إذ اختـرق دويُّ الانفجـارات سـواد الليـل، فلـم يعـد الصـوت مجـردَ خبـرا للـدمار، بـل موجـةً عاتيـة تجـرف معهـا آخـر بقايـا الأمـان. كانـت تلـك الأصـوات تتجـاوز حـدود السـمع، تعبـر جـدارَ الظـن وأسـوارَ اليقـين، تُنثـر كغسـيلٍ للفـزع وسـقم العـابثين الجـدد فـوق القلـوب الرهيفة، إيذانًا ببداية حرب احتلال العراق في 19\03\2003..

تلــك الحــرب الشــعواء التــي عزفــت أشــجانها أيــادي الــبغض تحــت مظلـــة الأمـــم الغيـــر شـــرعية تبعـــا لمصـــالح دول الظـــلام - أمريكـــا وبريطانيـا ومـن لـف لفهـم- برفقـة لفيـف مـن الأقـزام المنطويـة تحـت أجنحـة الكراهيـة بمـا تسـمى بـدول التحـالف، مجتمعـين بغـل علـى قسـمة كيكـــة العـــراق وإذلال شـــعبه وثـــبط عزيمتـــه وســـرقة خيراتـــه.. مـــا إن أُشـعلت فتيلــة الحــرب حتــى شــعرت أم قاســم بانتكاســةٍ تتغلغــل فــي أعماقهـا، كأنهـا تسـقط فـي هاويـةٍ مفتوحـة دون نهايـة. كانـت بغـداد كلهـا تصـــغي لصـــخب الانفجـــارات، ولصـــفير الحمـــم التـــي كانـــت تتســـاقط كجمـرٍ فـوق المدينـة، متبعـةً دوّي الطـواحين التـي اجتاحـت شـوارعها بلا هوادة.

أجهـض الليـــل ســـكونه، بـــات أســـيرًا للضوضـــاء المفتعلـــة، للهـــدير المنفلـت، للزعيـق الراعـد الـذي جعـل الخـوف سـيد الموقـف. غـدت بغـداد رقعـةً منصـاعة للفوضـى العارمـة، وبـدت فـي تلـك اللحظـة كمـا

لو أنها تتنفس الصخب بدلاً من الهواء، تتحرك ككائنٍ جريحٍ يترنح تحت وطأة الظلام..

في تلك الليلة شاءت أن كبلتها وعكة أرهقت كاهلها تزامنت مع بدأ شرارة الحرب، جعلتها تشذ عن طابع رباط الجأش التي عرفت به، لتركن ذاتها جانبا وهي تراقب الوضع بوجس عبر صوان أذنيها، انحنت قامتها للصمت والخشوع، قيدتها حيرة وانكسار، متبعة الأضواء المبرقة النافذة عبر كوة بيتها الوحيدة بشيء من الفزع والوجل والعناء والاهتمام الذاتي. يختض جسدها مع تلك الخيوط العابرة من النار والفزع، بدت تلك الكوة كمرآة عاكسة تشرح لها حجم البلاء والجحيم القائم في بغداد ومحيطها. ارتجف جسدها مع كل خيطٍ من الضوء، كأنها تستشعر صدى الدمار في عروقها، وكأنها تنظر إلى بغداد لا بعينيها، بل بروحٍ ترتجف في صمتها.

حيرةٌ صمّاءُ لفتها تحت عباءة العبث الذي اجتاح عالمها، سحبها إلى متاهةٍ من الشك والريبة، جعلها أسيرة سؤالٍ لا تملك له جوابًا: كيف تتلافى وقع حدثٍ جلل بحجم الكارثة، وهي مركونةٌ في زاويةٍ من البيت، بلا مسندٍ يقيها الانهيار؟ كانت كخيمةٍ تتهاوى أمام ريحٍ صرصرة، تعصف بها، تسرق منها عزمها وقواها وثباتها، بينما الزمن يمضي بلا رحمة، والمصير يتأرجح على حافةٍ من الفوضى والغموض.

مع زخّ حمم الانفجارات، غاصت في سيلٍ دميمٍ من الهم والغم، أحيطت بطوقٍ حالكٍ من الحزن والكآبة، كأن العتمة التهمت يقينها وأغرقتها في مستنقع اليأس. استياءٌ جائرٌ شدّ وثاقها، شكم قدرتها على الحركة، وألقى في وجهها دمامل سوداء من أعباء القهر والاستسلام.

بـات العـزف يـرنّ فـي أذنيهـا بوقـعٍ مريـع، نكـد الصـواريخ المتسـاقطة يخـتلط بنشـيج الوحـدة القاسـية، بينمـا جسـدها المرهـق لا يقـوى علـى اسـتيعاب الفوضـى التـي تمـزّق بغـداد. ومـع مـرور الوقـت، تكثّـف الوجـع فـي صـدرها، تحـوّل إلـى سـوادٍ، إلـى اصـفرارٍ قـاتمٍ يُشـرّب اللحظـة بمرارتـه، كـان الكيـل قد طفـح، والسيل قد بلـغ الزبـى. لـم تعـد تحتمـل الغصـة التـي تخنقهـا، فـدكّت الانفجـارات مواجـع الـروح الأبيـة، طـوت ذاتهـا مـع طفـح الهـوان الـذي غطّـى وجـه العـراق، وانسـكبت دموعها كأنها تغسل أثر السقوط في فوضى الحرب.

بـات العـذاب نـديم وحـدتها، ظـلٌّ ثقيـلٌ لا يفارقهـا، جـزءٌ وبيـلٌ لـوى الـوطن، لـثم فـاه أبنائـه الغيـارى بوشـاحٍ مـن الضـعف والهـوان. لـم تعـد تقـوى علـى تقبّـل فكـرة الاحـتلال، وهـي مسـتاءةٌ مـن قـوام جسـدها النحيـل، الألـمُ خـزق جـدار الأنـا، عبـثَ بـوتين القلـب، طـوى وجـه العـراق المتكبـر تحـت قهـر الأيـام. هجسـت بـذاتها جالسـةً علـى فوهـة بركـانٍ، تنـدب حالهـا فـي غرفتهـا الباليـة، تنـدب حظهـا العـاثر، وحـظ الـوطن الـذي ابتلعتـه ظلمـة الأيـام، بينمـا تسـكب قطـرات الآه والأنـين مـن مزاريـب الشـعور، كأنهـا تُغـرق كـل مـا تبقـى مـن يقينهـا فـي مجـرى الحيرة المشاطة بين الروح والجسد، بلا مفر.

ظـرفٌ كـالحٌ أغشـى بصـرها وبصـيرتها، لـثم فاهـا وفكرهـا بوشـاحٍ مـن القتامـة والخـدر، كـتم أنفاسـها، وجردهـا مـن قـدرتها علـى التفكيـر وسـط طقطقـة الانفجـارات المتلاحقـة التـي تهـدر حولهـا. غـدت أسـيرةً لصـمتٍ مهـين، وعزلـةٍ تنضـح بالسـكون المرعـب، ممـا جعلهـا تقبـع فـي دوامـة مـن الحـيص بـيص، محاصَـرةً بـين نظـائر القـدر والمـوت الزاحـف. هجسـت بـذاتها، كأنهـا شـاخصٌ قـائمٌ بـين الفرضـة والشـعيرة فـي قـوس القـدر، مغلولـةً إلـى الظـن البـائس، مُكبّلـةً بالوحـدة اللعينـة، والوجع الذي يتناهى في أعماقها، يدور في أحشائها بلا توقف.

مـع جلجلـة الرعـب افتقـدت رشـدها وثباتهـا. لـم تعـد تقـوى علـى الصـمود واليقـين الـدامغ الـذي الهـب فتيـل غيرتهـا علـى وطنهـا وهـو يبـين لهـا مـا يجـري فـي بغـداد.. خـلال الايـام السـالفة كانـت خائفـة مـن صـخب الحـرب بعـد أن شـمت دخـان الاخبـار عبـر المـذياع، قـرأت المشـهد السياسـي مقـدما، علـى الـرغم مـن أميتهـا. المشـهد مقـروء، لبيـان الغايـة وسـوء النيـة المبيـت للعـراق. تلـك الليلـة الفظـة كانـت القاسـم لكـل مـن راغـه الشـك بنيـة العـدو، فلـم يغـف لهـا جفـن قـط جـراء الوسـاوس والأحـزان التـي ركبتهـا والتـي تفجـرت علـى حـين غفلـة فـي كل بيت عراقي وعربي شريف على حد سواء..

ليلـةٌ لـيلاء، انبثقـت مـن أحشـاء الـزمن كبركـانٍ جـاش بـالحقد والخـراب، تلفـح أبنـاء الـوطن كمـا تلفـح الـريح الهوجـاء سـهلًا جافًـا، لا يملـك إلا أن يتشـقق تحـت وطـأة العاصـفة. كـان وقـع الـدمار يفتـك بهـا، يتخلـل مسـاماتها، يتسـلل إلـى نبضـها الخافـت، يثقـل روحهـا بمـا يفـوق طاقتهـا، حالهـا حـال كـل الغيـارى الـذين قيـدهم الجـزع، وألقـاهم فـي عزلـةٍ قاسـيةٍ بين ركام الخوف ودوامة الحرب.

فـي فنـاء الهلـع، تحـت سـقفٍ متـداعٍ، كـانٍ الـزمن قـد نخـر خشـبه كمـا ينخـر الألـم يقينهـا، جعلـه أكثـر هشاشـةً، أكثـر تلاشـيًا فـي محـيطٍ لا يعـرف الرحمـة. وحيـدة، تتـوجسِ الجـدران، تصـغي لمـا يشـبه طنـين القـدر وهـو ينسـج حولهـا شـبكةً مـن الرهبـة والتـوجس، لا ونـيس، لا رفيـق، لا أمـل، سـوى ذكـر الـرحمن يحتضـن خوفهـا، وصـرير الـريح يترنح بين الشقوق، كأن العالم كله يتنفس رائحة الرماد.

فـي زاويـةٍ مـن العتمـة، ينـام ابنهـا جاسـم كمـن لا يـدرك هـول اللحظـة، يغـطّ فـي نـومٍ مضـطرب، شـخيره يغطـي فضـاء الغرفـة كثـور لا تعنيـه عبثيـةَ الأشـياء، يـود تـذكيرها بـأن الحـرب لا تبـالي بمـن يغفـو أو يستيقظ، بل تمضي كتيارٍ جارفٍ لنهايتها.

غدتَ تجفل مع كل رعدةٍ تضج بها سماء بغداد، تنتفض مع كل دوي انفجارٍ يخلخل سكون الليل، ترتعش مع كل صعقةٍ تشكُّ أحاسيسها، تهتز مع كل جفلةٍ تغزو أحشائها. أضحت كأرجوحةٍ مشدودةٍ بين الفزع واليأس، مخنوقةً بصرير الأحزان وعذابات النفس التي تتكرر بلا هوادة.

مع قدحة زناد الحرب؛ قدح زناد المغص في أمعائها، باتت تتلوى كالأفعى. القهر والحزن الدفين يجتاحان مشاعرها كسرب الغربان، لفحا سرها، الهبا جوارحها. صار الألم يشتد عليها مع جلجلة القنابل الساقطة، تلك التي شقت في وجه بغداد ترعا من الأسى وقنوات من العناء والجزع في الحشا. تبدى صبرها كتبدد الضباب تحت لهيب الشمس، كانت ليلة عسيرة، وخيمة، ظلماء، موحشة، هوجاء ليست لها شبيه في حياتها...

كأنَّ أحشائها أتقدت بزناد تلك الفوضى الدائرة في سماء وأرض الوطن وهيَّ تتأمل خط الرجاء يشتد بين خطوط لهيب النار.

عمت الفوضى أرجاء الوطن، تركز دخانها في أحياء بغداد بشيء من الحنق والحقد والغرابة والدجن، لطمس إثر العراق على وجه التاريخ.... يا ترى؛ لِمَ هذا الحقد الدفين؟ لمْ يهدأ العراق يوما عبر التاريخ..

أمست أم قاسم لا تستطيع مقاومة الظرف المغل والهوان المجحف، لا تستطيع تحمل أعباء ذاتها وهي تتلوى في حوض حزنها كسمكة مزهرة، تعوم في بركة من الصخب والعناء دون أن تجد قشة تعينها على تجاوز محنتها، دون أن تدرك ذاتها تدور في دوامة من التيه وسط غموض لف عالمها والوطن وهي مكلومة، مخنوقة، محبوسة، مقيدة بالحيرة والسكون والصمت والبؤس، تحت وقع

ذلك السخط الدائر من حولها، بحيث لا تستطيع مغادرة فرشتها مع تفاقم عجزها وآلام في امعائها.

ليلة لا تُعرفْ لها نظائر قط، انبثقت من رحم الظلام، دكت بها قوات الغازية خدود بغداد الرهيفة بوابل من الصراخ والفزع والعويل والدخان، إيذانًا بانهيار جدار الوطن مع بدأ قوات العدو دكَّ الحدود الجنوبية، وإعلان غزو العراق كخبرٍ يُبث بلسان الحديد والنار.

شقّت الانفجارات زيق الليل، انبلاجٌ مهتاجٌ، انفلاقٌ هائجٌ، حزمٌ ضوئيةٌ مغتاظةٌ طالت أجواء الوطن، غصّت بها السماء كلسعات البرق، انبرت كسُرجٍ وقناديلَ تُحاصر أعناق بغداد، تطغى على أنوارها الهفهافة، كأنَّ المدينة في احتضارها الأخير تضيء على نفسها بصمتٍ قاتم.

ليلةٌ زُفّت فيها بغداد للمرة الثانية، عروسًا مثخنةً بالدم للسيّد المبجّل صاحب التاج والمزاج، بعد أن زُفّت من قبل، معصوبة العينين إلى مهراج المغول والتتار، كأن القدرَ لا يملُّ من إعادة المشهد، وكأن الدمارَ ظلٌّ يُلاحقُها حيثما مضت.

بزفتها تكون قد أجهضت سكون الليل بسيل من الوجع والفزع والصراخ، جلجلة خواطر أهلها وعشاقها بكم الحمم الساقطة عليها، بدت خائفة وهيَّ تحاول نفض غبرة الحقد والبغض من على ثوبها الناصع البياض دون أن تستطيع نفض الألم من فوق وجه البراءة والتاريخ. عزفٌ مستمر هَدهَد سكون الليل، أرخى سدوله على نوافذ القلوب العاشقة والمحبة بالغل، أرهق النفوس بالجزع والاستهجان والرعنة، شُتتت نوارس المحبة من على ضفاف دجلة الهادئة، أحمرت وازرقت مياهها، تماثلا مع ما حصل لها أيام غزو التتار.

كان دويُّ القصف يكرر غلّه، ينبعث بين لحظةٍ وأخرى كنبضٍ مجنونٍ لا يهدأ. قذائفٌ عشوائيةٌ وأخرى توقيعيةٌ غرسَت الأرضَ بشتائلٍ من النار، نثرت شظاياها كأنيابٍ تنهش الحياة، ملأت الهواء برائحة البارود، وسكبت الرعب الدفينَ في كل منافذ المدينة. الموتُ أرغى في الطرقات، زحف إلى الأزقة التي كانت آمنةً ذات يوم بذات النسق والضبابية مع عزف نشيد القذائف وسيل العويل الدائر في خواصر تلك الأزقة الخائرة، كل شيء في بغداد تلون بلون الدم وسقم الحريق، حتى الهواء الذي نتنفس.

حلكة سوداء عفرت وجوه الناس بصدى اليأس والظن المخيب، تكبلت أياديهم، استسلمت نفوسهم للظرف والمحتل، جردت من المقاومة لعدم توازن القوى، بعد أن دكت حصونهم بحصار دام ثلاثة عشرة سنة من الفقر والجلد والمرار، أرهقت القلوب وأغشت الأذهان... تلك الأوضاع زادت من عسر حالة أم قاسم الموشومة بالوحدة اللعينة وجدلية المغص العابث في أمعائها، باتت تخور وتدور حول موضع العقدة بهواجس مفزوعة وهلاك مرتقب.

وميض متذبذب ينبلج في الأفق، يرتقي مداه عنان السماء منذرا أهل بغداد بالقارعة، ما أن تشفط الظلمة من الأفق حتى يخترق هدير الانفجار جوف بغداد، كاشطا حالة السكون من وجه الليل، منذرا بالشؤم والخطر القادم.. تنفلق صرة السكون لتصيخ الأرض فزعا من شدة الغل الذي أصابها، فتعج الأجواء بغبرة الانفجار، تبين حجم الجحد والحقد والكره التي حملتها قذائفهم وصواريخهم الساقطة. تتبع تلك الصاخة هالة سوداء تغطي النفوس والظن والمواقع المستهدفة. فيما يشيح عبق الدم والبارود والدخان المكان، يغطي على نسائم دجلة الباردة، فتطفح الغلة في النفوس والأرجاء بحجم الصاخة المريبة.

دوامة لاكت صومعة الوطن، أحاطت حدوده من الركن إلى الركن، تلك القبة الناصعة البياض، المغروزة في قلوب العاشقين والعراقيين على حد سواء- فهذه بغداد عروسة التأريخ المسفرة، باءت تنوس بعباءة الحزن والفزع، أظلَها حقد الجهلاء، أربد وجهها سواد ليل دميم.

دمعت عين أم قاسم، شط هاجسها حزن سمج وهي ترنوا إلى هدير الطائرات الدائرة فوق الرؤوس كالعقاب الجارحة، تجفل، انفجارات متكررة تهدهد سكون الليل، ريح عاصفة هبت مع بدأ الهجوم، أصوات صاخبة تكاد لا تهدأ ولا تستكين تخرش الأمان، تنشر الفزع هنا وهناك، تبحث عن فرائسها المنزوية داخل نفوسها والمباني المستهدفة.

تذكرت طفولتها وهي تلعب بحدائق بغداد الجميلة في أزقتها برفقة رفيقاتها...صارت تدندن والألم يعتصر الفؤاد....

طلعت الشميسة

على قبر عيشه

عيشه بنت الباشا

تلعب بالخرخاشه

صاح الديك في البستان

الله ينصر السلطان على أعداء أمتنه

..... آه يا دنيا أين مضت تلك البراءة وذلك الأمان الذي كان سائدا؟......

لِمَ تطمع الدول الفاجرة بأوطاننا وخيراتنا؟....

هل ابتلينا بنفط قابع في عمق أراضينا؟ أم أجزعوا من فرط ماضينا؟ من وجهة نظري كل الأسباب اجتمعت بتحيرك المياه الراكدة، أضحى الأمر سيان، فالعدو يتربص بنا لتميزنا.....

أضحت تناجي ربها، رافعة كفيها وصوتها المبحوح لا يرتقي حاجز سقف الدار وهي تدعو الله أن يبردها.

يا رب... أجعل كيدهم في نحورهم...

يا رب... كف عنا حقدهم وبغضهم...

يا رب.. بك نستجير وبك نأتمن...

يا رب آمن بغداد وأهلها من غلهم وشرورهم.

يا رب... أنت الواحد القهار، أقهرهم وأدحر جيوشهم...

عادت لولولتها التي تعلقت بلسانها، نتيجة تواتر الأفكار وحزم آلام المغص وتواتر أصوات الدوي المستمرة وعصف الريح. القهر لحفها بصمت غليظ، بقيت متحصنة في فرشتها البالية وهي ترتجف رعبا وألما من المجهول القابع تحت مظلة الليل، تلك التي هي عبارة عن طنفسة إسفنجية متهتكة ولحاف قديم مهتر متهالك، يكاد لا يقاوم لسعة برد صبح آذار.... فيما أبنها جاسم الذي يسكن معها الدار غاصٍ في نومة عميقة، يعيق سجدة شرودها بزعيق شخيره المرتفع.

ترى، ما بكِ يا بغداد؟

أي جرحٍ هذا الذي أطفأ وهجكِ

وكسر مرآة الفجر في عينيكِ
حتى الشمس باتت تخجل من طلعتها
وتتوارى خلف ستائر من الغضب والعناد؟

ألستِ أنتِ فاتنة المدن؟
ألستِ القصيدة التي يتغنّى بها التاريخ
والحلم الذي لا يشيخ
والرواية التي لا تنتهي فصولها؟

آهٍ يا زوراء...
يا مهد الأحلام ومسرح الأعراس
يا معبد العاشقين ومئذنة المحبة
يا نبراس
يا رنين الشوق وصدى الأجراس
يا ابتسامة دجلة حين يهمس للمساء
ويا وهج الطفولة وجميل الاحساس...

هل لامس جلدكِ رعبٌ مما حلّ بالناس؟

هل جفّ نبعكِ، وضاقت فيكِ الأنفاس؟

لماذا كل هذا العبث؟ وكل هذا البأس؟

ترى، أخرسوا لسانكِ يا أبا نؤاس؟

أين ضحكته التي كانت تملأ الضفاف؟

قم، ثُر على الطغيان

فشوارعكِ باتت وسواس خناس

وكراسيكِ تكسّرت من البهتان

آهٍ يا وجعي ويا قدري آويا مرارة الإحساس

ماذا أقول للمتنبي والحلاج؟

بغداد زُفّت مرتين؟

مرةً للمهراج،

ومرةً للكابوي صاحب الكأس والمزاج؟

ععععععع

أي قلبٍ يحتمل هذا البهتان؟ وأي ليلٍ يذوي بحرقة الحنين في الأجفان؟ ترى، ماذا أصاب بغداد الحبيبة؟ لماذا كل هذا الحزن انسكب عليها أمام الأعيان؟ هل خانها الزمان؟ أم نحن من خذلناها، وتركناها وحيدة في مهبّ الريح؟ مسحت ببنان كفها دمعة عفرت خدها، عاودها المغص الأجرد مرة أخرى بشدة تفوق سابقتها،

صار يطل عليها الالم من نافذة الضمير مع كل قذيفة تسقط على بغداد، لا تدري أن كانت تبكي على حالتها المُعرةِ أمام الفقر، أم على حال الوطن الذي تعرى أمام القدر؟. لا تدري أن كان الألم يشتد من فقع المغص أم من عذابات الضمير وحجم الدمار الذي أصاب بغداد.... حيرة سعرت مشاعرها، أذلتها، لم تعد تتحكم بنفسها، هزلت تحت واطئة عذابات الروح وموج ذلك المغص المتعقب لسرها وهوانها ونجواها.

دوى انفجار قريب، شديد الوقع، هزَّ أركان بيتها العتيق، كأنَّ صاروخا ما قد سقط في أرجاء حي الفضل المتهالك الذي تسكنه أو جواره. طفحت رائحة البارود في الأجواء أزكمت الأنوف، خيط دخان أو غبرة أزلفت من النافذة غرفتها التي تناثر جذاذها نتيجة شدة صوت الانفجار.

صارت تكلم نفسها وتولول.....

...لا.لا.. أكيد أنها قريبة جدا ... ربما في شارع الرشيد.. أو في شارع الكفاح أو في باب الشرقي، أو أو... أنها قريبة من الدار وأقرب من الظن إلى النفس، أشم بها رائحة الموت، لربما قصفوا دائرة الشرطة أو وزارة ما....

يا ألهي أجعلها بردا وسلاما على بغداد وأهلها..
يا إلاهي أجعل كيدهم في نحورهم....

.... لالالا ... مستحيل أن تكون هذه قذيفة مدفع للشدة التي دكت بها الأرض، لقد عفرت النفوس قبل الثرى، هذا الدوي لا يكون إلا لصاروخ طائرة أو صاروخ أرض أرض، أصبحنا ذوات خبرة بهذه الاصوات لما لاحتنا من تجارب حروب سابقة، أشعر بسقوطها لم تحتمل غلها الأرض، لم تحتمل شدتها.

فيما سبق كانوا قد قصفوا فندق الرشيد، ولم تشبعهم دماء الأبرياء في ملجئ العامرية حين جزروا رؤوس 450 طفل وامرأة مِنْ مَن لاذوا إلى الملجأ ليحتموا فيه تجنبا للوحشية التي أتصفوا بها.. أنهم وحوش، قتلة، مصاصي دماء، مجرمي حرب، تثقفوا بثقافة القتل على أفلام الأكشن والرعب والزومبي والسرقة وغيرها، صانعوا الامراض الفتاكة كـ فلاونزا الطيور والخنازير وجائحة كرونا والايدز ...الخ، هؤلاء صانعوا المثلية جلبوا المتاعب إلى العالم أجمع.

تحاول أن تُصَحّي أبنها جاسم الغاط في نومة عميقة جراء يوم شاق من العمل المرهق قضاه في عمل الحمالة بنقل البضائع داخل أسواق الشورجة.

- جاسم ... جاسم يا بني...أصحى...إلا تسمع هدير الطائرات، وعصف الانفجارات التي غصت بها بغداد؟ هل أنت ميت أم حي؟ كيف لا تهزك هذه الأصوات؟ هل لك أحاسيس ومشاعر وطنية كباقي البشر؟ أم أنت من البلهاء وقليل الدم؟ أم من الصم والبكم؟ قم شاهد ماذا يحصل في بغداد..

شخيره المرتفع غطى على صوتها الأجش، فيما أشتد وقع المغص في أمعائها، الألم يكاد لا ينفك، بل أنه يزداد شدة مع وتير الانفجارات، مع انحدار الحالة، قد يجني عليها، تهجس بذاتها وحيدة، يكاد وجود أبنها من عدمه سيان، فهي المكلومة وأبنها غارق في سبات عميق لا يرطن لسماع ندائها.

أضحت تأن وتنوح كاليمامة في وحدتها، ولا من يسمع لها صدح ولا من يرطن لصداها، فيما أبنها بدى كجثة هامدة، كثور قابع في

الركن البعيد من الغرفة، لولا غطيطه وفحيح شخيره اللائي تشهد على أنه حي؛ لشكت بوجوده على قيد الحياة.

مع كل قذيفة تسقط على بغداد تزداد نحولا وحزنا وندامة يجزل صبرها، كبندول تتأرجح مشاعرها بين هدهدة النوح ووطد الآه، بسيل مذل خر الدمع على الجنتين الناشفة، تلونت حالتها برزئ وسوء مقابل جمود واضح في إرادتها وانحدار يأس في فكرها. رددت مع نفسها:... هؤلاء البغاة سيدمرون كل شيء... سيقطفون زهور بغداد وورودها... سيدعسون ببساطيرهم القذرة على منتزهاتها وحدائقها... سيقتلون طيورها... سوف لن نسمع للحمائم هديلا بعد اليوم ولا للعصافير زقزقة تصحينا كل صباح... ربما ستهجر ديارها تلك اليمام، لتبحث عن أوكار جديدة تسودها الأمان.... ستفتقد القطط الكلاب، سيمحون أثر الحضارة والتاريخ عن الجدران والحدائق والشوارع والذاكرة. سيقلعون الحجر من مكانه. مثلما سرقوا بوابة بابل من قبل؛ سيسرقون باقي الآثار... سيمحون أثر كل شيء جميل يشدو باسم العراق ومجده، سيدمرون كل شيء يبهج النفس، سيسرقون اللمعة من الفكر مثلما سرقوا كنوز سومر وبابل وآشور التي تملأ متاحف بريطانيا وفرنسا وألمانيا وأمريكا، سيتاجرون بآثارنا بين الدول بإقامة عروض مؤقته لجني المال كما فعلت بريطانيا في أبوظبي عام 2013."..

ذلك ما يؤلمهم؛ لأنهم دون عمق وتأريخ، لذا دخلوا البلاد في أسطم غلهم، تهجس بهم كلاب مسعورة، بين فترة وأخرى تكشر عن أنيابها لتسرق شيئا من الوطن، ولـ دب الرعب والفزع بين صفوف الأبرياء من الشعب.

لم يشكمهم معروف قط! لقد نسوا بأن بغداد هيَّ من انارة لهم طرقهم المظلمة، هي من صحتهم من غفوتهم وسباتهم الطويل، هي من أنقذتهم من ديجور ظلامهم المهلك، هي من علمتهم علوم

الفيزياء والكيمياء والرياضيات ليركبوا سنابك العِلم. نسو وتناسوا بأن العراق من علمهم الحرف والأرقام والجبر ومواقع النجوم وعلوم الفلك وقوانين الإنسانية. حين أشتد عودهم؛ ركبوا على ظهورنا وخرموا التاريخ. هؤلاء السفلة تنطبق عليهم مقولة " خيرا تعمل شرا تلقى".

باتت تنشد بغداد بنغم حزنها الكئيب....

بغدادُ، حينَ تنامُ المدنُ تبقينَ ساهرة كأنكِ لا تعرفينَ النومَ، كأنكِ خُلِقتِ من قلقِ الأنبياءِ، ومن حنينِ العاشقينَ حينَ يضيعُ الطريق.

يا وجعَ الأرضِ حينَ تنطقُ بالحقيقة، وحينَ تُكتمُ فيكِ القصائدُ خوفًا من الرصاص، يا مدينةً تُصلبُ على جدرانِها الأحلام، وتُغسَلُ بالدمِ كلَّ صباح.

بغدادُ، يا نَخلةً لا تنحني

حتى حينَ يشتدُّ عليها الريح

حتى حينَ تُغتالُ في عيونِ أبنائها

تبقينَ واقفةً، كأنكِ تعرفينَ أنَّ الجذورَ لا تموت.

منكِ بدأُ الحرفُ

وفيكِ يُختَبرُ المعنى

كلُّ بيتٍ فيكِ قصيدةٌ ناقصة

وكلُّ شارعٍ روايةٌ تنتظر قائدا يكتبها.

يا مدينةً تُحبُّ رغمَ الخذلان

وتُعانقُ رغمَ الطعن

وتُضيءُ رغمَ العتمة

كأنكِ خُلِقتِ لتكوني درسًا في الصبر

وفي الكبرياءِ الذي لا يُهزم.

***

باتت تتلوى في زاويتها كأفعى مصابة، تتقلب في فرشتها ذات اليمين وذات الشمال، ماسكة براحة كفيها موضع المغص تحت صرتها، مما جعلها تلحُ بمناداة أبنها، تتأمل منه أن يعينها على جلدها وهي تحاول أن تنبئه بما يعتريها من مغص..

- جاسم .. جاسم ... يا أبني أجلس... الله يخليك أجلس..

كأنَّ صوت ندائها لم يتجاوز حدود فرشتها، بقيت تنفث رجاها رغم عجزها، هامسة، حائرة.. يكاد الصوت لا يرتقي لطبلة أذنيه، لضعفه.

تألبت عليها الحالة المستعرة المطرقة بالوحدة والمرض والظرف والقدر والعجز، الذي جعلها تقبع في فراشها كأسيرة مقيدة بالشدة والألم المستبد. كان الألم قد سلب قواها فلا تقوى على الوقوف والمشي، لا يسند ضعفها وتد، لا يسعفها عضد، استفحل السقم فتجاوز الحد والجلد....

وهـي فـي غبـرة عقـدها تشـعر بعمرهـا السـبعين أضـحت دميمـة، كثمـرة فاسـدة معلقـة فـي شـجرة الـزمن، أوشـكت تنفـث قـروء صـبرها الأخيـر. الألـم جلهـا لحالـة العشـي والغثيـان، كعـين محمـرة أشـتد فيهـا الرمد.

البـؤس رسـم لهـا ملامـح عجـز فـي وجههـا، الوحـدة عقـرت ذهنهـا بـدبابيس التجلـي واليـأس. حاولـت فـي سـعيها اسـتعادة طاقتهـا فلـم تفلـح محاولاتهـا اليائسـة، لـم تجـد قـدرة علـى تجـاوز سـكرة أبنهـا جاسـم، كـأنَّ الحالـة عَبّـرتْ عـن سـوء طالعهـا، لا أحـد يعينهـا علـى تجـاوز جلـدها ووحـدتها ووضـعها الصـحي بظـلِ تفـاقم الأحـداث فـي تلـك الليلـة المشؤومة.

بـات العمـر يتكـئ علـى عكـازة معوجـة، وشـلت طاقتهـا، غـدت عـاجزة عـن أيصـال صـوتها ورغبتهـا لأبنهـا الجـاثم كـالثور أمامهـا وهـو يجـزل رغبتهـا بقـرف شـخيره وخـواره، غيـر قـادرة علـى توعيتـه وتنبيهـه... لا تسـتطيع تحريـك جسـدها الناحـل مـن مكانـه لتدركـه، لتصـحيه. حاولـت أن تزحـف نحـوه، إلا أن الآلام قيـدتها، منعتهـا عـن الحركـة، اشـتدت عليهـا زفـرات العجـز فـزادت مـن وتيـر يأسـها، أضـحت حـواجزا تمنعهـا مـن تجـاوز حـدود فرشـتها، عرقلـة سـعيها رغم قصر المسافة التي تفصلها عن حدود فرشة أبنها.

لـم تجـد وسـيلة غيـر أن تعتمـد علـى سـياط صـوتها الأجـش، المخنـوق، الـذي يعـزف فـي قربـة مثقوبـة، صـارت تهـف بـه علـى وسـنه دون أن تكـش ذبـاب الكـرى مـن فـوق جفنيـه، دون أن تربـت طـبلات أذنيـه بـذلك الرنين الخافت....

فـي سـعيها كانـت تحـاول أن تنتشـله مـن ذلـك الكـدر الـذي أرهـق كاهلـه وارهقهـا، ودت أن تنتشـل ذاتهـا مـن قيـد الفـزع المحـيط بهـا، عسـى أن يعينهـا علـى جلـدها، أن تحـرك سـتائر مشـاعره السـاكنة بحجـر

صوتها. صارت تنادي عليه مرة تلو الأخرى بصوت مبحوح لا يرتقي إلى درجة الترهيب والتأنيب.

- جاسم ..جاسم....أجلس يا أبني...ساعدني... أشعر بالموت يدور حولي من شدة المغص... جاسم بطني توجعني، الالم فضيع.... جاسم...

لم تحرك ستائر أذنيه المغشية بثقل الوسن، لم تدرك احاسيسه عصا رجاءها الناعمة. غارق في سبات عميق، زعيق شخيره طوى على حفيف رجائها، تهجس به قطارٌ مجهد يزعق من طول السفر.

هكذا بقي بعيدا عن حدود رغبتها الجانحة، بعيدا عن هنات التماسها وتوقها الناهد. لم يرد على مناجاتها الملحة، المستميتة. نومه الثقيل أناخ رجاءها بعيدا عن رغبتها وإسعافها.

الرعب في بغداد لم يستكين، مع الوقت زاد شدة وقلقا، أضحى يبزغ من ثنايا الصخب ولعلعة الانفجارات الدائرة في سماء بغداد، بين لحظة وأخرى صار يرتج جدار الصمت بزخم موج الانفجار وهديره، تلك التي صارت تتداخل مع بعضها فتوحي للسامع بأنَّ القنابل طالت كل الشوارع والأحياء، تلك الحالة ارفقت الرعب والمجانة في قلوب المساكين.

لم تبطل الأصوات زعيقها قط، حول العدو بكل ما فيه من غل أن يحرث تخوم بغداد عن بكرة أبيها؛ عجت الغبرة وناء الدخان سماء الرحمة. رافق القصف صرصرة ريح شديدة، اشتد وتيرها مع شدة القصف الذي لاح خدودها، تزامنت مع انبلاج وميض القذائف في الأفق، كأنَّها حلَّتْ نتيجة عدم رضا عدالة السماء بتدمير مجد بغداد، هكذا تضاعفت المخاوف في النفوس وتعقدت المسائل في الأذهان..

رافقت تلك الأصوات المقيتة قرقعة صفائح الألمنيوم والأبواب والشبابيك المستكّة التي باتت تصر مع زفيف الريح، تلك الأصوات ضاعفت قرقعة الرعب في النفوس، أمست تنقل الوجل لأبعد نقطة في الذات الزاحفة ببرود إلى أعماق النفوس الخائرة.

تداخل الأصوات مع بعضها ولد تداخلا بين مجسات الرعب والجزع والفزع الكائنة في القلوب، تلك الأصوات خلخلت اجواء السكون، انبثقت كأمواج هادرة مخترقة ثنايا الليل، ترج مع زعزعة الريح، لتبث مناشير خوف في الأزقة والشوارع وعلى القاطنين في بغداد. أضحت ستائر الأجواء مهلهلة، رعدية، تنماز بقعقعة الأسلحة المشتبكة وهدير الطائرات النفاثة ولعلعة المدافع الرشاشة للمقاومة. كم الانفجارات الرامة هنا وهناك إلى جانب الاطلاقات وعصف الريح السهجة وطقطقة صفائح الألمنيوم وقرقعة العلب الفارغة، كلها اجتمعت في ازقة بغداد بتظاهرة صاخبة أصابت الجميع بالشلل.

عادت تنادي على أبنها في محاولة يائسة منها:...

- جاسم.. لك جاسم ..أصحى، دخت من قرفك وشخيرك المزعج، أجلس سأموت من شدة الألم.. أجلس، تبين ماذا يحصل في بغداد. جاسم.....جاسم.. جاسم...

جاسم لم تهزه عصف بحبحة الوالدة المريضة ولا هدير تلك الأصوات الصاخبة، نتيجة سطوة القلق واضطراب الفكر المحشو بالأخبار الزنمة، تلك التي ماجت لأسابيع تقرع طبول الحرب، حتى أشتد عليه الإرهاق النفسي والتعب الجسدي، فمال نحو السكينة والنسيان. لقد تلقى صفعة قوية من سلطان النوم، قذفت به لسكرة الكرى، لوهدت الصمت، أثقلت جفونه وصكت منافذ أذنيه تماما..

كـان قـد تـوجس لهفـة الحـرب قبـل وقوعهـا بأيـام جـراء صـخب الإعـلام المتـداول فـي نشـرات الأخبـار العالميـة، تلـك الأنبـاء الموبـوءة رشـقته بوابـل مـن سـهام اليـأس والكـدر والإرهـاق النفسـي والفكـري، إضـافة إلـى مشـقة العمـل التـي صـبت غلهـا فـي بوتقـة البـدن، تمثـل بإرهـاق فكـري وجسـدي وعنـاء نفسـي، ناهيـك عمـا شـاقه مـن سـهر الليـالي وجلـف الظـرف والفاقـة المتجـذرة المتراكمـة فـي زوايـا الجيـب والفكـر. تلكـم الحالـة دعتـه ينـدب جظـه وذاتـه بشـخير مقـرف كقـرف خنزيـر نائم.

بعد كل انفجار باتت تكرر عليه مناداتها دون أن تستسلم:...

- جاسم.. أجلس يا أبني.. أجلس، المغص سوف يقتلني.

أخيـرا أفلـج جفونـه بعـد جهـد وعنـاء، أجابهـا بلسـانٍ متـراخ، مثقـل بالوسن، بكلام مبهم غير مفهوم صعب عليها تفسيره.

- دعينـي يـا أمـي أنـام لسـاعة زمن...أنـا مرهـق، متعـب، أشـعر بثقـل فـي رأسـي، أشـعر بـه يـود أن ينفجـر نتيجـة العنـاء.. أريـد أن أنام...
- نومـة أهـل القبـور... ألا تسـمع أصـوات الانفجـارات فـي الخـارج؟ ألا يهمـك وطنـك؟ ألا تهمـك أمـك؟ أصـحى. (أجابتـه بقطب وحدة).

جاسم يجيبها برخاوة: ....

- أسمع يا يمه أسمع - لكني متعب جدا....

بعـد هنيهـة جلـس فـي فرشـته غاضـبا كـردة فعـل علـى إلحـاح أمـه المتكرر... رد عليها بشيء من العصبية....

- ما بك يا أمي، ماذا تريدني أن أفعل إزاء الطائرات والصواريخ الساقطة، هل أحارب العدو بالمكنسة؟
- تعال وساعدني أشعر بنهايتي قد قربت، بطني حتنفجر.

الأنين شحذ صوتها خلف زوابع ورعدة القذائف الساقطة هنا وهناك، والتي لم تبطل زحفها ولم تترك رعشة في الأبدان إلا وقشعرتها.. غل تلك الأصوات أزهقت روحها وهاجسها، زادتها آلاما وتأوها وهيَّ ممددة في فرشتها كالموتى. ما فتأت ناحت كنوح الحمائم الجاثية على أكوام من الكدر، فاهت بحمم من الحسرات والآلام، لفظتها على شكل زفرات من هَبّات آهات وأنين... صاحب أنينها دفقات تقيء وفترات سعال، حاولت جاهدة تخطي حالتها أو تغيير وضعها، فهي لا تملك سريرا يعينها على الوقوف على قدميها، مطروحة على بساط أرضي، منزوية في ركن من أركان الغرفة...

حاولت أن تزحف بركم جسدها للأمام، راغبة أن تدرك الحَمّامْ لتقيء فيه، قيدها الألم، منعها عن تخطي عجزها.. لم تفلح بمسعاها، وجدت الموانع أقوى من قدرتها، عالية جدرانها، لا تستطع تسلقها أو تخطيها. بدأت تأن بنشيجها..

- أه بطني.. يا ناس بطني حتنفجر، يا ناس أرحموني..

صار يُسمع سخطها- صرخت بصوت أجش مرتفع.....

- أينك يا حبيب (زوجها المتوفى)! لم ذهبت وتركتني وحيدة مكبوتة في الدار كالبومة، لا أحد يستسيغ وجودي ولا من ينظر إلى وجهي، لا أحد بعدك يهتم بي.. يا إلاهي أرحمني...

بم.. بم.. بم.. بم.. بم.. بم....

تطرق أذنيها أصوات انفجارات لا تكل ولا تنقطع زوابعها المخيفة، رافقها هدير طائرات معلقة في الجو كمظلات رعب ترهب المساكين. اشتدت سهوج العاصفة مع اشتداد القصف .... براكين هائجة تلفظ حممها، رياح مغتاظة تعبث بمقدرات الناس وحاجياتهم، أصوات انكسارات وطقطقة صفائح متداخلة تصيخ أذنيها، هلع يرفق صك أبواب وصرير شبابيك مفلجة، أمست الاصوات تطفق فوق حواجز الرعب، كالزيت الذي لا يزيد النار سوى شدة ورهبة، زادتها رعبا وهوانا.

باتت تهجس بأشباح قانطة هنا وهناك في دهاليز الذهن شغلت تفكيرها، دقت مسامير ذعر في لوح عذاباتها. وميض باهت يخترق نافذة البيت، يشغل تفكيرها، يكاد لا ينتهي جزعه، يشرح لها مدى شراسة القصف وكم الحمم الساقطة على بغداد. كابوس من الرعب جثم على فؤادها...

ما انفكت صارت تردد دعائها...

- يا رب أجعلها بردا وسلاما على أهل بغداد، يا رب بردها، يا رب أنصر العراقيين ..

تردد تلك العبارات والألم يكاد يمزق أحشائها. وبين هنة وأخرى تنادي على أبنها جاسم المغشي في سباته: ...

- جاسم....أجلس، جاسم.. ساعدني.... جاسم سأموت من الألم... لو كان أخوك قاسم هنا، لحملني على ظهره وطاف بي في المستشفيات.

نتيجة لملحتها؛ صحى مرة ثانية من نومه مكتئبا، عبوسا، متربعا في فرشته، منفوش الشعر، كث اللحى، بائس، تكاد صورته تحت أشعة شعلة المصباح النفطي (اللالة) تخيف الناظر إليه، تهجس به

أشبه بغول جاثم في زاوية البيت يزيدها رعبا وألما بكلتا عينيه المحمرتين اللامعتين.

رد على إلحاحها بشيء من العصبية...

- والله يا يمه لقد أحرقتي دمي، لِمَ لا تدعينِ أرتاح قليلا، ثم ماذا تودينَ أن أفعل لك في هذا اليوم المشؤوم، إلا تسمعي أصوات الانفجارات؟ إلا تسمعي جلجلة الموت في الخارج؟ إلا تسمعي هيع الريح وأزفه وأزيمه وصخبه وسهوجه المفتعل بحذق شديد؟ هل أنا طبيب أعالجك؟..... تكالبت على رؤوسنا المصائب من كل حدب وصوب- الريح، الانفجارات، الفقر، المرض، الإفلاس، الحرب.... أين آخذك بهذا الضجيج المرعب؟.
- بطني حـ تنفجر، خذني للمشفى.

صار يضرب بكفيه على رأسه مرددا:...

- مشفى - مشفى....
أي مشفى؟ أأنت مجنونة؟... أتريدين أن نقتل ونحن في الطريق... القناصون يتصيدون الخيال والأشباح في الطرق ..سنكون هدفا سهلا أمام تسديداتهم الدقيقة التي يتبعون بها كل من هب ودب.
- أعطني أي شيء مر يسكن الألم ... آه لو كانت في يدي حنظلة لعصرتها وشربت عصيرها، الألم قاتل.. أعطني أي شيء مر أو خذني للمشفى!....
- أية مشفى فاتحة أبوابها في هذا الليلة المقفرة؟ أي طبيب يتجرأ أن يخرج من بيته ويترك أهله وأطفاله عرضة للخطر؟.. لا حولة ولا قوة إلا بالله...

ثم هل تتوقعين هناك من بقي في بغداد غير سوانا؟ نحن وعدد قليل من المساكين أمثالنا من اللذين لا يملكون نقودا في جيوبهم ولا لهم أقارب في المحافظات الأخرى تأويهم .. الناس قبل الحرب بشهر هاجت وهربت، ذهبت للمحافظات الشمالية.. سلمت على أرواحها من صعقة الصواريخ الطائشة ونيرانها....

توقف قليلا عن الحديث، الحيرة كبلته، عصفت به خارج حدود الواقع، لا يعرف ماذا يفعل لها في ظل الفقر الجائر والخوف المفزع. ثم أكمل...

- حسنا؛ سأذهب لدار المضمد سعد عسى أن أجده في بيته إذا لم يغادر بغداد، عسى أن يرحمنا ويساعدنا، ثم أني حتى لا أملك قرشا في جيبي، لا أملك نقودا، لا أملك ما يسد رمقنا في هذا الظرف المقيت، ما جنيته يوم أمس نفد كمصروف لما اقتنيناه.....

قبل أن يخرج من البيت التفت إلى أمه معاتبا إياها بصوت حادٍ...

- لِمَ خلفتمونا؟... لم خلفتمونا أن كنتم غير قادرين على تحمل أعبائنا وتربيتنا؟... لَمْ تستطيعا تربيتنا كما يجب، لمْ تستطيعا توفير مستلزماتنا الحياتية البسيطة، غارقين في الهم والفقر والفاقة. لِمَ جعلتمونا نقرف أنفسنا؟ نقرف الحياة، لا ندرك عتبة أمانينا حتى لو عشنا مائة عام أخرى. سيبقى قوامنا هش دون أساس..
- الظرف يا أبني، الظرف هو السبب، كانت البساطة سائدة والخير سائدا، لا ندري من أي نافذة دخلت علينا آفة الحروب والفاقة والحصار.

- ما ذنبنا نتحصر على كل شيء جميل، تجاوزت الثلاثين ولمْ أستطع أن أتزوج أو أن أعمل في عمل نزيه، طاهر، شريف، خالٍ من الهم والغم.. ها أنا الآن خالي الوفاض من كل شيء حتى من المشاعر. لا أملك شيء ذا قيمة، لا أملك قيمة الدواء الذي أود أن أجلبه لك...
لمْ تُصلح ذواتنا وتربيتنا، لمْ تبينوا لنا الصالح من الطالح، لم تدخلونا المدارس، كل ذلك بسبب فقركم وجهلكم وإغواءكم الحيواني، لا تعرفون شيء في الحياة سوى السفه والتسافح.

ثم خرج وصك الباب بقوة خلفه، خرج إلى الجحيم الذي يغلي في الخارج، قاصدا بيت المضمد سعد والذي لا يبعد عن دارهم سوى مسافة دقائق معدودة.

أمسى يدور بوجهه الطلس حول مصيره وهو يواجه رعبا حقيقيا ممزوجا بين الخيال والحقيقة في تلك الليلة المعتمة، مشهرا سيفه بوجهها، دالفا جسمه في زحمة المحاولات وهو يجهد في زحزحة مخالب الريح الشعواء عن جسده.

امسى يعاني من زنقة الريح وسدف الليل والرهبة، أجواء مكللة بالفواجع، اشباح تمسك بتلابيب قميصه، فيما هو يحاول أن ينسلت من قبضة الريح؛ هي تحاول أن تمنعه من الخروج، بات يدفع بجسده الأجدب جدارا هيوليا، بقوته يحاول خرق صفوفها.. الريح تشتد عليه بجيش من الاشباح، تلتف حوله، تردعه، يلتف عليها وتلتف عليه، تمنع مجازفته خلف نيته، تمنعه من أن يجازف بحياته في تلك اللحظة الحرجة المشمئزة، فيما يدور حولها بعزمه لمساعدة أمه المريضة.

رغم شدة عزمه وعناده؛ شعر بجبروت واقفة أمامه، يعيق خطواته الوئيدة، يمنع تقدمه. كان قد بذل قصاري جهده وطاقته حتى أنسل

من قبضة الريح، صار يدفع بها وهيَّ تشذب ثيابه، تصفعه بكث من الرمل الناعم، بالكاد يستطيع فتح جفنيه ليواصل سيره محتميا بالجدران البالية. فيما أزيز الرصاص وقعقعة الأسلحة وطقطقة صفائح الألمنيوم توجل قلبه، أزيز الرصاص المتطاير يلاحقه، يزيده هلعا ورهقا، مثلما تعبث في خلخلة السكون جراء تضخم الأصوات في الليل نتيجة كثافة الأثير، تلك الاصوات تعبث في فكره..

لكنه يجب أن يصل هدفه، هذه أمه عاجزة، متخذا مسارا آمنا بمحاذات جدران الزقاق، خوفا من أي عارض مفاجئ يقحمه....

بعد أن عبر مفازة صغيره، وصل منهكا لدار المضمد سعد، خصمَ صراعه مع الريح والرعب الدائر في محيطه بنجاح، بعد مشقة دامت سبع دقائق من الكد والمنافسة والتحدي، استسلمت الريح لعناده، وصل أخيرا غايته.

بوصوله صار يطرق الباب بشدة، ظلَّ يطرق في عناء الظلمة حتى كلَّ متنه، حتى فلَّ أمله دون أن يسمع من يجيبه ويرد عليه. وقبل أن يعود أدراجه خائبا، فتح الباب بتؤدة وحذر من قبل سعد، وهو يعتريه ذهول وحيرة بعد أن تجاوزت الساعة منتصف الليل. عرف الطارق من ملامح جسده وخشونة صوته، نادى عليه:..

- خيرا يا جاسم ماذا وراءك في هذه الليلة؟
- أمي...أمي تشعر بمغص شديد، لا تستطع تحمل آلامه.
- أنتظر لحظة.

شفق عليه، رأف بحاله، أعطاه مسكنات روما ماكس RHEUMA-MAX مسكن ومضاد للالتهابات، دون أن يطالبه بقيمة الدواء، فهو يدرك تماما ضعف حالته المادية. عاد للبيت بذات

المشقة، عاد مسرعا، شاكرا المضمد سعد، وما أن أدرك الدار حتى أسعف والدته بقرص منه مع قدح من الماء...

- تفضلي يا يمه، هذه كبسوله دواء اسرطيها..

سرطته مع قدح الماء، داعية له بالتوفيق.

- اطمأنِ يا أماه سيهدأ الألم خلال دقائق، صبرا قليلا.
- الله يحفظك يا أبني، أهتم بوضعك.

بعد أن أخذت القرص اوطف فكرها راحة نفسية، عندها جثت في فرشتها كالموتى، غلبها نوم سليط حتى فترة مساء اليوم التالي، غطت بعمق الفاجعة التي حلت على بغداد.. لقد فعل الدواء بها فعل السحر في الجسد، أمتص ذلك المغص من أمعائها بأعجوبة، أطبق على فاهها كشريط لاصق من الصمت والسكوت، جعل أوصالها المشدودة تتراخى وهي ممتدة على طولها بمحاذات البلاط فوق فرشتها البالية.

2

فجرٌ غريبٌ ذاك الذي أطلّ على بغداد في 20 آذار/مارس 2003. السماء لم تكن زرقاء، بل رمادية مشوبة برائحة البارود. صوت القصف كان يسبق الضوء، يهزّ الأرض قبل أن يوقظ الناس من نومهم. بدأت عمليات احتلال العراق بزخ 295 ألف جندي أمريكي مع لفيف من قوات حلفائها، منطلقة من أرض الكويت، انطلقت الجحافل كسيلٌ لا يتوقف، يتقدّمون نحو مدن العراق، نحو بغداد، نحو قلب وطنٍ أنهكته الحروب. وذلك بعد قصفٍ مركزٍ طال بغداد والمعسكرات المحيطة بها وبالذات مطار بغداد والقصر الرئاسي والحدود المتاخمة للكويت والسعودية..

بقيت قواتنا صامدة على الحدود تقاوم بشراسة. الأنباء الواردة من الجنوب والغير مؤكدة، ولا تصلنا من الحقائق الجارية على أرض الواقع سوى فتافت من الاعلام العراقي بلسان وزير الاعلام السيد محمد سعيد الصحاف، الذي بالغ كثيرا في ثبات الدفاعات العراقية ومقاومة المحتل.

كانت قد سبقت الغزو بسويعات غارة جوية على القصر الرئاسي في بغداد، كانت إشارة إلى الرئيس بأن عهدك أنتهى. وفي اليوم التالي توغلت قوات العدو في محافظة البصرة من نقطة حشدها بالقرب من الحدود العراقية الكويتية. في حين شنت القوات الخاصة هجوما برمائيا من الخليج العربي لتأمين البصرة وحقولها النفطية المحيطة بها من التفجير.

انتقل جيش الغزو الرئيسي إلى جنوب العراق باتجاه الناصرية، احتل المنطقة واشتبك مع القوات المتواجدة في الناصرية في 23 آذار/مارس. كانت للضربات الجوية الكثيفة الحزم في تفتيت القوات العراقية في طرق تقدمها، زرعت الفوضى في صفوف

الجيش المدافع عن النفس. في 26 آذار/مارس، تم إنزال اللواء 173 المحمول جوا بالقرب من مدينة كركوك الشمالية، حيث انضمت إلى قوات البيشمركة من الأكراد والتي يقدر عددها بـ 70 الف مقاتل، اشتركوا معا في عدة عمليات مشتركة ضد الجيش العراقي، لتأمين الجزء الشمالي من البلاد.

في بيتٍ صغيرٍ في أطراف بغداد، كانت أم جاسم تضع يدها على قلبها، تراقب الأخبار، وتنتظر صوت ابنها يطمئنها.

- جاسم، خبرني عن بغداد، ماذا جرى بها؟
- خربت، يا يمه.
- لا، لا تقل ذلك!
- هذه الحقيقة، الجيش انسحب من مواجهة العدو، والقصف في كل مكان، والشوارع أكوم زبل ومتاريس مقاومة.
- وأين صدام وجيشه؟
- الدبابة الأمريكية واقفة على جسر الجمهورية، تمنع العبور بين الكرخ والرصافة. الرئيس اختفى، دعينا نخلص من حكمه، خمسة وثلاثين سنة كلها حروب.

كانت أم جاسم تصغي، وعيناها تدمعان، بينما التلفاز يعرض الوزير محمد سعيد الصحاف وهو يتحدث بثقة عن إسقاط طائرات الأباتشي.

- لكن الصحاف يقول إن المقاومة قوية!
- يا يمه، المقاومة سلاحها بسيط، ما تقدر توقف طيارة ببندقية. الصحاف يبالغ، يريد يشد عزيمة الناس، بس الحقيقة غير.

في الجنوب، كانت الدبابات تمرّ من الناصرية والبصرة، تتجه نحو النجف والكوت، دون مقاومة تُذكر. الطرق خالية، الجنود انسحبوا،

والشعب منهك من جراء الحصار يود تغيير الحكم، لا يريد حربًا أخرى.

في 7 نيسان، كانت ليلة ليلاء. السماء احترقت، الأرض اهتزت، والمطار صار ساحة حرب. استخدمت القوات الغازية أسلحة محرمة، هيدروجينية ونيترونية، لا ترحم. في تلك الليلة، قاوم العراقيون، رغم ضعف العدة والعتاد. كانت المقاومة شرسة، لكنها لا تكفي أمام جحيم الأسلحة المتطورة. استخدمت خلالها جميع صنوف الأسلحة الفتاكة من قبل الطرفين، الدبابات والمدافع والصواريخ وقاذفات الرشاشات والرباعيات المقاومة للطائرات والتي لم تجدي نفعا مع ارتفاع الطائرات، لقصر مدى الرباعيات وهي تحلق فوق الرؤوس كالعقاب الشاهقة، تنشر الفزع في البقاع وفي القلوب البريئة، الضعيفة، الرهيفة من ابناء الشعب.

اخبار العراق تشير إلى عجز في تقدم العدو نحو بغداد، وأنه يتكبد خسائر جسيمة في المواقع التي تطئها قدمه، فيما أخبار الفضائيات والاقمار الصناعية كانت تمشي مع سرف الدبابات التي تجاوزت مدن الناصرية والبصرة بسلاسة وهي في طريقها زاحفة إلى النجف والكوت جنوبي بغداد دون مقاومة تذكر....

وفي 9 نيسان، سقط تمثال الرئيس في ساحة الفردوس التي امتلأت بالناس، بعضهم يبكي، بعضهم يصفق، وبعضهم لا يعرف كيف يشعر. أما أم جاسم، فكانت تنظر إلى الشاشة، وتهمس: – "يا رب، احفظ العراق، وانصر أهله، واغفر لنا ما مضى."

بصراحة القوات المتقدمة لم تجد مقاومة تذكر في تقدمها، بل أن معظم القوات العراقية انسحبت من مواقعها لعدم التكافؤ من جهة وإصرار الغالبية العظمى من الشعب بالتخلي عن نظام البعث الذي

اشـكلها بحـروب متتاليـة مـن جهـة أخـرى، لـذا أخليـت الطـرق مـن المقاومة..

مقاومـة شرسـة علـى قلتهـا أبـداها العراقيـون فـي السـابع مـن شـهر نيسـان مـن عـام 2003 ، قابلـت وجـس طبـول الحـرب المرعبـة بشـيء مـن ذلـك القبيـل، بحيـث اسـتطاعت أن تخـرس بعـض أفـواه الفلـول المهاجمـة علـى رغـم مـن اخـتلال القـوى لصـالح سـلاح العـدو، وخاصـة حـين دخلـت القـوات الغازيـة حيـز مطـار بغـداد الـدولي بأسـلحة هيدروجينية ونيترونيه حارقة، فتاكة، محرمة دوليا.

لـذا عـدّ يـوم السـابع مـن نيسـان يـومٍ أسـودٍ فـي تـاريخ العـراق، بسـقوط مطـار بغـداد بيـد القـوات الغازيـة سـقطت بغـداد، لقـد أحتفـل العراقيـون بـذلك اليـوم بشـكل مغـاير عمـا كـانوا يحتفلـون بـه فـي الأعـوام السـابقة، أبـدلوا باقـات الـورود التـي كـانوا يتـداولونها بـذكرى تأسـيس حـزب البعـث الحـاكم بالرصـاص والقنابـل والمقاومـة، لتبقـى آثـار قـدم المحتـل فـي ذاكـرة الأطفـال جـيلا بعـد جيـل كواقعـة المغـول عـام 1258 حـين سقطت بغداد سقطتها الأولى.

لـم تـتمكن القـوات المهاجمـة مـن السـيطرة علـى الـوطن؛ إلا بمسـاندة الخونـة والأسـلحة المحرمـة دوليـا مـن قـذائف نيتـرونين وهيـدروجينيين وفسـفورية حارقـة، والتـي بسـببها مالـت كفـة الحـرب لصـالح العـدو، ناهيـك عـن الطـائرات التـي سـيطرت علـى أجـواء العـراق مـن الوهلـة الأولـى لبـدء الحـرب، والتـي تمكنـت مـن تـدمير كافـة بـؤر المقاومـة علـى مسـار طـرق تقـدم جـيش المشـاة، وخاصـة تلـك التـي تصـدت لقـوات العـدو فـي محـيط بغـداد. هـذا عـلاوة علـى اسـتخدامها الحصـار الجـائر علـى الشـعب مـدة ثلاثـة عشـرة سـنة والتـي بـه انهكـت قـوة الشـعب تمامـا... كـأنَّ الـرئيس صـدام لـم يهيـئ جيشـا للمقاومـة مـن بعـد الاحـتلال أو أنـه لـم يتوقـع خطـة الاحـتلال، فالمقاومـة بزغـت علـى

وجـه السـاحة طواعيـة، ذاتيـة دون تخطـيط مسـبق أو دعـم مـن قبـل الدولة، حيث السلاح متواجد في كل بيت تقريبا.

دخلـت قـوات التحـالف حـدود الـوطن مـن محـورين، المحـور الأول تقدمت بـه عبـر الحـدود الكويتيـة متخـذة مـن خـط الفـاو طريقـا لهـا، فيمـا اسـتخدمت قـوات أخـرى محـور حفـر البـاطن عرعـر مـن السـعودية باتجـاه مدينـة السـماوة والناصـرية بإسـناد الطـائرات المروحيـة (السـمتية) كاسـتطلاع وتنظيـف الممـرات والطريـق أمـام الـدروع والـدبابات المتقدمـة علـى سـرفها؛ فيمـا دكـت طـائراتهم النفـاذة المواقـع المهمـة الاسـتراتيجية والمعسـكرات وتجمعـات فلـول الجـيش والجسـور المهمة والقصور الرئاسية ومصانع الأسلحة.

لـذا تلـك القـوات خـلال تقـدمها لـم تجـد مقاومـة حقيقيـة تـذكر، وخاصـة بعـد أن تخلـى معظـم عناصـر الجـيش والشـعب عـن ولائهـم للسـلطة التـي أجهـدتهم بحـروب وحصـار طويـل جلـه شـقاء وعنـاء. لـذا كـان التقدم سريعا باتجاه بغداد العاصمة.

كـان يومـا قمطريـرا، أسـودا، سـحنا، بائسـا، عبوسـا، يـوم أنْ سـقطت بغـداد تحـت وطـأة قـدم المحتـل الأمريكـي الغاشـم فـي 09\04\2003، وذلـك بعـد سـقوط تمثـال الـرئيس صـدام فـي وسـط بغـداد. بسـقوط التمثال تم التسليم باحتلال العراق رسميا.

ذلـك اليـوم الأشـر كـان يومًـا كالحًـا، مغبـرًا، اجتاحـت فيـه عاصـفة ترابيـة هوجـاء سـماء العـراق مـن مغربـه إلـى مشـرقه، تصـرخ بريـاح شـعواء تصـهل فـي الفضـاء، وتغمـر بغـداد بغبـار أحمـر كأنمـا لونتـه الـدماء والنـار. خيمـت علـى المدينـة كآبـة ثقيلـة، وارتسـمت علـى وجـوه أهلهـا ملامـح الأسـى والوجـع، وانسـكب السـخط والوجـل علـى صـفحات التـاريخ. فلـن يشـفع للغـزاة شـيء هـؤلاء الـذين دمـروا وطـن دون سبب.

لم تكن المسألة مجرد إسقاط نظام دكتاتوري كما زعموا، بل كانت تجريدًا ممنهجًا للعراق من عناصر قوته، من تاريخه، من علمه، من ثقافته، من تراثه الذي طالما أزعجهم. إنها ذروة الحقد والتهميش، تحت راية العدالة الزائفة، باسم الأمم المتحدة التي تتحكم بها قوى الغرب واللوبي الصهيوني. قرار تدمير حضارة عمرها عشرة آلاف عام ألقى بظلاله على العالم بأسره، فجرّدوا العراق من كل ما هو جميل وأصيل.

أضحى تاريخ احتلال العراق وصمة عار في جبين الزمن، خاصة حين نعلم أن بعض "العاربة" ساهموا في تدمير وطن طالما كان سيفًا مسلولًا ونصلا مقدما في الدفاع عنهم. قدّموا التسهيلات، وساندوا العدو، وشاركوا في احتلاله. تكررت نكسة المغول الأولى، لكن هذه المرة على يد التتار الجدد: بوش وبلير، الذين ملأوا الشرق والغرب رعبًا ودمارًا، حتى تخلّت بغداد عن بهائها، كما فعل بها المغول من قبل.

كان يومًا من سقر، يومًا من هلع وقارعة، حين غابت النضارة عن وجه بغداد، وسُجِّي ثغرها الدامي بالحزن والشجن. ذلك اليوم الأدغم، كان قدر العراقيين البليغ، الموشوم بالحسرة، والمثقّل بالحنين إلى ما كان.

تلبدت السماء بغمامة سوداء، كأنها كفن يلف جسد بغداد المنهك، بفعل سحب الدخان المتصاعدة من مواقع محترقة، وأغبرة هائجة تزمجر في الأفق. غطت أجنحة السماء بسقم الفعل وسوء الظن، وتبرجت بغداد بحمرة الدم وسواد العار، في زفافها الجديد الذي لا موسيقى فيه سوى صراخ الضحايا...

اصفرت الأجواء وكظمت الأنفاس تحت وطأة جنازير الدبابات العابثة في ميادين القتال، تصحبها عاصفة هوجاء مغتاظة، حتى

اختلط الحابل بالنابل، والغبرة بسخام القذائف، وسيل دماء الأبرياء الذين لا ذنب لهم سوى انتمائهم لهذا الوطن الجريح. أولئك الذين ذاقوا مرارة الحصار، ثم أضيف إليهم الفقر والجوع والقتل والتشريد، تحت وطأة حرب فرضت عليهم بالقوة.

طال القصف بيوتاتهم عشوائيًا وتكتيكيًا وتخطيطيًا، وبشتى أنواع الأسلحة، منها ما جُرّب لأول مرة على رؤوس المساكين، لتُختبر فعاليتها على أجساد الأبرياء، صواريخ، قاذفات، مدافع ثقيلة، وحمم من شظايا الحديد انهمرت كالمطر، لتغمر رؤوس القانطين تحت مظلة الوطن، وتدمير شواخص الحضارة، وحصاد الدور والمعامل والمتاحف والمصانع والشوارع والطير والشجر والبشر والحلم والأمل والتاريخ من الجذور.

وسط هذه الفوضى، طفت عمائم سود وبيض على السطح كفقاعات فكر دخيل، تفجرت على إرث العراق بغلٍ وطائفية، مستغلة الدين لتحقيق مصالحها. قادت المغرر بهم نحو مراكز الشرطة والوزارات والمؤسسات، لتنهب الأسلحة وتدمر الموجود، حتى جُرد الوطن من كل مقوماته، وسادت الفوضى، واشتط العبث، تحت رعاية المحتل وتشجيعه.

معظم تلك الأفواج الدخيلة دخلت عبر الحدود المفتوحة من الكويت وإيران وتركيا، كانوا قد عاثوا فسادا في العراق. كانت مهمتهم ملاحقة من لهم تأثير على الوطن. جزوا الرؤوس البارزة من أصحاب المناصب والقامات والعقول في مراكز الدولة، وخاصة العلماء منهم والضباط والطيارين ووجهاء البلد والمتفوقين في مجالاتهم، بتخطيط وتوجيه خارجي مدروس لتدمير البنية التحتية للبلد، كي لا تقم له قائمة في المستقبل القريب.

بسقوط التمثال ابتدأت مرحلة جديدة عجت بالفوضى والقتل والثأر، ليعم الصخب أرجاء العراق قاطبة من أقصاه لأقصاه.

قبل سقوط تمثال الرئيس، كانت مؤسسات الدولة قائمة، سليمة، معافاة، لم تشبها شائبة في العفة أو النظام. لكن بعد ذلك التاريخ، تحولت دوائر الدولة إلى فرجة للعالم، وصار أثاثها يزحف في الشوارع كدبيب النمل المهاجر، بعد أن قُطّع إربًا إربا، ليسهل على فئة اللصوص (الحواسم) من حملها إلى جحورهم الخاوية.

في خضم تلك الفوضى التقى **قاسم** جاره **ابو عادل** ودار بينهم هذا الحديث:.....

- يا أبو عادل، أين كنا وأين أصبحنا؟ نحن الآن نعيش في غابة، القوي يأكل الضعيف... لا يمكن أن تستمر هذه الحالة المزرية، وإلا سننتهي جميعًا.
- اصبر يا قاسم؛ الأوضاع ستتحسن، وإن لم تتحسن، ستُعيب دول العالم أمريكا وبريطانيا، فقد وعدتا بالديمقراطية والحرية.
- قاسم (ساخرًا): عن أي ديمقراطية تتكلم؟ هههههه... نحن شعب طرطور، يصفق لهذا وذاك، لا نسير إلا بالعصا. بالأمس صفقوا للملك، ثم لعبد الكريم قاسم، ثم لعبد السلام وأخيه عبد الرحمن، ثم للبكر وصدام، والآن يبتهجون بالاحتلال! يصفقون لمن يعلّق الحبل بأعناقهم!
- يجب أن نصبر يا أبو محمد، ربما هؤلاء تنفسوا الصعداء بعد أن كُممت أفواههم طويلاً، عاشوا تحت وطأة حكم دكتاتوري وحصار جائر. أنسيت قسوة الحياة؟ كيف كنا نجهد ولا نستطيع تأمين عِلّاقة البيت من الرزق اليومي؟
- لا، وكيف أنسى؟ لكن كانت هناك دولة ونظام يدير شؤون البلد، القانون سائد، والأمان حاضر. كنت تنام وباب الدار

مفتوحا. الآن أخاف من الغد ولا آمن جاري، قد لا نجد ما نأكله!

- الفقر المدقع والظلم الجائر واستبداد الرأي والموت البطيء أيضًا كان موجودا. هذا ما جعل الناس تفرح بزوال النظام الدكتاتوري.
- نعم، هؤلاء لم يتصرفوا بإمعان. جمعوا النقود من النفط والتقشف الذي فرضوه على الشعب، لتأتي العصابات وقوات المارينز تجهز عليها. لم يستفيدوا مما جمعوا. كان نظامًا عادلًا في عدله وظلمه. كان الأجدر بهم أن يراعوا حقوق الشعب وينقذوه من الفاقة. نحن أغنى دول المنطقة، ومع ذلك غالبية الشعب تحت خط الفقر، يعيش على مخلفات المزابل.
- صحيح، لم يراعوا حقوق الإنسان، وهي جزء من غرائزه التي وهبها الله له. حب التملك غريزة، والدول الرأسمالية احترمتها فتقدمت. نحن كنا نأكل ونشرب كالحيوانات، دون أن نملك ما يعزز أحلامنا ويؤمن غدا، رغم غنى العراق.
- يا قاسم: هل من المعقول أن يعيش الإنسان بمرتب يعادل ثلاثة دولارات في الشهر؟ إنها كارثة! بقيت المرتبات كما هي، بينما تدهورت قيمة الدينار. أمريكا ذكية، أنهكت الشعب بالحصار لثلاث عشرة سنة، ثم احتلت الوطن بأبواب مفتوحة.
- يا أبو عادل: هل تعلم أن الدينار العراقي كان يعادل 3.20 دولارًا قبل حرب إيران؟ ثم صار يعادل دولارًا قبل دخول الكويت، وبعد الحصار صار الدولار يعادل 3000 دينار! كارثة سهلت الاحتلال.
- هذا ما جعل الشعب يتخلى عن الدولة، ويرحب بالمحتل لينقذه من نظام أفقره. السبب ذاته وراء السلب والنهب. الشعب لم يتعود أن يعيش مذلولًا على الفاقة وإكمام الأفواه.

- بصـــراحة، لا أرى انبلاجًـــا فـــي الأفـــق. نحـــن كمـــن خـــرج مـــن حفرة ليقع في هوة. المصيبة أكبر من التحرر.
- ههههـــه، صـــدقت... تـــورط الشـــعب بـــالأحزاب والقوميـــات، وأخشـــى أن يتـــورط بالشـــعوذة والطائفيـــة. الله يســـتر، الله يعيننا... وعسى ألا يزيد عدد القانتين على المزابل.

قاسم:.....

- أستودعك يا أبو عادل، سامحني، يجب أن أرى عملي.

أبو عادل:...

- إذنك معك... مع السلامة يا قاسم.

3

بعد سقوط التمثال، خيّم على الشعب خدرٌ عميق، كأن جذوة الحياة قد انطفأت في أعماقه. كان بالأمس القريب محرومًا من كل شيء، كجمادٍ لا يسمع ولا يرى، لا يعرف من الألوان سوى أعلامٍ مفروضة عليه. كان قد حُرم من أبسط أدوات الترفيه والتواصل الحديثة: الساتلايت، الإنترنت، الحاسوب، الهاتف المحمول، وكل ما يمتّ بصلةٍ إلى الخدمة الشخصية أو التعليم أو الترفيه.

حصارٌ خارجيٌ خانق، وقبضةٌ داخلية من حديد، شدّت على عنقه حتى تجاوزت حدود الاحتمال. مُنع من الاطلاع على الإعلام الخارجي، ومن مواكبة تطورات الحياة والتكنولوجيا، لا لشيء سوى خشية النظام من أن يتسلل إليه نور الحقيقة، أو رغبة الأعداء في تغذية جبهة المعارضة، أو رغبة الحلفاء في إبقاء العراق في عتمةٍ تسهّل تنفيذ مخططاتهم. فُرض عليه حصارٌ جائر دام ثلاثة عشر عامًا، هي ذاتها سنوات الطفرة التكنولوجية في العالم.

وهكذا، بعد سقوط التمثال، دخل العراق مرحلة حرجة، كأن الزمن توقف. البعض وجد في الانهيار متنفسًا، والآخرون ظلوا يترقبون المفاجآت التي أرهقتهم، كأنهم في دوامةٍ لا قرار لها.

أما الوضع الأمني، فكان يلفه ضبابٌ كثيف، تتخلله تفجيرات خجولة من مقاومين متفرقين. القيادة تشتتت، والوجوه التي كانت بالأمس رموزًا، غابت في دروب التيه والاندهاش، كأنها وقعت تحت تأثير صدمةٍ لم يُشفَ منها أحد. لا خبر يُروى عنهم، ولا صوت يكشف عن حجم اليأس الذي نخرهم. بعضهم أضحى كالمهووس، لا يعرف وجهته، ولا كيف يتصرف في مخمصةٍ ضاع فيها رأس الخيط.

بدا النظام وكأنه لم يتهيأ لمرحلة ما بعد السقوط، ولم يخطر في بال الرئيس صدام أن تنهار أركان حكمه بهذه السرعة المذهلة. لم يُعِد عدّته للمقاومة، ولم يوزّع السلاح على الشعب، وكأن الحقيقة باغتته كصاعقة، شلّت حركته وجمّدت تفكيره. كانت الضربة الأولى، مساء التاسع عشر من آذار عام 2003، بمثابة سحب البساط من تحت قدميه، دون سابق إنذار.

لكن الشعب، حين رأى الجندي الأمريكي يتجوّل في مرافق الدولة ويعبث بمقدّراتها، انتفض. بدأ ينظّم نفسه في فرقٍ وجماعات، يترصّدون العدو ويوقعون به خسائر فادحة. ومع مرور الزمن، تحوّلت المقاومة إلى قوة شرسة، أنهكت القوات الغازية، وأصبحت سُمًّا في كأس النصر الذي ادّعوه، تلسع نواياهم وتشلّ أفكارهم.

منذ أن وطأت أقدام الاحتلال الأمريكي البريطاني أرض العراق، بدأ موسم الخريف والجراد. تساقطت أوراق النفوس الضعيفة كأوراق التوت، واحدة تلو الأخرى، خلف نواياها المريضة، حتى تعرّت أجساد الخونة من الوصوليين والانتهازيين أمام ذوي العزّة والشرف والرجولة في مقاومة المحتل. وكأنها كانت تنتظر الفرصة لتغرف من كأس الوطن دون حياء.

حين دنّس المحتل تراب العراق، كانت في أعماق العراقيين صبغة براءة ونخوة، وفي ثيابهم نكهة عزة وكرامة، وصفاء لون، ومسحة من الشعور بالمسؤولية. كان اللون الأبيض يسود القلوب النقية، الشفافة، كأياديهم البيضاء، لا تشوبها شائبة، معطّرة بالثقافة والوطنية، وعزة النفس والدين والغيرة والشهامة. كانت النفوس لا تزال عذراء، لم تُغتصب بعد من سيد الطمع وفرق الطائفية المتسللة تحت جنح الظلام.

كانـت المحبـة طـاهرة، والطيبـة سـائدة، والـروح خضـراء طريـة، لـم تصـفر أوراقهـا بعـد، ولـم تـذبل جلودهـا مـن صـبغة الكلوروفيـل. كـان النــاس صـلدة فــي مـواقفهم، قويـة لا تهتـز أمـام الـريح الصـفراء، لـم تتلـوث أيـاديهم بـالخسّـة والنذالـة، ولـم تتسـخ نفوسـهم بغبـار الطقـس أو بوبـاء الطمـع والخنـوع للمحتـل، رغـم أن الـريح طالـت أنـوف الجميـع، والنار لسعت جلود الكبرياء.

جـاء الاحـتلال بشـكله المقيـت، وظلـه الـداكن المعبّـق بالحقـد، يحمـل نـتن الفكـر وخبـث النوايـا، يفـوح منـه عطـن الغـل، ويبـذر القـذارة والكراهيـة والطائفيــة والعنصـرية بـين النــاس. هــيّج جمـر الفـتن بعصـا بغضــه، ورشّ سـموم فكـره فــي خـزان الـوطن، وجمـع أطيـاف الشـعب علــى سفرة وليمة الآثم.

جــاء الاحــتلال متـدثرًا بـرداء الديمقراطيـة المزيفـة، يخفـي خلفـه نوايـا خبيثــة ومخططـات سـرقة ممنهجــة لخيـرات الـبلاد، لتنــتعش حبيبتــه إسـرائيل فـي ظـل أمـانٍ ممتـد لعقـود. لـم يهلـل لقـدومهم سـوى شـرذمة مـن الخونــة واللصـوص والعمـلاء والـدجّالين، ممـن رأوا فـي الفوضــى فرصـــة ســانحة لاقتنـــاص الـــدرر وامتطـــاء صـــهوة الجـــواد نحـــو مصالحهم الدنيئة.

عمـت الفوضــى أرجـاء العـراق قبـل السـقوط وبعـده، وانفجـر شـررها مـع أول رصاصــة أُطلقـت فـي غـزو الـوطن، فاشـتدت جـذورها خـلال أيـام الحــرب العصـيبة. وفــي اليـوم التــالي للاحــتلال، اسـتيقظ الشـعب علـى موسـمٍ مـن الجـراد، يـنهش الـبلاد بـلا رحمـة، ويجتاحهـا كالسـيل العرم.

لـم يتـرك اللصــوص حقـلاً إلا نهبـوه، ولا خزينــة إلا اقتحموهــا، حتــى تحولــت ســاحات الــوطن، وبنوكــه، ومتـــاجره العـــامرة إلـــى أطـــلالٍ مقفـرة، خاويــة مــن الحيــاة. امتـدت أيــاديهم الآثمــة إلــى خيـرات الـبلاد،

ثم تمادوا بخبثٍ لا يُضاهى، فغاصت أظافرهم في جيوب المواطن وقلبه، ينهبون مقومات العاطفة والانتماء، وكل ما وقعت عليه أعينهم من أموالٍ وجواهر ثمينة.

كانوا كمن يسلب الروح من الجسد، بلا وجل، ولا أدنى شعورٍ بالذنب.

الأمريكان هم من صنعوا الفوضى، هم أول من بادر بالسرقة حين نهبوا خزين البنك المركزي، بذهبه ودولاراته وتحفه. جاءوا بالفوضى معلبة، مصقولة، براقة، ملونة كقوس قزح، وزعوها على أطياف الشعب بالتساوي، علب تتصف بالطائفية والقومية والمحسوبية والمصالح الذاتية والعربدة، مفخخة بالوبال، دون أن يدركوا أن سر الوبال مكنون في بوتقة أذهانهم، وأنهم هم أصل البلاء.

الأمريكان هم من نفضوا الغبار عن عقدٍ دفينة، كانت كامنة في زوايا التاريخ، ليعيدوا تفعيلها وتوظيفها في التنكيل بين أبناء الشعب، فيسهل عليهم تمزيق نسيج الوطن بطوائفه المتعددة. هم من جَلَوا الصدأ المتراكم على تلك العقد بدماء الأبرياء، حتى أشرقت صدفيتها أمام أعين الخونة والمأجورين، كأنها كنزٌ طال انتظاره..... هم من أطلقوا السيل ليجرف الأزقة والبساتين الوارفة، كي يفتحوا الطريق أمام قطيعهم، لينهشوا ما تبقى من جمال الأرض وكرامة الإنسان. لقد جاءوا لا ليبنوا، بل ليهدموا. لا ليحرروا، بل ليقيدوا. لا ليزرعوا، بل ليحصدوا ما لم يزرعوه.

أما الطابور الخامس، فقد تحرّك كأفعى تتلوّى في الظلام، واضعًا نصب عينيه أهدافًا تختزل الحياة في غنائم ومكاسب، باحثًا عن خلايا النحل وقوارير الذهب في جحور النمل، منقّبًا عن المؤن والمخازن، طارقًا أبواب البنوك والمراكز التجارية والمتاجر

الأهلية والصوامع، واضعًا يده على كل ما هو ظاهر ومخفي من قوت الشعب وخيراته، وما هو مدفون تحت الثرى أو بعيد عن الأنظار من مخزون ومواقع كانت ترتكز عليها الدولة في تسيير أمورها.

تحرّك هذا الطابور مع سقوط تمثال الرئيس واختفائه من ساحة الميدان. لم يدركوا أن التمثال، رغم رمزيته لدكتاتور العصر، كان يحمل في وجوده أثرًا عميقًا في حفظ كرامة الشعب، وكان كالرمد في عين العدو، يمنع نواياه السوداء من أن تشتط بين أفراد الأمة. كان وجوده شاهدًا على طمع الغرب وحسد الجيران، وبسقوطه سقطت أقنعة الوجوه، وسُرقت سلة الوطن، ومسلة التاريخ العريق، وثرواته المدفونة تحت التربة.

مع سقوط التمثال، انطلقت شرارة النهب، وتدشّنت مرحلة جديدة من الفوضى، حيث لم يعد الوطن وطنًا، بل ساحة مفتوحة للغزاة واللصوص، يتقاسمون خيراته كما تتقاسم الذئاب فريستها. جاءوا يحملون قربًا خاوية وسلالًا فارغة وأخياش، حفّوا البلاد من كنوزها، من تاريخها، من ذكرياتها ومسلاتها، من براءتها وضحكتها وأملها وأحلامها. حتى لعب الأطفال لم تسلم من أيديهم. لم ينجُ من خبثهم شيء؛ سرقوا الدواب والضأن، وانتزعوا نعال المصلين والكهنة من الصوامع، في محاولة لطمس شذرات الدين التي تقوّم أخلاق البشر.

صارت الفوضى الحارس الوحيد للبلاد، تهدد المارقين في شوارعها، وتلهب الأرض تحت أقدام الشعب. لم تهدأ نيرانها لحظة؛ إذ شبت الحرائق في الأسواق والحارات، في الوزارات والبنوك، في الصوامع والمراكز التجارية، بتخطيط محكم ودعم خارجي منسّق مع الحرامي الأول، الغاصب المحتل. وكما شبت نيران الغيرة في قلب كل عراقي شريف، تصاعد الدخان من كل

حدب وصوب، كأنها بهرجة عرس، لكنها كانت مأتمًا، عزاءً لا يُضاهى، عزاء وطن بأكمله وقد لسعت النار جمجمته.

تنّور لم يبرد، ورائحة اللحم المقدد تفوح من بعيد، تتعالى في مرج الدخان الملتحم بالنجوم. أضحت بغداد غريبة، لا تشبه نفسها، لا صلة لها بالحاضر ولا الماضي. لبست أسمال التاريخ، وعادت إلى عهد التتر من جديد... أمست أشبه بالأثمة في زفّتها الجديدة، يوم زُفّت بالقصف في ظل يومٍ عاصفٍ مغبرٍ شائك. سقطت كسقوطها الأول، جثت على ركبتيها، باتت تزحف خلف التخلف والانحلال والانحطاط.

لم يكن النظام السابق سوى تجلٍ آخر للبخل السياسي، لا يختلف كثيرًا عن حكم المستعصم بالله، آخر خلفاء بني العباس، الذي بخل على شعبه بما خزنه من ذهب ومال، فتركها فريسة سهلة للمغول حين اجتاحوا بغداد. كذلك فعل نظام صدام، إذ راكم ثرواته تحت غطاء الحصار والتقشف، من خلال بيع النفط بطرق غير مشروعة، متدثرًا بعباءته السوداء، تاركًا تلك الكنوز هدية سقوطه للمحتل الأمريكي، وللصوص والخونة الذين انقضّوا على بغداد كالسيل الجارف، يفتحون أبواب البنوك والوزارات والمتاجر والصوامع، تلك التي كانت مؤونة الشعب لسنوات قادمة.

ووفقًا لما ورد في الصحف آنذاك، فقد استولت القوات الأمريكية على شاحنات محمّلة بقناطير الذهب، ومبالغ تجاوزت ستة وعشرين مليار دولار. ولو أن النظام أنفق على شعبه مليارين فقط، لتحسّنت أحوالهم، وربما دافعوا عنه حتى الرمق الأخير، وما كان ليسقط بهذه السرعة أمام المحتل، ولا في أعين الناس.

تسابق اللصوص مع المحتل نحو مراكز الثروة، فما إن نهبت قوات المارينز البنك المركزي، حتى تحولت البنوك الأخرى في أحياء

بغداد والمحافظات إلى أطلال متناثرة في ساحات النهب. ورغم فداحة المشهد، فإن وجود تلك الأموال في جيوب اللصوص بدا أهون من أن تكون في خزائن المحتل الغازي.

تفننت العصابات في اقتحام أهدافها، مستخدمة كل أدوات العنف: البنادق، السلاح الأبيض، الهراوات والعصي. حملوا ما استطاعوا من أكداس النقود، وسبائك الذهب والفضة، وصناديق محكمة الإغلاق، وأكياس ممتلئة بالدولارات والمستندات والعقود، تلك التي عجز النظام عن تحويلها إلى لقمة تسد رمق المحرومين من العمال والموظفين والجنود، الذين طحنهم الحصار والحروب، دون أن يجدوا من ينصفهم أو يمد لهم يد العون.

هكذا كانت النهاية: شعبٌ منهك، ونظامٌ متغطرس، ومحتلٌ جشع، ولصوصٌ جياع. وكلٌ نال نصيبه من الخراب، لكن بقي السؤال معلقًا في سماء بغداد: ماذا لو أن النظام أحسن إلى شعبه قبل أن ينهار؟ هل كانت بغداد لتُنهب بهذا الشكل؟ وهل كان التاريخ ليكتب فصلًا أقل مرارة؟

لقد أشعل الأمريكيون فتيل الفوضى، لا بوصفهم غزاة فحسب، بل كمهندسين لانهيار الدولة. حملوا الجواهر في صناديقها الجاهزة، وكدّسوا سبائك الذهب في عربات "اللوري القلاب"، لينقلوها إلى خزائنهم البعيدة في أمريكا، وكأنهم يفرغون خزائن بغداد ليملؤوا خزائن واشنطن.

تُركت تلك الثروة الهائلة لقمة سائغة في أفواه عناصر المارينز، ممن لا يحملون من صفات الجندية سوى الزي، كما وصفهم الغضب الشعبي، وإلى جانبهم جياع الداخل من اللصوص وذوي النفوس الضعيفة، قتلة ومأجورون وقطاع طرق، أولئك الذين أطلق

عليهم الناس لقب "أصحاب الحواسم"، تعبيرًا عن فوضى النهب التي اجتاحت البلاد.

تحولت شوارع بغداد إلى مسرح مفتوح للنهب، حيث المقطورات وعجلات النقل من "البيك آب" والعربات المدفوعة والمجرورة تحمل ما تحمل من مخازن البنوك، ولوازم الوزارات، من أثاث وتحف وأجهزة إلكترونية، نُقلت إلى أماكن خفية مجهولة في دهاليز بغداد وشمال الوطن، وكأنها تُخبأ لزمن آخر أو لصفقة أخرى. وقد أفضت المنافسة على سرقة المال العام إلى صراع شرس بين تلك الفئات المتنازعة، بعضها مدعوم بقوى خارجية، تسندها بالسلاح والأفراد والدعم اللوجستي. اندلعت صدامات عنيفة بين العصابات، دارت رحاها في شوارع بغداد، فسقط قتلى وجرحى، وتحوّلت المدينة إلى ساحة حرب بلا راية.

"إذا ضاع القانون، فافعل ما تشاء"- عبارة تنطبق تمامًا على تلك المرحلة، حيث تلاشى النظام، وتبخر الحبر من على الورق، وانزوى القانون عن الساحة، تاركًا الشعب في مواجهة قدره، والعصابات في سباقها المحموم نحو الثروة، دون رادع أو ضمير.

تحوّل العراق إلى غابة لا يسودها إلا من يملك القوة، فيما باتت أحشاء الوزارات ومصارينها تُسحل في الطرقات، وتُنهب على مرأى من العامة. فقد سُرقت أثاثات الوزارات وقصور الدولة، ونُقلت إلى البيوت والمزادات العلنية، وكُشطت مخازنها حتى آخر قطعة، لا سيما الأجهزة الإلكترونية والكهربائية، والكنبات، والفرش، والكراسي، والقرطاسية، وكل ما له قيمة. حتى أسوار المباني وأبوابها وشبابيكها لم تسلم، جُردت من زينتها قبل أن تُحرق انتقامًا وحقدًا على يد عصابات مأجورة، مدفوعة من جهات خارجية.

وكـان لليـد الخفيـة المدعومـة مـن بعـض دول الجـوار دورٌ خبيـث فـي إحـراق مؤسسـات الدولـة، خصوصًـا دوائـر النفـوس والتجنيـد، بهـدف طمـس الحقـائق ومحـو الأصـول المدونـة فـي سـجلاتها. فبـإتلاف تلـك الوثـائق، أُتـيح المجـال لـزج الجواسـيس والعمـلاء بـأوراق مـزورة، ليُمنحـوا صـفة المواطنـة، ويُـدفعوا إلـى مواقـع قياديـة فـي المجتمـع العراقي، يخدمون من وراء الستار مصالح أسيادهم في الخارج.

وهكـذا، لـم يكـن الخـراب وليـد لحظـة، بـل نتيجـة مـؤامرة محكمـة، اسـتهدفت البنيـة الإداريـة والهويـة الوطنيـة، لتُفـرغ الدولـة مـن مضمونها، وتُملأ بمسوخ لا تنتمي إلا لمن دفع بها إلى الواجهة.

4

ولدت الفوضى في العراق ولادةً عجيبة غريبة، كأنها إحدى عجائب الكون الجديدة والتي لا تفسير لخلقها. خرجت إلى الدنيا بعينٍ واحدة لا ترى سوى الطمع، وأنفٍ منتفخ مشروم يتنفس الطائفية والقومية كما يتنفس الهواء. لها أفواهٌ وأطرافٌ لا تعد ولا تُحصى، تلتهم كل ما يعترض طريقها: البشر، القيم، الأحلام، وحتى التاريخ.

عاشت في الأرض فسادًا، قتلت، جزّت الرقاب، سرقت الدرر، وزّعت الهموم، ونشرت الفتن كما تُنثر البذور في أرضٍ عطشى. ترعرعت كطفلةٍ رعناء، نغلة، لا أصل لها ولا نسب، حلت كقدرٍ أسود، ونسجت من خيش الظرف لباسًا لها، فخدعت كل أطياف الشعب بخبثها وعبثها.

رضعت من صدر أمريكي، وتشربت تعاليمها من شيخٍ صهيوني، وارتدت لباس الرجعية، وتزيّنت بثقافةٍ أعجمية. شرّعت السرقة، وأباحت القتل، وروّجت للفتن والزنا، ونبذت الدين، وتعلّقت بالشعوذة، وأشعلت نار الفتنة بلا هوادة.

استندت إلى مبدأ "عالم الغاب"، وتشبعت بفكر مكيافلي، حيث الغاية تبرر الوسيلة. باسم الديمقراطية، بثّت الطائفية، والشوفينية، والشعوبيّة، والشعوذة، حتى غدت الفوضى دينًا جديدًا، لا يعرف الرحمة ولا يعترف بالحق.

فايروس الفوضى تسلل إلى أعماق النفس العراقية، شرع ببناء جدارًا من العزلة في قلب كل فرد، مدعّمًا بوازع ديني وقومي وطائفي. استيقظت النفس الأمّارة بالسوء في داخل الضعيف والعابث والمجنون والشريف والحازم، كلٌّ حسب مرآته الأولى

للأحداث، فتسارعت النفوس نحو زرع ألغام الفتن والمصائب في حقول الوطن، لتنفجر فجأة في كل بيت، وتقتل الألفة والمحبة والبراءة والوطنية بين أبناء الأسرة الواحدة والوطن الواحد.

هكذا أُقعد الوطن لعقدين من الزمن وهو يستجدي الرحمة من الغادرين، يزحف على بطنه خلف مصير مجهول، متشحًا بأسمال الحزن واليأس، مكبّلًا بعُقد وألغام خرشت دستوره. صار العراقي يتحايل على نفسه وعقله ليظفر بلقمة تسد جوف جوعه، قبل أن يغرق في متاهة العيش الضنك، والفقر المتنامي كقصبٍ في كل زاوية.

غايةٌ زرعها أعداء العراق في نفوس المساكين الذين ذُبحوا على أرصفة الانتظار في مواسم الحصاد والفرح. اختلط الحابل بالنابل، ولم نعد نميز بين الصالح والطالح، حتى تشابهت الألوان والنيات والغايات، وتلطخت الأيادي بالدم الفاسد إلا ما ندر. اشترك المواطن والدخيل في ذبح ناقة الوطن قبل أن يجهز عليها العدو الذي وجد فرصته، ليعلن رئيسهم القذر بوش انتصارًا وهميًا عبر الإعلام المرئي والمقروء دون أن يدرك الحقيقة التي فجعته.

تلك الفوضى لم تكن وليدة لحظة، بل نتيجة طبيعية لسنوات من الحروب والحصار والانحلال. فما إن تنتهي حرب حتى تُزج الدولة في أخرى، حتى غصّت النفوس في عنق الزجاجة، بحصار دام ثلاثة عشر عامًا من الجوع والفاقة. تلك السنين العجاف مهّدت لاحتلال العراق، بعد أن يبست جذور المواطن والوطن. ثلاثون عامًا من العنف والتكبر والاستعلاء والمزامطة، أنهكت الشعب، ومهّدت الطريق للمحتل الذي خطط لذلك مسبقًا، بمعونة أقزام من الخونة، ليتسلط على رقاب العراقيين بعنجهية وغرور واستبداد.

كان الحصار أشبه بآفة جائعة درفتها الأمم المتحدة في حديقة العراق، لتحش النفوس والشجر، ليمتد صخبه كل أرجاء العراق، اخطبوط أعْرَسْ أطبق فاهه ومجساته على المدن والقرى، عجز الفرد عن فك ذاته من أنشوطة ذلك اللغز، كما عجزت الكلمات عن وصف شراسته.

تفجّر الحصار دون هوادة كبركان غضب في قلب الرعية، شلّ الوطن من أقصاه إلى أقصاه، وترك ندوبًا غائرة في الوجوه والنفوس. جفّف الأرض، وسحق الفلاة تحت أقدام المساكين. بزغ بلون الدم، بحلكة الظلمة، وبقوة الإعصار. ظهر بوحشية الذئب وشراسة النمر، مكفهر الوجه، عبوس، جلد، شرس، شائك، قبيح المنظر، حتى الوحوش كانت تفرّ من قبح هيئته.

زحف على الفكر والقيم، اجتاح المبادئ والأخلاق، عبث بالثقافة والعادات، وأحرق الأحلام والرغبات. جعل الحياة بركة آسنة بلا عمق، مستنقعًا يفيض بالحشرات، هوة بلا منفذ. أجهز على كل جميل قبل أن يجهز على البدن ويفريه.

انهارت القيم التي كنا نستند إليها، ذابت كما تذوب الأملاح في الماء، بلا أثر. وحلّت محلها قيم براقة، مصطنعة، بلا نكهة ولا ذوق. غسلت الأبدان، وشطبت النفوس من عفتها وعمقها، عقرت الأرحام، وبعثرت خرز الحياة في متاهات الظرف الجديد.

لم تقاوم الفئة الشبابية، فهجرت الوطن كالعصافير المهاجرة، مع أول إعصار عبث بمقدّرات الدولة والناس. انقلبت حالة الإنسان رأسًا على عقب، ولم ينجُ إلا من باع ضميره وركب مركب العدو، أو من تدارك أمره قبل أن يفلت الزمام.

جار الحصار على الشعب، فقطع صلة العراق بالعالم الخارجي. لا استيراد ولا تصدير، لا بيع ولا شراء. طحنوا نخالة الخشب والنوى

مـع الـدقيق، فتلـوّن الخبـز بسـواد الفحـم. تقطعـت صـلة الـرحم، وانتشـرت الوشـاية والرشـوة كالوبـاء. طغـت الأنانيـة، ونُبـذ التسـامح، فولدت الكراهية في جحر كل فرد.

زمـن مـريض، عـزف فيـه الشـباب عـن الـزواج، وتـرك الحلـيم حلمـه حتـى تعفّـن. انـزوى الصـبر، وصـار العاقـل يبحـث عـن صـوت قلبـه بين الفرص الضائعة، مضطرًا إلى منح ذاته فرصًا غير شرعية.

اسـتغل السماسـرة والتجـار الوضـع، فـزادوا أرصـدتهم بتجـارة بـلا رقابـة. اسـتعانت الدولـة بهـم، فغمـرت السـوق ببضـائع بخسـة، منتهيـة الصـلاحية، بأسـعار تفـوق قـدرة الشـعب. تعـاونوا مـع إيـران وتركيـا، واستوردوا أسوأ ما فيها، فيما انحدر الدينار إلى الهاوية.

هـذا الحصـار كـان سـببا رئيسـيا لتخلـي الشـعب عـن السلطة الحاكمـة، وهـو السـبب الرئيسـي فـي سـقوط بغـداد بالسـرعة الغيـر معقولـة خـلال أحدى وعشرين يوما فقط من بدأ معركة الاحتلال..

مـع بـدأ الحصـار وضـع البـيض الفاسـد تحـت رفـاة الـوطن، لـتفقس تلـك البيـوض عـن صيصـان مـن لصـوص وقتلـة ومـأجورين ومتلصصـين وحفـاة وأحـزاب وطائفيـة مقيتـة، بحيـث انتشـرت فـي مرافـق الدولـة كالجنـادب، بـذلك تجـرد الشـعب مـن الحكومـة التـي أوصـلته لمرحلـة الـذل والهـوان، فـرأى فـي الاحـتلال فرصـة الـتخلص مـن نظـام أنهـك بدنه وعس نظره، أبتلاه في حروب كان في غنى عنها.

فلـولا الحـروب لمـا وصـلنا لحالـة الـدرك، لـولا حـرب الشـمال عـام 1975 لمـا تنـازل صـدام حسـين عـن جـزء مـن شـط العـرب لإيـران، ولـولا تنازلـه ذاك مـا بـدأت حـرب الثمـان سـنوات العجـاف مـع إيـران، لـولا حـرب إيـران مـا تجـاوزت الكويـت علـى حـدود العـراق ليـدخلها العـراق، ولـولا دخولـه الكويـت مـا فـرض الحصـار علـى الـوطن، ولـولا الحصـار الجـائر مـا سـقطت بغـداد واحتلـت مـن قبـل الزنادقـة،

ولـولا الاحـتلال مـا فسـدت نفـوس النـاس وجـارت علـى بعضـها فـي حـرب الطائفيـة راح ضـحيتها مئـات مـن الالـوف الابريـاء، حـين وصـل الحـال أن يقتـل البشـر علـى أسـمه، ولـولا تلـك الأحقـاب البائسـة والتخطيط الفردي الغير مجدي، ما ولدت هذه الرواية.

عجـز دهاقنـة الساسـة عـن صـياغة خطـابٍ يقنـع الشـعب أو يفـض النـزاع، فبقيـت العُقـد تلتـف حـول عنـق العـراق، تُضـيّق عليـه أنفاسـه، وتُغرقـه فـي فوضـى عارمـة. تلـك الفوضـى فرشـت ظلالهـا علـى بعـض المحظـوظين الـذين لـم تكـن لهـم روح المنافسـة، فيمـا عصـفت بالبقيـة إلى سلال المهملات.

بعـض المسـاكين الـذين تمكنـوا مـن غـرف قمـع مـن البحـر المبـدى، لـم تكـن لهـم نيـة التخريـب، ولكـن جـرفتهم الفوضـى لحـدود العاصـفة، زحفـت علـيهم مخرجـات العقـد، لطخـت أقـدامهم بمخلفـات السـيل، جـرفتهم لمسـتنقع الفوضـى والرذيلـة، فأصـابوا مـا أصـابت النفـوس الامارة بالسوء.

دخلـوا الأبـواب المفتوحـة، يشـمّون مـا فيهـا مـن شـياطٍ أدمعـت أعيـنهم وأزكمـت أنـوفهم، عسـى أن يجـدوا مسـلكًا ينتشـلهم مـن جلـد الفـاق. فانغمسـت أنـاملهم فـي زبـد الوليمـة التـي أعـدها المشـعوذين واللصـوص والمـأجورين، تلـك الطبخـة كانـت قـد تقـددت داخـل تلـك البنايـات مـن قبـل راعـي الفوضـى، فـدخلوها قـانعين مستأنسـين بعـد أن كانـت تلـك الأمـاكن محرمـة علـيهم قبـل الاحـتلال، ليسـتمتعوا بلقمـة سـائغة غفلـت عـنهم فيمـا مضـى. فتلـذذوا بملعقـة مـن هنـا وأخـرى مـن هنـاك، حتـى أتخمـوا بطـونهم. لـم تكـن إرادتهـم حاضـرة، إنمـا وسـوس لهـم الشـيطان، فتلاعـب بمقـدراتهم وحـرك مستشـعرات هواجسـهم كتحريـك الـريح أوراق الشـجر. تحركـت أيـاديهم مـع ريـح الفوضـى اسـوة بالمـارقين، وانبثقـت فـي أفكـارهم رغبـةٌ تبعـت مجريـات الأحـداث، فوجـدوا ذواتهـم تنخـرط بتلـك المعمعـة البليـدة دون أن تكـون لهـم نيـةٍ مسـبقة. وجـدوا

الفرصة سانحة مع أحشاء الدوائر المستباحة في الشوارع لتلقف جزءا منها.

حال هؤلاء المساكين هو حال المعدوم الضائع المنهك، لكن عزة النفس والكرامة والغيرة على الوطن فرضت عليهم أن يتجنبوا المراهنات بعد سقوط التمثال، تأملوا وضعا جديدا يجعلهم في مقدمة الركب، ليجهزوا على تلك الولائم الجاهزة، صمتهم وشعورهم بالمسؤولية وقلبهم الرهيف منعهم من تخطي حاجز العفة والشرف، حتى وجدوا الفوضى قد فاضت بهم، عصرت السموم في أقداح مشاربهم، وجدوا أنفسهم أشبه بالمضطرين لخوض غمار تلك التجربة مع المتصارعين على العظْمَة، فجاءت مشاركتهم متأخرة كـ بلسم يخفف الالم ولا يوقف نزف الجراح.

ما في اليد من حيلة، النفس لوامة والفوضى عارمة، قذفت بالمساكين في وسط المعمعة، بحيث في نهاية الأمر تمكنوا من الحصول على كرسي خشبي أو من الأستيل، أو فرشة قديمة أخذوها يسترزقون بها، ليمسحوا بقيمتها جزء من وغف الحصار الذي لاك وجوههم وقوض ظهورهم وجفف عروقهم.

حيث أثاث تلك الدوائر أضحت بأيدي الناس بشكل مفاجئ دون تفكير مسبق بها، لم تكن تغنيهم أنما كانوا بحاجة لها لترميم ما خربه الحصار، وذاك لما للحيوات من قساوة أفردت العقد في مسارات طرقهم.... أنه أرث دولة غنية تناثرت أمام مسالكهم كأوراق شجر الخريف، في مقابل شعب منهك مقيد بالفاقة- المعادلة غير متكافئة، شتان ما بين الجنة والنار.. " هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ" صدق الله العظيم.....

هـذه هــيَّ الشــعرة التــي قصــمت ظهــر البعيــر، لــم تكــن هنــاك علاقــة وثيقـة تـربط المـواطن بالقيـادة! سـوى خـيط واه سـرعان مـا قطـع بعبـث الأجنبي وسعير الفقر وناره.

هـذه الهـوة بـين السـلطة والشـعب حفرتهـا الدولـة ذاتهـا بأياديهـا، فأنتبـه عليهــا العــدو، فأســتغل ثُلَمَهــا الداجنــة، فــدخل مــن خلالهــا إلــى حــوض الشــعب.. الدولــة تناســت أو اســتغنت عــن تلــك الفجــوات، لــم تأخــذ تلــك الهـوة بعـين الاعتبـار، ذلـك مـا جعـل البـون شاسـعٍ بينهـا وبـين الشـعب، مـــا دع المحتـــل يفطـــن لـــذلك الخلـــل، فـــأقحم ذاتـــه بمداعبـــة مزاجهـــا وتحريـك مستشـعراتها عـن أصـل موضـعها، مسـتغلا حجـم الفاقـة التــي وصـل إليهـا الشـعب كجسـر للعبـور إليـه، حتـى جعـل مـن العُقـد المبرمـة بــين الدولــة والشــعب أشــواكا تــدمي أنامــل الدولــة النائمــة..... كلمــا ودت الدولـــة إرخـــاء خيـــوط تلـــك العُقـــد؛ التـــف علـــى عنقهـــا، وذلـــك باســـتخدام الضــغط المتنــاوب عليهــا، تــارة تنــال مــن الشــعب تــارة أخــرى تخلخــل اركان الدولة وتفتت اسسها..

5

لم يكن قاسم سوى رجل بسيط، يعيش بالكفاف ويعتمد في رزقه على محل صغير لبيع بالات الألبسة المستعملة في قلب بغداد، تحديدًا في ساحة الميدان قرب مقهى أم كلثوم الشهيرة. كانت علاقاته الاجتماعية محدودة، لا تتجاوز أفراد أسرته وبعض الجيران والمعارف المقربين، مثل أبو عادل جاره في منطقة البتاوين، وأبو عصام جاره في المحل، وزوج شقيقته صفاء (أبو عامر) المقيم في حي الأعظمية، بالإضافة إلى أهل زوجته في مدينة الثورة، وأخيه جاسم وأمه اللذين يعيشان في منطقة الفضل، وشلة صغيرة من الأصدقاء لا يتجاوز عددهم عدد أصابع اليد.

قاسم هو الابن الأكبر في أسرته، تليه شقيقته هدى التي تصغره بخمس سنوات، وقد تزوجت من صفاء، ثم يأتي أخوه جاسم الذي يصغرها بخمس سنوات أخرى. لم يحقق قاسم نجاحًا يُذكر في شبابه، سوى عمله كأجير في مكتبة لبيع الكتب والقرطاسية في شارع المتنبي، قبل أن يتزوج ويفتتح دكانه الخاص. كانت أجوره اليومية بالكاد تكفي حاجاته، لكنها منحته نافذة على العالم، فقرأ كتب التاريخ والدين والفلسفة، واطلع على روايات عالمية لتولستوي، فكتور هيجو، وديكنز، كما نهل من أعمال ديكارت وسارتر وابن سينا، مما جعله يختلف جذريًا عن أخيه جاسم الذي انغمس في حياة الشارع، باحثًا عن لقمة العيش بأي وسيلة.

بعد وفاة والده، لم يرث قاسم سوى الهم والشقاء والفاقة. اضطر للعمل في وظائف سطحية بسيطة، ساعدته على الاستمرار ومواصلة دراسته حتى أنهى المرحلة الثانوية بشق الأنفس. لكن الحياة توقفت عند حدود جيبه الخاوي، فلم يتمكن من إكمال دراسته الجامعية بسبب تكاليفها الباهظة، في وقت كانت فيه أمه وأخوته

بـأمسّ الحاجـة إلـى جهـوده اليوميـة لتجـاوز أزمـات الحيـاة المتقلبـة، مـن حروب وفقر وقسوة.

زواج هـدى مـن الضـابط صـفاء أثنـاء حـرب الخلـيج الأولـى مـع إيـران خفـف بعـض العـبء عـن كاهلـه، فلـم يبـقَ علـى عاتقـه سـوى أمـه القنوعـة وأخـوه جاسـم، الـذي اختـار طريـق الأعمـال الحـرة، فعمـل كنـادل فـي المطـاعم والمقـاهي، ثـم فـي البنـاء والصـباغة، إلـى أن اسـتقر فـي سـوق الشـورجة المزدحمـة كحمـال أجيـر، بعـد أن وجـد نفسـه حـرًا من القيود والالتزامات التي طالما أثقلته.

قبـل أن تمضـي سـنتان مـن زواج أختـه كـان قـد تـزوج قاسـم هـو الآخـر مـن فتـاة طيبـة المنبـت مـن مدينـة الثـورة أسـمها رقيـة، ليكـون والـدها سندا لـه خـلال فتـرة الحصـار، شـدَّ علـى ذراعيـه حتـى تمكـن مـن إسـناده ليقـف علـى قدميـه بفـتح محـل بـالات ألبسـة مسـتعملة فـي منطقـة الميـدان مـع بدايـة فتـرة الحصـار مـن عـام 1990، ليرتـزق منـه وليعـين عائلته ووالدته بالممكن.

مـع دخـول المحتـل، شـاءت الصـدفة أن تبتسـم لقاسـم، فـي خضـم الفوضـى التـي اجتاحـت الـوطن. تلـك الفوضـى العبثيـة التـي ولـدها الاحـتلال، كانـت كأنهـا غازلـت الحـظ، فـانعطف نحـو قاسـم دون أن يسـعى إليـه. لـم يتعقـب أثرهـا، بـل هـي مـن تعقبتـه، وأدارت دفـة الـنعم نحـوه، فاسـتغل الموقـف بـذكاء فطـري. التفتـت حولـه كوشـاح مـن نـور، وأضاءت وجهه بنعم لم يكن ليحلم بها حتى في منامه.

فـي الوقـت الـذي كانـت الفاقـة تشـتد علـى أبنـاء الشـعب، انتشـله الحـظ مـن ظلمـة العسـر دون سـابق إنـذار، وكـأن مـاردًا خـرج لـه مـن حيـث لا يحتسـب، وقـال: "شـبيك لبيـك، أنـا العبـد بـين يـديك، اطلـب مـا تشـاء." فوجـد نفسـه فجـأة فـي واجهـة التحـدي، وقـد غـادر واقعـه المـزري، وبـدأت ملامـح السـرور تزدهـر فـي حياتـه، تثيـر فـي نفـوس عذالـه

موجة من الحسد والغيظ، بعدما سطى على مساحة الظن، وخرق سقف التوقعات.

في سنوات الحصار، كان دخل محله ضئيلًا، لا يكاد يكفي قوت يومه، خاصة مع انهيار قيمة الدينار العراقي أمام الدولار. لم يكن يجني سوى ما يُعرف في لغة الشارع بـ "عِلاقة البيت"؛ أي مصروف يومي بالكاد يسد الرمق. كانت بضاعته متواضعة، لا تجذب الزبائن، لانشغال الناس بتأمين لقمة العيش، فغابت الأرباح، وتلاشت الآمال.

رغم ذلك، ظل قاسم قنوعًا، يرضى بالقليل طالما كان حلالًا، يأنف من الاستجداء، ويترفّع عن الحرام. لقّبه أصدقاؤه بـ"الرجل الأبيض القنوع"، لصفاء قلبه، وبياض شعره، وكياسته التي لم تلوثها الغيرة أو الحسد. كان يرتدي أطمارًا قديمة تزيده وقارًا، لا يلبس جديدًا إلا نادرًا، متعففًا بما لديه، كأن الفقر زاده هيبة.

قاسم، في الحادية والأربعين من عمره، رجل حنطي اللون، متوسط الطول، نحيف البدن، كأن الفاقة أكلت من عافيته. يرتدي نظارات طبية، وتعلو رأسه صلعة نصفية تحفها ذوائب فضية، يخالطها سواد خفيف، فيبدو شعره رماديًا كالحشائش المتجلدة. ملامحه توحي بعمر أكبر، بفعل التعب والشقاء، وتحت محجر عينيه يسكن إرث من السهر والكدّ.

لكن الأقدار شاءت أن تلطف بحاله مع بداية الفوضى، تلك الفوضى التي أطلقها المحتل، فكانت كستار عبثي أرخى رحمته على بعض من لم يكن لهم يد في العبث والسرقة أو النصب أو القتل. جاءت الرياح بما تشتهي سفنه، دون تخطيط أو تدبير، فشملته القسمة بنعمة التغيير.

الصــدفة لعبــت دورًا بــارزًا، بزغــت كورقــة النصــيب الرابحــة فــي حياتــه، لترسـم البهجـة علـى وجـه نسـي طعـم الفـرح، بعـد سـنوات مـن الظلـم والقهـر والـدم المسـفوك. لـم يكـن مـن اصـحاب الحواسـم، ولا مـن عصــابات النهـب، بـل كـان مـن أولئـك الـذين عطفـت علـيهم الصـدفة، وانتشـلتهم مـن حنـدس الليـل، ليعيشـوا فـي ظـل نعمـة خفيـة، خلـف سـتار لا يراه الآخرون.

أصـبحت الصـدفة واقعًـا، دحرجهـا الظـرف ككـرة فـي طريقـه، حتـى اسـتقرت فـي حجـره دون أن يسـعى إليهـا. كانـت كقطـة مراوغـة، تـنط علـى حجـر السـكون فالتمعـت بعينـه، فابتسـم لهـا دون أن يفكـر، وكأنهـا كانت تنتظره منذ زمن.

كانـت صـدفة أشـبه ببنـت بتـول، عـذراء، سـمراء، شـابة، جذابـة لحـد الهـوس، لـم تخطـر علـى بـال أحـد، ولـم يفكـر بهـا بذاتـه، ولـم تكـن ضـمن حســاباته، لكنهــا كانــت تمثــل لــه قــدره الضــائع، لتنــوس بــين حــدقات عينيــه وتعــين صــبره، فتــدحرجت أمامــه ليتعثــر بهــا وتتعثــر بــه، فانفلجـت أمامـه صـرة الـنعم، حينهـا أنتبـه لهـا وتتبـع أثرهـا، فالتقطهـا قبـل أن تلتقطــه الظنــون الخائبــة. كــأنَّ زرا إلهيــا أنتبــذ أمامــه فضــغط عليـه بسـبابته، فتفتحـت أمامـه أبـواب الفـرج والسـعد علـى مصـراعيها، لتحتضنه تلك النعم برحمتها ويحتضنها بانبهاره وسعادته.

هـذه الصـدفة التـي تـدحرجت أمامـه ككـرة الـثلج، نقلتـه مـن واقـع عسـره وصــبره المــزري لواقــع أخــر مغــري، متجــدد، فيــروزي، يتصــف بالثنــاء والرقــى. غيــرت لــون حياتــه ومسـتقبله الباهــت للــون بــراق بهيج، لقد تلـون حظـه بعكـس مـا تلـون بـه حـظ الـوطن مـن سـخام وسـواد وســوء الطــالع. أنبــرى ذلــك بشــكل واقعــه المــؤلم..... الصــدفة كانــت بمثابـة مصـباح عـلاء الـدين السـحري، مـا أن تعثـر بهـا حتـى بـان لـه المارد شاخصا بين يديه، ينتظر أوامره تملى عليه...

هذه الصدفة ولدت من رحم السماء، من عمق الجفاء، مع طقطقة العلب الفارغة وصرير الريح العابثة بها، فالتمست رحمتها نظرات عينيه الغضيضين، المنكسرين. باختيارها له هدأ فكره، خفت اضطرابات قلبه، جفت دموعه بعد أن أمن مستقبله في وسط المهاترات والمرافعات والمماحكات والتناقضات الدائرة في ارجاء الوطن، وذاك الشؤم البليد السائد في بغداد.

هذه الصدفة غازلته بقزحية عينيها الملونتين، ارتدت قميص حلمه الفضفاض، تقمصت حظه الذي ترنح بين ثنايا الفقر والتبجح، برَّجتهُ بالبسمة الشفافة الخجلة، المعجونة بحمرة أزاهير الجُلنار الداكنة، ليكون ذا جاذبية تسر الناظرين، كفتى يافع بسن العشرين.

قدره المسير قاده في طريق سعيه، قدره الذي ألح عليه ليتدحرج أمامه بسلاسة، لينتشل ذاته من واقعه المزري، لعبت الصِدفة بمكعبات الذهن، هيأت له أحرف المستقبل، لتوافق معانيها مع لمعان صَدفيتها، في الوقت الذي به لم يكن يجرئ أن يحلم بالرفاهية إطلاقا، لكنه منذ تلك اللحظة تبدل الحال، صار يخطط لحل أحجية لغزه بهدوء تام وراحة بال، صار يحلم بأحلام المرفهين والتجار.

لقد عاش حياته المنصرمة بهدوء تام، كان مسالما، يكره الأفعال المجلجلة، الصاخبة التي يمارسها البعض جراء الأنانية والطمع المبالغ به.. أما بعد تلك الصدفة تقبل الضجيج الذي دخل حياته.

كان عادلا، لا يحب اللون القاتم الذي يتلون به البعض من ذوات النفوس الضعيفة، وخاصة أصحاب الطبقات المتسلطة الذين غالوا بطمعهم وبتعسفهم تجاه الشعب، فهرست أفعالهم أفكارهم المسمومة، لذا ظلت أعينهم تموج في دروب الشر، فلم تبصر إلا ما تحت القدم. لقد عاش قاسم في ظل تيار مضطرب يعاكس الاتجاه

المتقلب الجديد، ضمن فلسفة البقاء نظيفا بثوب ناصع البياض، ليبقى تنمازه مختلفا عن زملائه وأنظار الآخرين.

آلة الجز التي يستخدمها ضعاف النفوس لا تروق للسيد قاسم. أولئك الذين يعيشون كالبكتيريا العفنة على أجساد الآخرين، شرذمة أشاعت الفوضى والخوف والعدوانية في صفوف الطبقات الفقيرة والمهمشة، لا لشيء سوى لتوجيه سهامهم نحو الطبقات الثرية المتحصنة خلف أسوار السلطة، بهدف ابتزازها ومص دمائها عنوة.

هؤلاء، في نظر قاسم، لا يختلفون عن بعوضة الأنوفيليس، يمتصون دماء الفقراء لترسيخ مواقفهم أمام الأغنياء والجبابرة، يعتدون على الضعفاء لترهيب الأقوياء، في لعبة خبيثة من الاستنزاف والضغط.

ولا تتقاطع هذه الشرذمة مع تلك الفئة المغيبة، فئة العمائم التي تستغل الدين كغطاء لتمرير غاياتها، ترتقي بخبث إلى منصات النفوذ دون أن تبذل جهدًا مكافئًا من العلم أو الحكمة، غير عابئة بقيمة العمامة التي ترتديها، فتسيء للدين كما تسيء لرموزه، حتى بات الناس عاجزين عن التمييز بين المتدين الحقيقي والنصاب والسارق والنزيه، وسط هذا الخليط المتشابك.

الصدفة التي ساقها القدر أمام السيد قاسم، هي ذاتها التي جعلته يتعثر بها أمام دكانه. تلك الصدفة انتزعت صرة النعم من بين أيدي العصابات الغاشمة، الذين اقتحموا البنوك والوزارات، وسرقوا ما طاب لهم من الأموال المكدسة، أكياس الدولارات، أكداس الذهب، الأثاث الفاخر، والسجلات السرية... وكل ما كان يمثل أسرار الدولة وكنوزها.

هـؤلاء، فـي لحظـة طـيش، فتحـوا أبـواب الخـراب، لكـن الصـدفة اختـارت أن تسـرق مـنهم شـيء بسـيط ليبتسـم حـظ قاسـم، لا لأنـه خطـط أو تـآمر، بـل لأنـه كـان فـي المكـان الـذي شـاءت فيـه الأقـدار أن تمنحـه ما لم يكن يتوقعه.

هـؤلاء الـذين توجسـوا مـن المواجهـة مـع غرمـائهم نتيجـة أعمـالهم الخبيثـة، هربـوا مـن دائـرة الصـراع نتيجـة الملاحقـة النفسـية والكيديـة المثـارة بـين تلـك المجموعـات المتنافسـة علـى السـرقة، والنزعـة الـدائرة فـي داخـل ذواتهـم المهـزوزة. لتسـقط مـنهم جـزء ممـا سـرقوا فـي نقطة التقاء الحظ بالصدفة أمام دكان قاسم.

نتيجـة للعنـف المسـتعر، والمتوقـع، والمقتـرن بعمليـات السـرقة التـي تنفـذها مجموعـات تنافسـية، أو خوفًـا مـن التصـادم مـع فـرق المـارينز التـي تجـوب الشـوارع بـلا رادع، وفـي ظـل العبثيـة التـي تحكـم سـرعة الإنجـاز والفـرار بمـا غنمـوا مـن غنـائم الصـراع، كانـت إحـدى تلـك المجموعـات تعـيش حالـة مـن الجـزع والفـزع، مرتعبـة مـن مفاجـآت الطـرق المربكـة، ومـن مواجهـات غيـر محسـومة قـد تقلـب الطاولـة علـيهم فـي لحظـة غفلـة، وتـودي بـأرواحهم وبمـا يحملونـه مـن كنـوز، علـى يـد منافسـين شرسـين أو عصـابات اسـتفزازية تقطـع الطـرق بمفارز وهمية، ثم تجهز عليهم وتنهب ما غنموا.

فـي خضـم هـذه الفوضـى، وتحـت وطـأة التوقعـات المربكـة، والعجلـة التـي أربكـتهم، لـم يتمكنـوا مـن إحكـام ضـبط الأكيـاس والأكـداس المسـروقة. فالفوضـى الداخليـة انعكسـت علـى الخـارج، وشـلت قـدرتهم علـى التركيـز، حتـى فـاض الخـوف مـن ضـياع الكنـز فـي أذهـانهم، فـأزاح جـزءًا مـن المسـروقات خـارج الصـحن، قبـل أن يحتـدم الصـدام مـع أصـحاب الأوانـي المسـتطرقة، المختبئـين فـي مزاغـل الأزقـة ومنافذ الطرق الفرعية، وفي مفارز السيطرات الوهمية.

وبسبب تلك العجلة والارتباك الذي أنهكهم، وسلبهم القدرة على التقدير السليم، سقط أحد أكياس الدولارات أمام دكان السيد قاسم دون أن ينتبهوا. وإن علموا، فلن يجرؤوا على العودة إليه، فثقل ما يحملون، وخوفهم من خسارة كل شيء في مواجهة غير متكافئة، دفعهم للمضي قدمًا. وما حملوه من غنائم كان أضعاف ما فقدوه، لذلك تجاهلوا ما سقط منهم ومضوا في طريقهم.

كان ذلك مساء يوم 11 نيسان 2003، بعد ساعات معدودة من سقوط بغداد في قبضة الاحتلال، وبعد نهب البنك المركزي في شارع الرشيد. في تلك اللحظات، كانت المدينة تعيش حالة من الرعب، والناس لا تجرؤ على الخروج أو المجازفة بحياتها، فالأمان مفقود رغم سيطرة المحتل، وأصوات إطلاق النار لم تنقطع، بين المقاومين والمحتلين والمهللين للفوضى.

تلك الأجواء كسرت الثقة، وأضعفت الإحساس بالأمان، فصار شبح الموت يزحف بهدوء على الأماكن العامة، متخفيًا بين الطرق والأزقة والأرصفة، في مشهد عبثي لا يُحتمل. وهكذا بقي الكيس مموهًا، مدفونًا بين أكوام المتاريس والنفايات التي انتشرت في شوارع بغداد، نتيجة تحصن المقاومين بها، وإهمال البلدية لها خلال الحرب وما قبلها.

كان كيس الدولارات في مأمن عن أعين اللصوص، لم يجلب الانتباه ولا الإمعان له، لجلجلة الخوف والرعب المنتشرة في قلوب الناس، ذلك الوهم صار غطاء واق له، كفه عن الأعين المتلصصة... بصمة آثار الحرب كانت واضحة للعيان على شوارع بغداد وأماكنها العامة، صدت نفوس الناس وأفكارهم عن الحركة والمجازفة، لاستحالة ذلك التوقع الخيالي. ثم إن شكل كيس الدولارات لا يختلف عن أكداس المتاريس المبعثرة في الشوارع وعلى الأرصفة بشيء، لذا موهت صورته بظل تلك الأكداس،

أضـحت كغطـاء إضـافي لـه، إضـافة لأكـوام الزبـل والكارتونيـات وأكيـاس النـايلون المتطـايرة وقـوارير الميـاه المعدنيـة والغازيـة الفارغـة المبعثـرة فـي الطـرق والتـي امـتلأت بهـا الشـوارع بعـد أن عجزت البلدية من ممارسة عملها جراء اشتداد القتال..

كل ذلك موه شكل كيس الدولارات بين أكداس المقاومة المبعثرة.

ءءءءءءءء

فـي يـوم 4/11 وبعـد أن شـاعت الفوضـى وأخبـار السـرقات عبـر الإذاعـات ووكـالات الأنبـاء والتلفـزة الفضـائية عبـر الأقمـار الصـناعية مـن سـرقة البنـوك والمتـاجر الغنيـة والـوزارات ودوائـر الدولـة التـي باتـت أثاثهـا تزحـف فـي الطـرق، هجـس السـيد قاسـم بخيفـة علـى مصـدر رزقـه الوحيـد - دكـان البـالات- بقـي يعـيش حالـة قلـق فـي ظـل تفكيـر مشـؤوم قابـل لكـل الاحتمـالات الممكنـة والمتوقعـة. فـالفقير لـيس لديـه مـا يعتمـد عليـه غيـر دكـة يتكـئ عليهـا، وتلـك الدكـة هـي محـل البالات.

شـغل بالـه محلـه ومصـدر رزقـه، خوفـا مـن احتمـال تعرضـه للسـرقة والعبـث علـى وقـع طقطقـة الفوضـى التـي صـار يسـمع صـوتها فـي كـل مكـان، مـع دخـول شـلة اللصـوص التـي غـزت بغـداد كـالجراد، قادمـة عبر الحدود المفتوحة من قبل دول الجوار.

لـذا قلقـه صـار يغـز فكـره والـذي مـن خلالـه شـط ضـميره خـارج توقعـات التفـاؤل، تلـك الأوضـاع ضـيقت عليـه مسـار الأمـان، لـذا فكـر فـي زيـارة محلـه علـى الـرغم مـن أنـه لا يحتـوي سـوى بـالات ملابـس مسـتعملة لا قيمـة لهـا، لكنهـا كانـت كـل شـيء بالنسـبة لـه. حيـث غايـات النـاس لا تُـدرك وخاصـة مـع تلـك الشـلة التـي زجـت بهـا الـدول المجـاورة لتفعيـل الفوضـى واسـتغلال الفـرص المتاحـة لفـض حقـدها وغلهـا فـي الوسـط، فـي ظـل حمايـة المحتـل لتلـك الفوضـى. مجموعـات

غريبــة خرقــت المــألوف، لبــدت فــي بغــداد لخدمــة ذاتهــا والمحتــل، والتي من الممكن أن تعبث بصدفية المجتمع وبأي شيء يصادفها.

قلـق قاسـم هـذا نـابع مـن أنَّ أصـل مالـه مـال حـلال، وهـو الينبـوع الوحيـد الـذي يستسـقى منـه، فلابـد مـن الاطمئنـان عليـه قبـل أن يجـف علـى أيـدي المـارقين بـه. الفقيـر لا يملـك كنـز قـارون ليتغاضـى عـن أسـمال معروضـة فـي دكانـه. لـذا نازعـه الشـك فـي نفسـه، ربمـا الله فـتن ظنه وألهمه وشرّع قلقلته، فأودع الوجل كشوكة تغز قلبه وفكره.

أخـذ تفكيـره المشـؤوم يسـيطر عليـه، بـات يشـحذ همتـه ويـدفع بـه نحـو تخطـي القلـق دون جـدوى، هنـاك شـيء فـي داخلـة كفـأرة الكومبيـوتر تحثـه علـى السعي والاسـتطلاع عـن مصـدر رزقـه، تدفعـه لعمـل شـيء يـوازي تلـك الفوضـى ليتطمـأن علـى غـده، لابـد لـه مـن أن يتحـرك خطـوة للأمـام، لا بـد مـن أن يتحـرى سـلامة مصـدر رزقـه مـن أيـادي العـابثين الغاشـمة، تلـك التـي لا تعـرف صـيغ الرحمـة، فهـي معـدة سـلفا لجـز الرقـاب ونهـب الهبـاب ومـا يقـع تحـت اليـد ومـا فـوق السـحاب، سـواء كـان الشـخص فقيـرا أم غنيـا خلـف الأسـوار أو قـانط تحـت القباب.

قـد تطـال الأيـادي الأثمـة محلـه... صـار يـردد تلـك العبـارة مـع نفسـه فـي ظـل شـك لا مهـرب منـه، وبالتـالي يفقـد مصـدر رزقـه الوحيـد، فيضيع في متاهات المشقة والتفكير السلبي.

ذلـك النصـيب الـذي تحمـل آزره طـوال سـنين الحصـار الجـائرة، ذلـك العصـب الـذي رفـده بـالممكن والـذي أعتمـد عليـه كوسـيلة قبـول فيمـا سـبق فـي مجـاراة متطلبـات الحيـاة دون أن يعـرج، لا بـد مـن مراعـاة نبعه، فأن جف نعيمه جفت فرص المستقبل.

ذلـك مـا دعـاه أن يجـازف فـي صـبيحة يـوم 12/ 4/ 2003 مـن أن يعجـل فـي أمـر تفقـد محلـه وتقصـي سـلامته، ليتطمـأن علـى ديمومـة

رزقه ولينام قرير العين، وسط تلك المعمعة الدائرة في أجواء بغداد والتي حتما سيطول أمد بقائها وعقدها..

جازف رغم خطورة الطرق. الخوف من المجهول رافق ظله في دأبه، في ذهابه وإيابه، قد يصاب بمكروه دون أن يفكر به أحد، قد يقتل في منتصف الطريق قبل أن يصل مبتغاه. كثرة المفاجآت تولد احتمالية القدر، والمفاجئات لم تعد مفاجئات، بل أضحت واقع حال، لكثرتها باتت لا تُعد ولا تُحصى في مثل تلك الظروف المتجددة والمتقلبة، ربما يسفك دمه ويذهب سُدى في مهب الريح.

الداخلون للبلد مع المحتل تشعر بأشكالهم غير مألوفة، غريبة، تلفهم الغرابة في اللبس وفي تقاسيم الوجه، تغلفهم شكوك في النظرة والسلوك والتصرف. غرابة في كل شيء، في الغاية والنية... تشعر بهم كأنهم أدوات مبرمجة كالإنسان الآلي، يتحركون بريموت كونترول عن بعد وبتوجيه مبرمج من قبل المحتل أو من خارج الحدود، تابعون لقوى مجهولة متنفذة تتحكم بمقدرات البلد...

وجوه كالحة لا تدل على أنهم عراقيون مطلقا، ملامحها مختلفة، تمتاز بالدجل والخبث، تتصف بالوحشية والأجرام، مدربة، متهيئة لاقتناص اهداف مرسومة لهم، لن يترددوا في قنص من يعترض طرقهم أو من يصادفهم في طرقهم.. لأنهم أدوات دون أحاسيس، يهجسون بالخطر يحيط بهم، يهدد كيانهم، وهم يدركون جيدا ركاكة تواجدهم في بقعة محرمة عليهم، كونهم دخلاء على وسط مجهول بالنسبة لهم.

هؤلاء يبحثون عن الفرص المتاحة لانتهازها، يبحثون عن اللمحة، عن المصلحة الذاتية الصرفة، مستندين في تحركاتهم على قوة سلاحهم وعلى القوى المجهولة التي تسندهم وتحميهم. لذا يجب أن يتوقع الشخص المارق في الشوارع من أن هناك من يود أن يجرب

سلاحه به أو بأي عارض يصادفه وسط تلك الفوضى، قد يكون من باب المتعة أو من باب الحقد والانتقام. قد يكون من باب الخوف والحذر والتجربة، قد يكون السيد قاسم هو العارض المناسب لهؤلاء الحاقدين والمنافقين، هدف سهل المنال لأي معتوه يتعثر بحظه، أصبح الميدان غابة لا تأمن أفاقه - ناهيك عن مقاومة ضارية نامية من قبل أعضاء حزب البعث والوطنيين ممن يرفضون شكل الاحتلال.

تلك المقاومة لم تهدأ قط، هؤلاء الذين خسروا كل شيء بيوم وليلة، خسروا السلطة والجاه والكرامة والشرف والوطن، لم يبقى أمامهم سوى المقاومة التي شهدت على وجودهم. هؤلاء يعلمون بأن الموت يلاحقهم في أعماق تفكريهم وفي بيوتاتهم من قبل قوات المارينز وفرق المليشيا والأحزاب المستحدثة المؤيدة للاحتلال، وذلك لفرض تواجدها على الساحة. لذا وجدوا في المقاومة مسلك لأثبات هوياتهم وأنفسهم حفاظا على ماء الوجه أمام الهزيمة والذل والهوان الملحق بهم.

ذهب قاسم لدكانه باكرا بوجه شاحب أسيان دون أن يبالي بالخطر المحيط به، على الرغم من أنه يدرك ذلك البعبع يتجول في الطرق، فالخطر قد يأتيه بغتة، حتما سيجرده حياته، يجرده تفكيره وصيرورته، ربما يتعثر به صدفة دون تخطيط مسبق عبر الإطلاقات الطائشة النافرة في الأجواء، تلك التي تدور كأسراب العصافير الهاربة. ربما يتعرض لمداهمة ما من قبل العصابات الدائرة في الشوارع، تلك المرتعبة والخائفة من ظلها.

تلك المفاجئات تولد من لا شيء، قد تحط هنا وهناك دون تخطيط، تتبع السكون السائد لتنفلق كفرقعة في الوسط الذي يطرقه. حيث لأزيز الإطلاقات الدائرة في الاجواء وقع على النفوس الضعيفة، لذا تكون تلك النفوس غير متهيئة لتحمل هزيم ضعفها، وقد تكون

إطلاقـات طائشــة ترمــي بفألهــا فــي مســالك حــظ المســاكين كيفمــا القــدر يشــاء... ففــي العــراق أصــبح المــوت ســلعة رخيصــة الــثمن، الكــل ممكــن أن يعثــر عليــه أو يتــاجر بــه، وخاصــة مــن يخونــه حظــه وضــميره أو العابــث فــي الطرقــات، صــار يــوزع بعشــوائية علــى النــاس كحصــص التمــوين، تغــص بــه الشــوارع والأزقــة والمنــازل، أو تمطــر بــه عقــاب العدو من السماء لتزيد الوضع نكالا وبؤسا بين صفوف الشعب.

رغـم المخــاطر مـن حولــه فلـم يبـالي، لقـد ركـب مركـب القـدر وقـرر المجازفــة، هـــم بالـــذهاب لدكانـــه ليتطمـــأن علـــى ســـلامته وســـلامة بضـاعته مـن السـرقة وسـلامة رزقـه فـي تـوالي الأيـام... الأنسـان يفتقـد الأمـان إذا مـا أخطـرت حياتـه الفاقـة، الحيـاة تحتـاج لمسـاند وثيـرة يتكـأ عليهـا فـي نهايـة العمـر، سـواء كانـت تلـك مـن صـنيعه أو مـن صـنيع القدر، المهم أن يجد وسادة فراء يضع رأسه عليها لتتجمل أحلامه..

فــي الظــروف المتقلبــة وخاصــة إذا مــا كانــت مبطنــة بالفوضــى؛ يكــون لابـد مـن وجـود القلـق فـي حيـاة الفـرد، حتـى لـو حصـن ذاتـه بقـلاع مشـيدة.. حينهـا كـان قاسـم رجـلا مؤمنـا بـالله وبكتابـه، قـارئ لمـا يـدور حولـه " قـل لـن يصـيبنا إلا مـا كتـب الله لنـا، هـو مولانـا وعلـى الله فليتوكـل المؤمنـون" صـدق الله العظـيم... لـذا كـان قـد توكـل علـى الله، هـــمّ بالـــذهاب لتفقـــد محلـــه، تحـــت وقـــع الحـــرص والخـــوف مـــن المفاجئات...

الوضـع الجديـد شـغل بالـه وفكـره بـأمور جمـة، خاصـة وعامـة، حيـث وجـد الـوطن ينحـدر نحـو واطئـة الهاويـة دون أن يجـد مـن يسـنده أو مـن يشـد أزره، وبـالتي حالـة الوضـع العـام الاقتصـادي المنهـك سـينهكه أكثـر وأكثـر تحـت غلغلـة اللصـوص وافتقـاد الأمـان فـي ظـل نـزف حاصـل فـي جسـد الـوطن. أضـحت نظرتـه للمسـتقبل نظـرة بائسـة، وهـو المهـووس باسـتتباب الأمـان وسـعة الـرزق. العـين مرهقـة كأنهـا افتقـدت قـدرتها علـى التمييـز بـين الصـواب والخطـأ، تعطلـت مستشـعراتها،

غُطت بوشاح الحزن، لا تأبى أن تخلد للنوم وتلك الأحداث تبتهج بنشر النار هنا وهناك وعلى مساحة الوطن. ترى متى ستنتهي مسرحية الاحتلال، وكيف ستكون النتائج. ذاك ما كان يقلقه.

الظرف المجن جعله يشعر بذاته المتعبة كمكينة الحصاد؛ تحش صفوة العمر وتشد عناء الزمن، لا يجد من الظرف سوى زوان خوف يتراكم في دروبه كبيادر الحصاد... الظن الذي أرشده إلى التحري عن حالة دكانه، مرق في ذهنه كسهم صياد أخطأ هدفه، نبهه على ما يحيط به من ظرف كالح أجرد، حزَّ رقبته، لابد من وقفة قصاد الحالة ليتماسك صبره، لينقذ ذاته من هوام الغروب التي تجزل عنه الأمان، عسى أن يؤمن له ولعائلته صيغ حياة مقبولة، كأنَّ تلك الإرهاصات المشاعة في ذهنه ركبت فكره، صارت له الدليل لتجاوز عاقبة الزمن.

هكذا تدحرج مع الريح ككرة تبن ينثر صدى خوفه وهوسه في مسرى الطريق، يذر وجله وهوانه في خط سيره.. كان لا بد من أن يتحرك قبل أن تفترسه الوحوش، قبل أن يعريه الزمن من مخزونه، لابد من شاخص يعينه على الصمود. الوقت بات شرسا، يسحق كل مَنْ يتأبط الكسل، كل مَنْ يتباطأ أو يخذل عزمه. مضى دون أن يلتفت للخلف، دون أن يعير أهمية للظن السيء، ولا لعلكة الوجل الملتصقة بكعب حذائه.

الظن بالناس يُقرن بسلوك النظام، وبقوة السلطة الحاكمة، وبالعدالة النافذة، ذلك ما أفتقده البلد منذ أن شرعت حقب الدكتاتورية فرض نفسها على الشعب، فالنتائج على أرض الواقع لا تبشر بالخير، العناوين المطروحة على ساحة السياسية مأساوية، البعض يتفوه بأحكام نيابة عن أسياده، الحياة قيدت بسلاسل الظرف الشائك بعد أن تقلصت الفرص أمام الشباب في مجاراة الحياة المتقلبة؛ ومع ذلك لابد أن تستمر، فلا مناص من التجرد وتجريد الذات من

المسؤولية...... لابد أن تستمر وفق نظام الشخص بعد أن أفل نور نظام الحكم. لابد أن تتجدد في عين الفرد بصيغ جديدة توائم جدلية الحالة بعد أن أسدل الستار على شرعية حكم النظام. ها هي نوافذ المجتمع أضحت مفلجه، تكسر زجاجها بفعل القسوة المباحة، وعسى أن يخرج من هذا القمقم سالما معافى.

الحياة غدت تطفوا في عيون الناس بأشكل مختلفة، كبالونات سوداء وحمراء وصفراء وقلة من الناس من يراها خضراء، كل يرسم أفاقها وفق تصوراته ومبتغاه، لذا كان لابد من شحذها بطاقة جديدة، حافزة، لتستعيد نضارتها.... هذه الصبغة الغير مرغوب بها لربما ستبقى جاثمة في عيون المساكين لأجل طويل الأمد، ستأخذ مداها قبل أن يبهت طلائها بفعل الزمن، قبل أن تعود الأوضاع لسابق عهدها، ناعمة، كريمة، معطرة بالطيب وبياض النية وعشق الوطن.

لن تكون للحياة مذاق تستشعر به الناس، ولا رائحة تنتشي بها الأنوف قبل أن تعود (شكحة، وريم، وسعدة) للطرق يفترشنَّ بضاعتهنَّ من القيمر والروبة (الخاثر) والزبدة دون اعتداء خارجي عليهنَّ، دون خوف ووجل من اللصوص والمارقين، دون اختطاف وسرقة واعتداء جسدي وجنسي عليهن من قبل الوجوه الغريبة...

لن تكون للحياة نبض قبل أن تعود المرأة لسابق عهدها تجوب الطرقات والوظائف بوجه مكشوف دون المساس بمشاعرها وأمنها وجسدها. قبل أن يئم الحاج رشيد، وحسين هادي، ومصطفى بزاز، وصبري من ترك دكاكينهم مفتوحة على مصاريعها دون رقيب، لحظة توجههم للمسجد لإداء فريضة الصلاة.

ما أفسده الدهر لن يعود كما كان إلا بتكاتف المجتمع، فسواد العبث طال جميع مرافق الدولة ونال قسطا كبيرا من الحياة، بما في ذلك المرافق الصحية من المستشفيات والصيدليات والمستوصفات ودوائر النفوس والتجانيد والوزارات ووووو...الخ، بذلك شُلت أقدام الدولة على الحركة عن بكرة أبيها.

المجموعات التي دخلت العراق برفقة القوات المحتلة أو بالتزامن مع دخولها، حشت كل شيء من أجل بقائها، دخلت كلصوص وجواسيس وميليشيا مدججة بأنواع الأسلحة الفتاكة. جاءت برغبة أو مدفوعة من قبل قوى خارجية أو مسندة من قبل المحتل وغيره، كلفت بالتخريب والانتقام وجز رأس كل من كان له علاقة بالنظام السابق أو له باع في مجالات العلم والسياسة والثقافة.

عبثت تلك الشرذمة بشرايين الوطن إلى جانب عبث المحتل بأوردتها، هم الذين زرعوا بذرة الفوضى في وسط الشعب، ثم ركبوا على متنها. جاءوا بأيديولوجيات مختلفة لتقسيم الشعب، إضافة لما فيه من عقد من قوميات وطوائف وأديان ومصالح، كل لها ثقلها وثقافتها ومبادئها وكياناتها، كل يود أن يتسلق المناصب المباحة على حساب الآخر.

هذا الخليط الغير متجانس، يصعب التوفيق بينها على هدف يتراءى للجميع كنجمة في عمق السماء، لما للبعض من تخوف مسبق من الكيانات الأخرى نتيجة ظلم لآحها مسبقا، مع احتمال أن يتجدد ذلك الظلم من قبل الأطراف المتنافسة وبأسلوب جديد. مثلما همش ذلك الكيان في السابق، قد يهمش مرة أخرى بخبث تطرف السلطة..... لذا البعض من هذه الاطراف والطوائف هيأت لها ميليشيا لتستند عليها أحزابها وكياناتها، زُجت في الوسط مع دخول المحتل..

ضمن تلك المعمعة فكر السيد قاسم المتشتت ذهنه، مثلما طال القلق فكر زوجته رقية بما ستؤول إليه الأقدار بشأن الوطن والمصير بشأن الدكان والبضاعة من البالات التي لا يملكون غيرها كمصدر رزق لهم كما أشرنا مسبقا.

هذا القلق دفعه لأخذ خطوة المجازفة والإصرار بالذهاب إلى الدكان من أجل الاطمئنان على سلامته تحت دراية وقلق زوجته عليه.

6

خرج قاسم من بيته المتواضع في منطقة البتاوين، ذلك الوكر الذي يشبه كوخًا مهترئًا، مع أولى خيوط الفجر ليوم 12 نيسان 2003، متأبطًا ظنه وعزيمته، في وقفة يكسوها قلق ظاهر على ملامحه وأطرافه المرتجفة. كان القلق ينهش تفكيره، يثقل خطاه، ويعكر رجاءه، فسلك الطرق الملتوية والأزقة الضيقة التي تشتهر بها بغداد القديمة، متجنبًا الشوارع العامة المفتوحة، تلك التي تجوبها عصابات ومفارز بلباس مدني وعسكري، لا تميز بين بريء ومذنب، فالكل في نظرها هدف محتمل ضمن فوضى لا تعترف بعقيدة أو منطق.

رغم أن المسافة بين بيته ودكانه لا تتجاوز أربعة كيلومترات، إلا أن الطريق كان محفوفًا بالمخاطر، مرهقًا للبدن والروح. وبعد معاناة الطريق، وصل قاسم إلى منطقة الميدان حيث يقع دكانه. ما إن وطئت قدماه المكان حتى استوقفه مشهد القمامة المنثورة في الطرقات، مخلفات متاريس جيش النظام، وقوارير المياه والمشروبات الغازية المرمية على جانبي الأرصفة. كانت بغداد التي تغنى بها الشعراء، والتي أحبها كل من رآها، قد تحولت إلى أطلال حزينة، تكسوها الخراب وتغلفها الحسرة.

وبينما كان يسير نحو دكانه، محاطًا بتلك المناظر الكئيبة، لفت انتباهه كيس مطروح قرب المحل، بدا غريبًا في هيئته، نظيفًا على غير عادة أكياس المتاريس، غير ملطخ بالتراب، ومختلفًا في خيوطه وحجمه، وعليه ختم لا يشبه ما اعتاده. اقترب منه بحذر، يشك في أن يكون لغمًا أو شركًا، لكن الكيس كان محكم الإغلاق بقيد فولاذي، ويبدو أنه يحتوي شيئًا غير التراب أو المعدن.

تغلب على توجسه، وفك القيد، وما إن فتح الكيس حتى ارتسمت على وجهه ابتسامة مذهولة، وانفرج فاهه من شدة المفاجأة.. لقد كان الكيس معبأً بحزم من الدولارات! نعم، دولارات مرصوصة بعناية، مضببة بربل، ومربوطة كشدّات معدة للنقل، محكمة التنظيم والترتيب

تلفت يمينا ويسارا، لا أحد من البشر في الشارع الخالي، أنه خال تماما حتى من الطيور والقطط في ذلك الصباح المربك. كأنما الحرب قضت على الحياة وعلى كل شيء حي وجميل في بغداد....

ودون أن ينتظر طويلا الهمه إحساسه بفتح كبنك دكانه (باب الدكان) ومن ثم سحب الكيس وادرجه في محله.. ثم أعاد غلق كبنك دكانه بأقفاله الفولاذية المتينة، ثم عاد أدراجه ينحدر للبيت بعجالة، مبتعدا عن المكان المشبوه دون أن يراه أحدا أو يلتقي بأحد في طريقه.

إذا اطمأن على دكانه سليما معافى مثلما أطمأن على مستقبله الذي كان قلقا عليه، وجد الرحمة تطرق بابه دون إذن بعد أن لمست الرحمة جمرة قلقه التي فاقت حرارة حرصه على حلاله، فزخت عليه من سلتها لين وعاطفة غسلت به قدره، ليكون مختلفا عن اقداره السابقة. أنها العناية الالهية..

كانت الناس لازالت مصدومة، مصدوعة مما حصل، مرتعدة في مكمنها، لا تجرأ أن تخرج إلا لأمر طارئ وضرورة وملح، حيث تتساوى في الشوارع حصص الموت والحياة، ثم أنَّ معظم أهل بغداد كانوا قد هجروها قبل نشوب الحرب بأسابيع؛ خوفا من القصف الصاروخي وقاذفات الطائرات أن تصيب بيوتاتهم، فلم يبق فيها سوى هؤلاء الذين تقطعت بهم السبل من العجزة والمساكين.

عاد للدار مسرعا والارباك يشحذ قدميه، عاد وهو غير مصدق لما آل إليه قدره، ونفسه المشتتة تخفق بين العفة والجريمة، هجس بذاته كأنه ألتبس في فخ الظرف، ود أن ينسلت من قيده قبل أن تعثر عليه الفئة الباغية صاحبة الشأن، شعر بأن يديه تلطخت بفعل آثم، مخل، كأنه قد أشترك في ذبح الوطن دون أن يرمي حجرا...

صار يمشي ويتلفت خلفه، تكاد خطوات قدميه تأكل الطريق لسرعتها، أصبح يرتطم الساق بالساق، مبتعدا عن موقع الحدث قدر الإمكان، كي لا يشتبه به أحدا من الذين يجوبون الطرق خلف النية والغاية، أو إذا ما فطنت على ما افتقدت من كنز. قد تعود أدراجها ثانية تلك العصابة، تبحث عن ما فقدته من النصيب المستولى عليه، قد تشك به إذا ما لمحته مدججا بارتباكه.

شت ظنه وشغل فكره وسواسه، صار يشتبه في خياله وكأنَّ هناك فعلا شبحٍ ما يتبعه، لذا أضحى يسرع في خطوته ليمسك بطرف رصيف النجاة...

صار يسأل نفسه ويرد عليها:......

- يا ترى: هل رآني شخص ما وأنا أجر الكنز لداخل المحل؟ هل هو رزق حلال من الله؟ أم هو أثم وحرام؟...

صار يحاسب ظنه ويدقق في نتاج فكره، كأنَّ هناك من يقلقه دون أن يعلم بأنَّ الأنا وهاجسه المرتعب يتبعانه، يكمدانه، كسلطان حق وعدالة يحاسبانه. ربما ارتباكه يفضحه إذا ما صادف فئة اللصوص، حيث هاجس الضمير صار يغلي في أحشائه، نتيجة صفعة القلق التي أصابته بنزف ممزوج بالغبطة والفرح وتأنيب الضمير...

صار يشحذ ذاته، يزيد من سرعته وطول خطواته، المسافة تكاد لا تنتهي تحت قدميه، كأنها طالت عن حدها المعتاد. صار يكلم نفسه ويوسوس لها كشيطان يرهق ذاته طوال الطريق خلال عودته للبيت...

- رباه أعنِّي على الصبر، هدئ من روعي، هذا هو نصيبي مما اقترفت الأيادي الآثمة المجرمة، أكيد أنهم سرقوا البنوك وقد تبعهم الحظ والنصيب، ثم باغتهم على حين غفلة، ليفرض نصيبي عليهم، البخت قال كلمته فيما اقترفت أياديهم الآثمة.
يجب أن أختفي عن الانظار ومن منطقة الخطر بأقصى سرعة قبل أن يعودوا أدراجهم ويعثروا عليَّ متلبسا بارتباكي، يجب أن أنزوي بين الازقة قبل أن يجدوني أتخور في الطرق الخالية. أكيد ستنتصب شكوكهم على شخصي إذا ما التقت أعينهم بعيني؛ حينها لن أستطيع أن أقاوم شزر غلهم وانتقامهم، سأنفض صرة الاسرار في جعبهم، حينها لن يرحموا حالي إطلاقا، فالجرم يسري في عروقهم الفاسدة.

يسكت لحظة ويعود بخرشفة هواجسه، ثم يهدأ لحظات، ثم يدمدم مع نفسه مرددا:...

- ترى هل هذا هو رزق أم ضرر أم نكاية؟ أكيد أنه رزق سقط سهوا في لحظة غفلة من عجلة لصوص مارقة من أمام الدكان، هؤلاء الذين أفرغوا البنوك من أحشائها ومحتوياتها. وقد شاء الحظ أن يترصد خبث المجرمين، أن يجلس من غفوته ويتلصص على هؤلاء السُرّاق كي يستلب النصيب من بين أيديهم عنوة ويرميه قبالة دكاني. أكيد بعد ذلك وسوس لي الشيطان، حيث شحذ عزمي ودلني على

فعلتـه.... لا لا .... أبـدا لـم تكـن وسوسـة شـيطان، أنهـا وسوسـة الـرحمن. بعـد أن غـر الشـيطان ذواتهـم الطامعـة؛ أيقـظ الـرحمن الحـظ فـي ذاتـي الرضـية، ثـم سـخر لـي فكـرة التحـري عـن مـا اصاب قلبي وعقلي من قلق...

ربمـا صـحى الحـظ مـن سباته بعد أن مـلَ سـكرة الغفـوة وطـول سباته، حينهـا لاعـبهم بخبـث أفعـالهم، شاكسـهم بقـبح نيـاتهم قبـل أن يفـروا مـن دائـرة الجريمـة، تحفـى خلفهـم بقنـاع مظلـل، ثـم خطــف النصــيب مــن بــين أيــاديهم دون أن يشــعروا بــه أو ينتبهوا على فعلته.

ربمـا أفتعلهـا أحـدهم ليعـود بعـد حـين ويفـوز بـه لوحـده، بعـد أن يشـارك جماعتـه النصـيب الأكبـر، لـذا ود الله أن أفلـح بـه قبـل أن يفطـن علـى ذاتـه ويعـود للمكـان، كـأني قطعـت عليـه خيـوط ظنه..

ربمـا دحرجـه القـدر أمـام دكـاني ليكـون مـن حظـي ونصـيبي بشـكل حـاف دون تخطـيط مسـبق، دائمـا القـدر يتلـون بلـون الظـرف، لكنـه فـي هـذا المـرة تنكـر للقاعـدة السـائدة، فـانبرى ضـاحكا مرتـديا بيـاض الظـن فـي الوقـت الـذي بـه أرتـدى الوطن جلبابا أسودا.

كـل شـيء جـائز مـن تلـك الاحتمـالات، المهـم أسـتيقظ الحـظ أخيـرا مـن غفوتـه، المهـم دلـف قـدري بمحـض صـدفة بـين مخرجات الرزق، فألتصق بالنصيب ولبد فيه.

أوشـكت زوجتـه تقلـق عليـه، خوفـا مـن أن تعترضـه عجلـة همـر للعـدو أو شـلة مـن المخـربين مـن هـؤلاء المرتزقـة المـأجورين فـي طريقـه، أو قـد تختـاره إطلاقـة تائهـة مـن بـين المـارة.. فـذوات الحـظ السـيء دائمـا مـا تعتـريهم الأقـدار وهـم قـابعون فـي منـازلهم، فمـا بالـك بالـذي يمشـي فـي الشـوارع فـي يـومٍ دامٍ مكلـل بـالخطر؟ المسـاكين مكبلـين بالأقـدار، تخضهم الكوابيس وتخرج لهم من بين أظفارهم......

تقول أحدى الصحف في نشرها لحادثة مريعة أودت بصاحبها والتي تحدثت عنها وكالات الأنباء بإسهاب، عن قصة صياد سمك في جنوب بغداد، والذي ما أن خرجَ من نهر دجلة وهو معنيٌّ بصيد ثمين، حتى أستقبله الجندي الأمريكي برصاصة في جبهته، ليحمل عن كاهله وزر حمله الثقيل من الأسماك، متجها بها لوحدته، وكأنه قتل كلبا أو دجاجة.

قلق اعترى فكرها، لم يدعها في مأمن من الحدث، لم يدع الظن من أن يتخلى عن شطط الشر، المثل الشعبي يقول " الفقير فوق البعير وعضه الكلب" فما بالك بالذي يمشي على قدميه في شوارع الموت؟

فيما قاسم كان في طريقه قد أقترب من مؤسسة حكومية، تفاجأ بدبيب النمل يخرج من المؤسسة حاملا أثاثها إلى جهة مجهولة، عربات وعجلات البيك أب تنقل الأثاث، لقد جردوا المؤسسة من محتوياتها تماما رغم الوقت المبكر من ذلك اليوم، اشترك في الجريمة جمعٍ غفيرٍ من النساء والصبيان والشباب والشيوخ، كأنه بهرجة عرس وحصادٌ حل قبل موسمه.

- لالالا.. هذا غير جائز، الأمور تمضي إلى نفق مظلم. الله المستعان، لم يبق شيء نافع، أين اختفت الشرطة؟ أين ذهب الأمن العام المرعب؟ أين القوات المحتلة مما يجري؟ لِمَ كل هذا التخريب للبنى التحتية؟ حيث بعد السلب والنهب يأتي دور الحرق والتدمير.. يا ترى؛ هل هذه هيَّ الحرية التي وعدنا بها المجرم بوش الصغير(رئيس أمريكا)؟؟.

بالمناسبة؛ كانت قوات الاحتلال ترعى هذا التخريب، تشجع عليه، كانت ترى التخريب بأم عينيها دون أن تمنع ذلك، بل أنها شجعت المغرر بهم على فعل الجريمة!....هناك من جند لغرض السرقة

وحـرق المؤسسـات، وآخـرون جنـدوا لغـرض جـز الـرؤوس، وهنـاك مـن أنيطـت لهـم مهمـة ملاحقـة عناصـر النظـام السـابق وقـتلهم...... إذا العمليـة برمتهـا لـيس تغييـر حكـم بـل انتقـام، تجريـد هـذا البلـد مـن كـل مقوماتـه العلميـة والإنسـانية والأخلاقيـة والدينيـة، ليبقـى قابعـا فـي ذيـل الترتيب، خلف الرجاء إلى الأبد.

تلـك الصـور الغثيثـة أقنعـت السـيد قاسـم بحـلال الـرزق الـذي عثـر عليـه، بعـد أن شـاهد عمليـة السـلب والنهـب قائمـة علـى قـدم وسـاق، وطالمـا يسـتحرم ذلـك؛ فقـد سـاقه القـدر لحـد الـرزق دون عنـاء، أنهـا مشيئة الله.

تجهـم وجهـه بمـا رأى علـى الـرغم مـا حظـي بـه مـن وافـر النصـيب، حيـث المنظـر لا يسـر العـدو فكيـف بـأبن البلـد العفيـف؟... كـتم خبـر النقـود فـي داخـل نفسـه، عـاد للبيـت وأخبـر زوجتـه بمـا شـاهد مـن عصـف التغييـر الجـاري فـي طريقـه، كمـا اخبرهـا عـن سـلامة محلـه، شاكرا الله بأنه خارج حدود الخطر..

لكـن للزوجـة فراسـة فـي حـال زوجهـا، لاحظـت ارتباكـه خـلال حديثـه وغمـوض مـا لفـه وأكتنـف كلامـه، وذلـك حـين خالـه الارتبـاك لحظـة دخولـه البيـت، كمـا لاحظـت صـفرة اللـون تطفـح علـى وجنتيـه! فسـألته باستهجان:.....

- مـا بـك يـا أبـو محمد، لِـمَ لـون وجهـك شـاحب ومصـفر؟ كأنـك أصبت بمكروه؟ ماذا هناك؟....

لا يسـعفه لسـانه قـول الحقيقـة، لازال الارتبـاك يقيـد لسـانه، معضـلة الحالـة تجبـره علـى كتمـان السـر، لازال لـم يجـد مخرجـا مـن سـور القلـق الـذي غـص فيـه، هـاجس الشـك أعقـب فكـره خوفـا مـن أن تشـل زوجته إذا ما عرفت بيقين خبر الكنز...

- لالا تقلقي، لا شيء مهم! ربما رجعت مسرعا خوفا من خطورة الطريق، الخوف شبح قابع في كل ركن من أركان بغداد، لا أمان في الشوارع. بغداد مهجورة تماما، إلا من أبواب المؤسسات الحكومية المعرضة للتخريب.. عدت أدراجي مسرعا، قد يكون للتعب أثر على أوصالي، أضافة لبشاعة منظر السلب والنهب والسرقة التي تجري على قدم وساق من قبل جمهرة من الناس (اصحاب الحواسم) لمؤسسات الحكومية. ذلك ما ألم بي وأثر بحالي، التخريب كبير جدا، جارٍ على مرافق الدولة، ربما سيطول بيوتات الناس الآمنة إذا ما بقي الحال على هذه الشاكلة.
- الله يكفينا شر العدو ويلهمنا العافية، لا تقل ذلك، أقهرتني، عصرت قلبي.
- المتاريس وأكداس القمامة في كل مكان من بغداد. كأن الناس أصيبت بعدوى التخريب..

تصوري؛ صارت السرقات تطال مراكز الشرطة لسرقة السلاح منها دون أن تدرك مصائب غدها، دون أن تعرف اتجاهها. الوجوه تبكي، والموت يزحف على أجساد الأبرياء، والناس تتكلم عن وجوه غريبة تطوف شوارع البلد وكأنهم ليسوا بعراقيين!!.

- لم كل هذا الدمار يحصل، ما ذنب الشعب؟ ما ذنب البلد؟ ما دور المحتل في ذلك؟. هل هذا نتيجة عجرفة رئيس أغبر أم أطماع عدو صلف بخيرات البلد؟
- والله لا أعرف أين تكمن الحقيقة، ولكن حسب ظني عجرفة هذا قد أوقدت شمعة الطمع في عين ذاك، وقد ابتلينا نحن بين هذا وذاك دون أن تكون لنا ناقة فيها أو جمل.

الفصل الثاني

\

1

لم يكن جاسم يومًا الأخ المثالي لقاسم، ولا مصدر فخر لأخته هدى، زوجة السيد صفاء، الضابط في سلك المدفعية. يصغر قاسم بعشر سنوات، أعزب، متمرد بطبعه، غريب الأطوار، اكتسب خشونة السلوك من بيئة قاسية وتركات زمن مرير من فقر وقهر. عاندته الحياة، فتخلف عن أقرانه في الدراسة والثقافة والمظهر واللباقة وحتى في القدرة المالية والتعامل الاجتماعي.

لم يُتمّ دراسته الابتدائية، إذ أثقلته ظروف الفقر التي اشتدت وطأتها بعد الحصار الجائر الذي ضرب البلاد. لم يحظَ برزق يعينه على الصبر، فقد توفي والده العامل الأجير وهو لا يزال صغيرًا، فيما لم يكن حال قاسم أفضل، إذ قوضه الفقر ليعمل في مكتبة لبيع الكتب في السعدون، قبل أن يتزوج من رقية ويشتغل في بيع بالات الملابس.

هذه الصورة القاتمة صاغت طباع جاسم، فحطمت تطلعاته وهو بعد في مقتبل العمر، فانجرف مع أهوائه في دروب العبث والرذيلة، باحثًا عن رزق في أعمال الشارع، أجيرًا في المطاعم والمخابز، أو في مهن شاقة كالبناء والحِمالة. صار مشاكسًا شريدًا، يجوب الطرقات كضبع جائع، يقتنص فرص العيش ليستغلها لنفسه.

وما إن أنهى خدمته العسكرية الإلزامية، حتى أصبح ربيب الشوارع، تائهًا بين المباغي، بلا عمل يشغله أو هدف يوجهه. كثرت مشاكله، نتيجة عجرفته وفقره، في زمنٍ تتطلب فيه ثورة الشباب مالًا لبناء الذات واستكمال مشوار الحياة. توالت عليه المحن من حصار واحتلال وفاقة، فغرق في عقدٍ نفسية جعلته منبوذًا من الأهل وأرباب العمل. لم يعرف الاستقرار، واتخذ من طيشه سراطًا لمواجهة تقلبات الحياة.

تحمّل الحصار على مضض، بمرارة ونكد وهوان، أضاع خلالها زهرة شبابه. لم يرتقِ بأحلامه إلى مستوى القناعة التي بلغها أقرانه، بل تبع غرائزه النفسية والجسدية، ومتطلبات الحياة المتزايدة، فبقي مشتت الذهن، منزوٍ في ذاته، متعبًا، يسلك مسالك غير قنوعة، يلهث خلف رغباته، غارقًا في فضلات الإغراءات والتهيؤات التي تلوك عقله بدخانها دون أن يظفر بها.

في الحقيقة، الإنسان يتكئ على ثلاثة أعمدة تشكّل شخصيته أمام الملأ: المال، الفكر، والصحة البدنية. وجاسم لا يملك منها إلا من صحة ناقصة، وفكر مهلهل نتيجة انقطاعه عن الدراسة، فتجده مشتت الذهن، يفتقر إلى الثقافة والدين والسلوك القويم، وقد تربى يتيمًا بعد وفاة والده، وزُجّ به للعمل في الأسواق وهو بعد طفل.

لم يكن يتغذى كما ينبغي، لضعف قدرته الشرائية، حاله حال معظم العراقيين الذين تحملوا عبثية الحروب على مضض، تلك التي أنهكته قبل أن تكسره سنوات الحصار التي عصفت بالأخضر واليابس، وزادت فقره المتأصل.

لقد شملت الفاقة الجميع، خاصة الطبقات المتدنية والوسطى، ممن لا سند لهم يتكئون عليه، لا أساس مادي يعينهم، ولا فكر يوجههم، ولا ميراث يقيهم شر الظروف المتقلبة. كان جاسم شحيح الحال، رزقه شحيح، وحلمه أضيق من أن يتسع لأمل.

قه مقسوم على أجره اليومي الذي يخاصم تطلعاته ومتطلباته في مواقع كثيرة. بسبب سلوكه الأرعن الماجن الذي يحيله إلى حالة من اليباس والتصرم في التعامل مع الناس؛ كان قد ازكم سلوكه كشاب بسبب نزواته العاطفية التي جعلته يطرق دروب التسكع بحثا عن الموبقات ولغز النساء. تلك المَلاَوِذُ تبعته وتبعت تطلعاته أو هو

الـذي كـان يرنـوا إليهـا باسـتمرار مـع شـلة الفسـادين مـن اصـحابه التـي لا تفكر إلا في نسيان ذاتها في بحر الملذات.

تلـك الأوضـاع دلقتـه فـي هـوة شـر المبـاغي ليكـون أحـد مراودتيهـا، جعلتـه يمضـي خلـف مغريـات الحيـاة والغريـزة الجنسـية بحثـا عـن المومسـات والباغيـات مـن اللاتـي سـلوكهن علـى شـاكلته، واللاتـي لـم يجدن فرص حياة ترتقي بهن لدرجة التعفف.

تعلقـت رغباتـه بخـيط واهٍ مـن أمـل غـائر فـي جـوف أحـلام السـادرة، ظـل يتبـع ذلـك الخـيط حتـى تماهـا سـره فـي العـدم، جـراء اسـتمرار الحصـار المجحـف وقلـة الـرزق. خـلال عمـره الثلاثـين لـم يجـد عمـلا مناسـبا لـه، أو بـالأحرى لـم يثبـت علـى عمـل يعينـه علـى إدارة حياتـه، كـان يتنقـل مـن عمـل لآخـر لعـدم وفـاق المـردود مـع متطلباتـه الشخصـية أو لعـدم توافـق سـلوكه العـام مـع متطلبـات العمـل. لـم يثبـت علـى عمـل يقئـه شـبح الفاقـة، يعـين ذاتـه المأسـورة بـالغرائز والمكسـوة بجملة رغبات وتطلعات ليكون اسوة بالآخرين.

دائمـا مـا يجـد نفسـه متخلفـا عـن ركـب أحلامـه، بعيـدا عـن واقـع زملائـه، يـدور فـي حلقـة مفرغـة مـن الثقـة بـالنفس واليقـين، فـي مخمصـة العقـد والمشـاكل التـي يفتعلهـا دون قصـد أو بقصـد، أو التـي هـي تـدور حولـه مـن واقـع الصـدف أو قسـوة الظـرف. نتيجـة عواصـف الشـك التـي تجتـاح ذاتـه المتعبـة، والتـي تـدعم سـلوكه المشـين أمـام عنـاء إمكاناتـه الماديـة والقدريـة، أضـحى طريـد شـجونه، عنيـدا، جحفـا، أمـا لضـعف مـا شـل تفكيـره الهـش، أو لشـعوذة مـا يسـلكها دون وعـي، أو فـيض مـا حرك غرائزه ولدائنه الخبيثة متبعا غاية ما في نفس يعقوب.

لـم يواكـب تعليمـه، صـبغة الفقـر طلـت بدنـه وروحـه، أضـحى أسـير ظرفهـا؛ لـذا لـم ينفـك يومـا عـن نزاعـه الـدائم مـع نفسـه القاصـرة أمـام غرائـزه المتبجحـة ورغباتـه الجنسـية. تلـك الأوضـاع غيـرت مسـاره،

حيدته عن مسالك العفة والدين والشرف، دائما ما كان يحاول أن يتحايل على الفرص المتاحة أمامه لبلوغ مآربه الغريزية والروحية والنفسية دون أن يدرك منها سوى القشور المعقوفة.. ما أن يجمع مبلغا من المال؛ حتى يكلل سعيه برضا النفس بعد أن ينثر ما في جيبه على مجالسة الغوانٍ وكؤوس الخمر في شعب الملاهي الليلة، أو في دور المباغي، يبيح لذاته الفرصة لتذوب كالشمع في صحن عذاباته، يسطل بها وطأة الغريزة ولعنة الخمر مع شلة السوء من رفاقه. عكس ما كان يفعله أخوه الأكبر قاسم والذي يكاد لا يتقاطع مع سلوك جاسم بنقطة، ذلك الذي لا تفارقه فريضة ولا صلاة ابداً.

يكاد جاسم يكون أشبه بالوطواط الذي يستهل الليل في البحث عن مبتغاه بين الأزقة والشوارع المسمومة، متبعا ظنه خلف الطيور الضالة، أو يأمل أن يحظى بنديم تحت جنح الظلمة والتسكع في زوايا الشوارع ودور المباغي التي صار يرتادها منذ أن جلدته الغريزة دون أن يكف جماحها، ليقضي أشواط سعيه مترنحا في هجيع الليل ودماسة الفكر، بعيد عن هاجس البيت والعيون المراقبة، دون أن يراعي توسلات أمه.

راقت له تصرفاته وأسلوب عيشه المنكد، لم يجد أنيسٍ ولا سليل رفقةٍ يعدل ميله بعد أن تزوجت أخته هدى وتزوج أخوه قاسم، حينها صار لكل منهما شأن وكيان ينشغل به. عندها وجد ذاته حرة طليقة ترتع في حرية دون مراقبة، ثم أن الوحدة اللعينة دكت فكره وصبره في ظل مراهقة التصقت به، صورت له جسد المرأة مفتاح لأبواب الجنة، الحاجة والغريزة جردتاه من واقعه المتذبذب نحو شجونها، تركته يعت عتّ الهميم في حلمه وهو يتأمل ومضة نافذة تحرق زغب رغباته، تجيله للوفاق بالعثور على ذلك المفتاح بين أرصفة الشك وبيوت الدعارة.

كان يهجس بذاته الحائرة، تتدحرج ككرة من همّ إلى همّ، بين أشواك الرغبة ودبابيس الغريزة. لم يتغنَّ بعزفها ولا انغمس في سحرها، ولم تعنه على جلد فؤاده لينفض غبار الغيظ ونبض القلب في حضن فاتنة. كل محاولاته كانت تُمنى بالفشل، إما لفقره المدقع أو لسلوكٍ جلفٍ يسنه دون وعي.

لا ليلى استجابت لبوحه، ولا سلمى سلمت من جنونه، ولا هيا الوثنية وجدت في هيئته ما يجذبها. ليلى، ابنة الزقاق الذي يسكنه، كانت تدرك جذوره جيدًا، فلم تلتفت إليه حين أسرّ لها برغبته، وتجاهلت طلبه حتى تزوجت وابتعدت عن إلحاحه. أما سلمى، التي تعرف عليها في أسواق الشورجة، فكانت تقتات من تجارة بسيطة، تشتري من الجملة وتبيع بالمفرد في منطقة الشعب مقابل ربح زهيد، لكنها تخلّت عنه حين اكتشفت فقره وعمله كحمال. وهي لم ترَ في قيافته ما يثير اهتمامها.

سعى مرارًا لتعديل شؤونه، فعمل بالأجر اليومي في متاجر الشورجة، ثم انتقل إلى البناء يحمل الآجر، وعمل في المطاعم كنادل وغاسل صحون. لكن في كل مرة كان يُطرد، إما لخشونة طباعه، أو لسوء سلوكه، أو لجنحةٍ تزلّه دون أن يزن ذاته، أو لطمعٍ يجرّه إلى الهاوية.

تكرار الطرد والاستغناء عنه جعله ينفر من تلك الأعمال التي أذلّته، فلم يحتمل نسق الأوامر ولا سياقات العمل. وأدرك أخيرًا أن العقدة تكمن في سلوكه وهشاشة تفكيره. فوجد نفسه يتآكل في أسواق الشورجة، حتى صار من عناصرها الدائمين، وانزلق إلى العمل الحر كحمال أجير، بأجرة زهيدة واستقلالية راقت له.

ومع تفاقم الفاقة، بات يكره اليوم الذي ولد فيه، لم يهنأ في طفولته كباقي أولاد المحلة التي تربى بها، الفاقة كشفت الغطاء عن الرمق

الذي يسقى منه، لم تعينه على مبتغاه على تجاوز أزماته، دائما ما كانت ترافق نظراته حسرة تشرخ صدره أمام الحاجة، تزيد من تأففه، لقد ولد في بيئة مسحوقة، في زقاق قديم قدم بغداد من أبوين قتيرين، يخر من أبدانهما صمغ الفقر؛ الفتاة التي تأملها في حياته نبذته، تركته يتدحرج خلف ريح انوثتها كقشة تافهة، بعد أن لاح أنفها عفن فقره خمر جسده.

حاله لا يختلف عن حال المساكين والمتسكعين في الشوارع والذين تخلى عنهم الزمن، في وسط معمعة تكالبت عليهم أقدار خارجية وداخلية، تمثلت بقسوة الظرف وفاقة وموروثة وفكر هزيل، يكاد ثقافته لا تنتح ضوع، حيث استقى سلوكه من دروب النصب والاحتيال بحرفية.

تلك الحالة غرست فيه شعور نقص وهزيمة، لا سيما العقد عقبت ظله كخصم عشعشت في داخله. بات يرى نفسه في المرآة مثلما يراه الآخرين سميجٌ لميجٌ. أنها الهاوية التي تمنى أن يتجنبها فالتصقت به وبظنه كسمة القذارة التي لونت سلوكه. الغلاء الفاحش وظلف الحصار المر جعلاه ينفر من الفقر لتلتصق به علكة الفاقة، لتقبع بذاكرته وجسده كوشم لا يستطيع التخلص منها، تذكره بقدره المتدني كلما نظر إلى وجهه بالمرآة.

تلك الحالة لازمته، تركت في نفسه ضعفا وانكسارا، أرهقت كاهله، بات لا يعير أهمية لشأنه، أحيانا يشبه نفسه بعود الثقاب لا ينفع إلا بحرق محيطه، أو بعود القصب الأجوف، خال من كل شيء ذو قيمة يعنيه على الصبر، خال من المادة والثقافة والعلم والعلاقات الاجتماعية والأدب ووو...الخ ومن الكثير الذي لا يجد له في واقعه المريض أساس له، خال من الأحلام والتأملات الوردية التي تتشوق لها رؤياه، تلك العالقة في قمم الاحلام البعيدة كل البعد عن

واقعــه المريــر التـــي لا يمكـــن ارتقائهـــا ولا أن يشـــم عَبقِهـــا بأنفـــه المزكوم.

خترفـة الأحـلام التـي سعى خلفهـا، كـورت رغباتـه وهـو بمقتبـل العمـر، جرفتــه لجــوف زمــن أغبــر. مــع مــرور الوقــت أضــحت كلــون الشــفق؛ كلمــا تأمــل طيفــه أبتلعــه الغــروب بلحظــة غفلــة. مــا أن تمــيس كفــاف فكــره فكــرة؛ حتــى تغــور فــي ســدم الفاقــة، لائــذة فــي جحــر النســيان. ترهق ذاته، تختنق أحداقه بصمت الوان البنفسج الحزين.

هكــذا عــاش وحيــدا، منزويــا فــي قفــار بؤســه، لا زوجــة، لا أطفــال، لا جــاه، لا وظيفــة أو مصــدر رزق ينتشــله مــن وهــدة الفاقــة التــي شــطفت البســـمة عـــن وجهـــه، أفقدتـــه نعـــم الحيـــاة، أضـــحى فـــي تعاملاتـــه غضيض، أجوف، شائك، مؤلم، عنيد..

لقــد عــدَّ نفســـه مـــن اللــذين يســتحقون الرأفــة والشــفقة؛ لكــن لعربدتــه والعدوانيــة المختمــرة فــي دمــه؛ تخلــت عنــه هلــل الــنعم، بقــيَّ يعــاني تصــحرا فــي وحدتــه، وجفافــا بغربتــه داخــل مجتمعــه. أنــه مجــرد مــن الحركــة، مجــرد مــن الــروح، يشــعر بحالــه كحجــر صــوان، جلــد، يــابس، لا نفــع فيــه ســوى أن يفســد ســكون البحيــرة إذا مــا ســقط فيهــا، يجــرح مشــاعر الآخــرين بقصــد أو دون قصــد. أضــحت حياتــه لفــائف عقــد، مــا أن يفـك إحـداها حتـى ينشـغل بـأخرى بـذات اللحظـة. مـا أن شـبَّ؛ حتـى أدركـــت مســـامعه كلمـــات ثقيلـــة مبهمـــة، كـــالحرب والشـــهداء والقتـــل والمــوت والصــواريخ والــدمار...الخ، مـــا أن انطــوت تلــك الصــفحة؛ حتــى أحــيط بلغــم الفاقــة والحصــار والفقــر والعــوز والبطالــة والجــوع والرجـاء، فأثكلـت عليـه حياتـه. مـا أن انتهـت تلـك الحقبـة؛ حتـى وجـد ذاتـــه محاصـــرا فـــي مخمصـــة حـــرب احـــتلال الـــوطن. هجـــس بـــذات تقلصت رغباتها، افتقدت حلقات العمر دون أن يستمتع بها.

تلك الحِقب أكلت لب شبابه وسحقت ذروة أفكاره وتطلعاته، طوت أمنياته. طوال تلك الحقب بقيَّ واقف على جانب الرصيف دون أن تمر به عجلة الراحة، قابع في مكانه لا يستطع عبور نفق الظلام لجهة الأمان، لا يعرف طريق للخلاص من كماشة اليأس التي تعلقت به، أنتظر قطار الحلم ينقله لمحطته القادمة دون أن يئم ذلك القطار محطات فكره ورغباته، بقي ذلك الجلد يهط به بسوط الوجل والفاقة.

في فترة من فترات حياته أضطر إلى بيع المياه والسكاكر وعلب السجائر ومناديل الورقية في مواقف السيارات العابرة ونقاط التقاطع. مضت تلك الأيام متراخية وخيمة، تبعتها أيام أكثر سوءً ولخمةً من ما مضت بعد أن حل كابوس الحصار ولعنة الطائفية، أصبحت الحياة بالنسبة له مجموعة عقد مرمية في طرقه يتعثر بها ولا يفقه حل أحجيتها، كلما مر بواحدة منها تفجرت عليه قروؤها، أضحى ككرة الصولجان تشتط به مضارب الزمن دون أن يستقر.

الروتين الممل شخصنه، كور عزمه، جعله يعيد تكرار نفسه في المحافل والمواقف باستمرار دون تجديد والتماس وجه النور... كثيرة هي الأعمال التي سنحت له، لكنه لواقع نظرته السوداء تجاهلها، فانسلتت تلك الفرص من قبضة يديه كوغف الصابون دون أن يستفاد منها، دون أن يبني كيانه، حيث الثبات في العمل يجلب الرزق ويكور الشخصية.

هكذا بقي يترنح في مكانه، لم يجنَ من كنز الحياة سوى التعب والشقاء إلا ما ندر، لم يمرح بين أوساط الترف أو يشعر بسعادة تزيح عنه همومه إلا ما ندر، بقي يلعق بإناء الحظ وسراب الظن وعزاء الآخرين حتى ضمر.

لقد عاش حياته يلهث خلف التأمل باحثا عن ثقب في نافذة العمر لينسلت منه إلى عالم الرجاء، عسى أن تبتهج فراشات أحلامه تحت إنارة فوانيس عيش مقبولة. خلال سيرته تعثر بالنزر اليسير من الصدف، حلت عليه أشبه بزخ رذاذ الصيف، انسابت على جسده كرحمة، سريعا ما تبخرت مع شدة حر أجوائه، لحظات جادت بها الحياة وسط سبات الحظ وزحمة العقد والأقدار.

تلك الأوضاع تركت في نفسه جلجلة من الصخب والعنف والشدة، قارع بها عذابات الصبر الطويلة، عصرت أهوائه، فلم يتقطر منها سوى تلك المتاعب التي بات يصبها في إناء الأخرين لينفه عن نفسه ويريق شخصيته في عيون غرمائه... لذا ترى تعامله جلِدا مع الآخرين حاد الطباع، أشبه بشوكة الصبير، تألم رغم رقتها وصغر حجمها.

تلك الصفات السيئة صار يستغلها لأغراض دنيئة. بات يستبد العامة من الناس ويسرق ما تطاله يده، بل أنه بات يخربش الوجوه بشيء من العبث من أجل إرضاء غرائزه.. حيث بقي شبح الجوع وحش كاسر يرافق ظنه وأن امتلئ جيبه بهلل ما.

حقيقة الجوع جوع العين والنفس، قبل أن يكون جوع البطن والبدن، مثله جوع العاطفة والجنس، تلك التي باتت تبطش بتفكيره كلما لان فكره نحو فتاة أعجبته هيأتها، تلك الحالات صارت تعنفه، تهزه، شرعت تقيده بصفة الإدمان والتسكع في طرق الرذيلة، أحالته إلى وشق كاسر ينتظر الفريسة خلف حاجز الفرص، أسير هواه في حقول الليل باحثا عن ضالته، خانس تحت وقع سوط الرغبة، متبعا رزئه ووزر شبابه، خوفا من أن يحل به العجز والعنوسة.

الـذات مرتعشـة، خائفـة مـن سـلطان الغـد، لا ترتكـز علـى مسـاند وثيـرة تعيلـه علـى مواجهـة مشـوار الحيـاة. فـي واقعهـا مريضـة، مهـزوزة، تعتمـد فـي وارداتهـا علـى تعاسـة الأخـرين. أنهـا ملبكـة، ملوثـة بخميـرة مؤذيـة. أنهـا الشـر بعينـه بعـد أن رسـمت لـه الحيـاة مأسـاة شخصـه فـي بانورامـا غامضـة. فلـن يفلـح فـي مسـعاه إلا إذا بصـم فـي سـجل الحيـل الملتويـة والعنـف الجـائر أو النصـب علـى الآخـرين. أحيانـا يلجـأ للسـرقة والنصـب والاحتيـال علـى البسـطاء مـن النـاس فـي سـوق الشـورجة، كونهـا وسـط صـالح لـذلك المبتغـى لمـا تفـيض بـه مـن زحمة، حيث في اللحظة الواحدة تتغير الوجوه المارقة أمامه..

النصـب والاحتيـال فـي لغـة الفقيـر تمثـل دهـاء وحـذق ومراوغـة، وقلـب الحقـائق وتلـوين الأمـور، والقـدرة علـى التصـرف والإيقـاع بـالآخرين في الفخ.. أما عند أهل القـانون تمثل استيلاء على مقتنيات الآخـرين وسـرقة أملاكهـم بطـرق غيـر مشـروعة يحاسـب عليهـا القـانون. فـإذا كـان النصّـاب فـي نظـر الشـرع مـذنبا وآثمـا، وفـي نظـر القـانون مجرمـا يجـب محاسـبته ومعاقبتـه؛ فإنـه مـن الناحيـة الاجتماعيـة يعـد انحرافـا سـلوكيا واجتماعيـا، ينبغـي معالجتـه بالنصـح والتلقـين والرأفة، ينبغي تعديل محور السلوك والتصرف.

أظـن القيـاس الاجتمـاعي هـو اكثـر أنصـافا بـه وبغيـره حسـب تكالـب الظـروف الخارجيـة، ومـن المفـروض أن يعاقـب بـدلا عنـه رجـالات الدولـة التـي عصـرت الفـرص وأحرقـت الأحـلام أمـام الطفولـة والشباب، هذا إذا كانت هناك عدالة وإنصاف في المجتمع.

كـان جاسـم يسـتخدم عمليـات النصـب بأشـكال بسـيطة، مسـتغلا موقعـه مـن العمـل فـي سـوق الشـورجة كحمـال أو كـأجير. كـان يتصـيد فـي الميـاه العكـرة، حيـث يترقـب فرائسـه والـذين هـم فـي غالـب الأمـر يكونـوا وافـدين جـدد مـن خـارج بغـداد، جـاءوا يتبضـعوا مـن اسـواقها

كـون سـوق الشـورجة يعتبـر مـزارا لتنـوع الحاجـات ومركـزا للجملـة، فهو أكبر سوق تجاري داخل العراق.

نتيجـة الزحمـة التـي تئمـه والفـروع المتشـعبة والمتداخلـة فيـه، يعتبـر السـوق أشـبه بالمتاهـة، سـوق قـديم قـدم بغـداد، لـذا تجـد الغريـب يتيـه فيهـا ولـن يصـل مبتغـاه بسـهوله، وخاصـة هـؤلاء الـذين يـزورون المكـان أول مـرة. كـل يـود أن يلبـي غرائـزه قبـل فـوات الأوان.... لـذا تجـده يسـتغل القـادمين الجـدد بمحاولـة تقـديم المسـاعدة لهـم، أحيانـا يطلـب مـن الشـخص قيمـة البضـاعة لجلبهـا لـه.. ومـا أن يسـتلم المبلـغ حتـى يغـور فـي دهـاليز السـوق ليتـرك ضـحيته متسـمرا فـي مكانـه ينـاجي ربـه. أو يأتيـه بالبضـاعة بضـعف قيمتهـا، أو يكـون سمسـارا بـين البـائع والمشـتري مقابـل مبلـغ يضـيفه علـى سـعر البضـاعة وهكـذا دواليك يسلك أمره.

وبـذلك كثيـرا مـا كـان يـلام ويحاسـب ولكنـه لـن يرعـوى وكأنـه قربـة مثقوبـة. وفـي آخـر اليـوم يخـرج بمبلـغ يصـرفه علـى نفسـه فـي المبـاغي ودور العهر، وما يبقى منه يدعم به أمه الكهلة.

2

ظل الخوف يتراقص في عيون الناس، يتماهى في أذهانهم مع كل رعدة إطلاقة تخترق أجواء الصمت، لم تهدأ دوي الانفجارات ولا زعيق صخب المدافع لحظة واحدة؛ حتى بعد أن هوى تمثال الرئيس في فناء الزمن. بقي ذاك الوجل ينبع من تربة الأرض من مشاعر الناس المحتدة تلك اللاتي اصيبت بالانكسار والذهول، تهجس بها مخنوقة، مصابة بجائحة فايروس ما، يشيع من عيونها تساؤلات جمة، يا ترى ماذا بعد ذلك؟...

أصيبت الناس بالخمول والسهو والإسهال، أضحت تعيش على وقع الصمت والارتباك، الذات مهزوزة، تائهة، مكتوفة الأيدي، تهجس بها تدور كالرحة حول نفسها، كحجر مصد قابع بين سحر أمس وعنفوان اليوم، لا تتزحزح عن مكانها، هكذا ترى النفوس تبحث عن قدرها بين انقاض الزمن...

ذلك التيه نقل الفرد بين عالمين مختلفين عالم يدور في فلك الصمت الداخلي وآخر ركب موج الفوضى الخارجية.. هكذا القدر مزق وجه الزمن فمحى فسحة خمسة وثلاثين سنة من الوجود والاحداث والشعارات الوطنية ليستبدلها ببانوراما جديدة وبشعارات أخرى تكاد لا تختلف عن سابقاتها سوى باختلاف الوجوه والأشكال والانتماء والنية.

....ما أن حل الاحتلال حتى حلت الغرابة في صفوف المجتمع العراقي، وكأنَّ صرة المشاكل فتقت بطانتها، فانتشرت عقد الصراعات كالوباء بين صفوف الشعب...بغله المعهود؛ أولّد المحتل تلك الصراعات ثم غذاها، جعل أمور الحياة معقدة، جمرة، لا توصف سوى بالغرابة..

قبـل أن تطـأ قدمـه القـذرة أرض الأنبيـاء؛ كـان المجتمـع العراقـي يعـد مـن أنظـف مجتمعـات المنطقـة. مـع دخولـه ظهـرت حـالات الوبـاء مـا كنـا نشـهد أمثالهـا علـى السـاحة قـط – جـاش بهـا الكفـر مـن أوسـع معتقداتـه، تلـك الصـور المرعبـة مـن عمليـات خطـف وقتـل وتنكيـل وسـطو ونصـب واحتيـال وسـرقة وخيانـة وطائفيـة وبيـع ذمـم شـاعت بـين صـفوف الشـعب وكـأنَّ الشـعب لـيس هـو ذات الشـعب، وكـأن تلـك الممارسـات التـي كنّـا لا نعرفهـا ولا نمارسـها لهـا جـذور قـدم الحيـاة فينـا، أو أن النـاس تلبسـها الجـن فسـرقت مـوروث المحتـل والـدول الناقمة لتجربها بين صفوفها وتضيفها إلى قيمنا..

لكثـرة مـا طفـح مـن غـل فـي الوسـط؛ عجـزت النفـوس التـأقلم معهـا، كـأنَّ النظـام السـابق كـان أشـبه بالغطـاء الـواقي لبرميـل الخسـة والنذالـة، مـا أن رُفِـعَ الغطـاء عـن فوهتـه؛ حتـى انتشـرت تلـك القـذارة والتفاهـة والمجانـة فـي المجتمـع، أنكشـف المحـذور، أنتشـى نـتن العُقـد فـي الوسـط، بتنـا نشـم النَّمَسَةُ العفنـة وقـرف النيـة مـن علـى بعـد، بـدت تطفـح العاهـات وتشـيع النـواميس علـى السـطح كطفـح الجـدري علـى البشـرة، تحركـت ديـدان الأحـزاب وعناكـب الميلشـيات ومـا شـابه ذلـك عـن مواضعها لتمزق اوصال المجتمع الواحد إربا إربا دون رحمة.

علمـا لـم يهـدأ العنـف الطـائفي إطلاقـا وأن خفـت حدتـه قلـيلا، بقيـت الغصـة لابـدة فـي قلـوب الكثيـر كقطـة حذقـة تـود الانتقـام، تتبـع جـدول المراهنـات والمماحكـات والمقارنـات والمناكفـات والقـوارع الـدائر بـين صـفوف النـاس فـي المقـاهي والشـارع، إضـافة للإعـلام الأصـفر المسير والمغرض.

بقيـت النفـوس الوجلـة مربكـة، تتبـع قرقعـة العلـب الفارغـة والمتـداول منهاجهـا بـين الأنفـس الضـعيفة مـع احتـدام القـذائف السـاقطة هنـا وهنـاك، تلـك التـي جـزت الـرؤوس والنفـوس، جرشـت خلايـا المـخ والبـدن، خلخلـت أوضـاع الـوطن وأجـواء المـدن بعـد أن شـعت الظلمـة

في داخل الأنفس العفيفة وفي الوسط العام، فشت هوام الشؤم بين العقول والرؤى، شعت البأس واليأس في دوامة العصف الزاحف على المساكين والأبرياء. الاحداث المؤسفة وقرف النتائج وقنوط الوضع؛ دفعت بالفرد إلى التجرد، إلى وهدة الجنون والانتحار والهرب من الواقع.

باتت الناس تشعر بالخوف، تهجس بالوحش يتربص بها هنا وهناك، عاكف على بوابة الفكر وبين جحور الظن، يقينا أضحى الحال كحالة روتينية لا جديد فيها، صار الفزع يتبع الفرد وهو قابع في بيته أو ساهٍ في أحلامه..

بتنا نرى الوجوه الغريبة التي دخلت مع المحتل بمثابة وحوش تود افتراسنا، ترتدي قفاطين الشر والعناء، الأسى يتماها في وجوه الناس وفي أجواء بغداد الغائمة. بتنا نتنفس دخان الخوف ونسمع أصداء الرعب مع ساعات الفجر، مع شواظ النار والأدخنة المرتفعة من الأزقة والشوارع. فالدم مباح والهم لازب في جلود المساكين.

بان ذلك بعد أن تعددت أشكال العدو وكثرت صور جرمه وأمثاله، صار يتكاثر بشكل رهيب فسيولوجيا وكيميائيا وبيولوجيا، ثنائيا وأحاديا ومن تلقاء نفسه وبالانشطار. بات يظهر لنا في الساحات العامة بوجوه متعددة وغريبة كالأعمدة والاشجار المزروعة في بغداد، يتمثل كغاصب ومحتال ولص وطائفي وقومي وعبثي وحاقد، ونماذج أخرى لا وصف لها ولا كلمات تصفها، ملثمين ومقنعين ومتنكرين، بارعين في الغش والتمويه، مرتدين لباس الشياطين، متظاهرين بأقنعة العفة والدين، لبس غريب ملغم بالسواد والبياض، صار الشخص لا يأمن على نفسه حتى من صاحبه وجاره.

مـع دخـول المحتـل تحطمـت أقفـال الحـدود، مـع دخولـه دخلـت الـوطن شــرذمة مــن الكــلاب المســعورة والوحــوش الجائعــة، بحيــث باتــت تبحـث عـن الهبـرة فـي الصـحون، تسـرق وتقتـل وتـبطش وتـنهش كـل مـن دب وهـب فـي طرقهـا، كأنهـا دربـت مسـبقا علـى هـذه الأفعـال قبـل أن تـدخل الـوطن وتتبـع الغايـة، لتـدب الفوضـى والرعـب بـين صـفوف المجتمع..

علـى أثـر ذلـك طافـت جثـث مجهولـة فـي شـوارع الـوطن، صـار المـوت يتسـكع فــي الازقــة والطرقــات. هــؤلاء القتلــة أشــبههم بيــأجوج ومـأجوج، بتنـا نلـتمس أعمـال تلـك الشـرذمة مـن الوجـوه الغريبـة وهـي تجوب المرافق دون أن نعرف لها انتماء قط.

أحـد جنـود المـارينز أعتـرف نادمـا علـى قتلـه شـاب يسـير علـى دراجتـه الهوائيـة دون سـبب، وآخـر أعتـرف علـى قطـف أعمـار عائلـة كاملـه، فقـط لأنهـا صـادفته فـي طريقـه فـي الانبـار. هـذه الأعمـال التـي كـانوا يكـافئون عليهـا مـن قبـل قُـوَّادهم بحسـب اعترافـاتهم، بثـت الرعـب فـي صفوف المجمع العراقي...

هكذا تفشت جائحة الحقد والرعب في آفاق الوطن.

فـرق مـوت مدربـة دخلـت مـع الدبابـة الأمريكيـة، عاثـت فسـادا فـي أرجـاء الـوطن، أشـبّه الوضـع بموسـم الجـراد، بحيـث دخلـت مـن كـل حـدب وصـوب مـن منافـذ الحـدود المفلجـة، فلـم يبـقَ حقـلا ولا زرعـا إلا ذرتــهْ ودرســته حوافرهــا. أخــتلط الحابـل بالنابـل، لـم نعـد نميـز بـين الـدخلاء والأصـلاء مـن أبنـاء البلـد. تسـاوت فـرص التقيـيم والتقـدير بـين هـؤلاء، جمعـوا علــى مائـدة واحـدة، تشـابه نصـيب الشـريف العفيـف بنصـيب الحاقـد المجـرم الجـائع، الجـانح، المـاكر. مـع مـرور الـزمن تغيـر الحـال مـن سـيء لأسـوء، تلونـت النفـوس بلـون الظـرف، اسـدلت المنافـذ علـى أبنـاء الـوطن، اسـودت صـحف الأيـام، شُـلتْ تمامـا قـدرات

أبـن البلـد، نفـدت طاقتــه وكبلــت أياديــه إلا مــن بعــض المقــاومين فــي بعض المدن.

علـى وقـع الفوضـى وحالـة الجمـود توقـف نـبض حيـاة الـوطن، بـات يـأن مـن الجـرح الـذي أصـابه أو مـن الخجـل الـذي لـدغ مشـاعره والهـم الـذي طــاف بصــحنه. كأنــه نــزع ثــوب العفــة حــين انتُزِعَــت منــه إرادتــه، أضــحى كالعــاهرة مفلــج الســاقين أمــام الغربــاء. وطــن هــش يســتمتع بخيراته كل من هب ودب.

شــلل تــام أصــاب قطاعــات الدولــة كافــة، توقفــت المصــانع ومراكــز الترفيــه الفنيــة والتجاريــة والعلميــة والزراعيــة، أغلقــت أبــواب العمــل، لــم تعــد هنــاك حيــاة تبــرق فــي ذهــن المــواطن، لــم تعــد هنــاك صــورة واضــحة تمثــل وطــن قــائم ســوى هيكــل جســد خــائر يتــنفس عبــق تاريخه.

خلــت الشــوارع مــن العبــاد إلا مــا نــدر، خلــت حتــى مــن الطيــور والعصــافير البريئــة التــي ســئمت قرقعــة الجــوع والقتــل، بتنــا لا نســمع لهــا زقزقــة وهــديل عنــد الصــباح ولا نســمع نغمــة الكــروان ولا صــدح البلبـل، تواجـد الطيـور فـي المكـان دليـل سـلام وأمـان.. فـإذا مـا وجـدتْ في بقعة ما؛ فاعلم بأنَّ ذلك موطن أمن صالح للعيش...

مــا عــادت الحــدائق حــدائقا نســتمتع بهــا ولا منتزهــات آمنــة، تحولــت لأدغــال ومســتوطنات الحشــرات والحيوانــات الســائبة وامــاكن رمــي الزبــل أو متــاريس الصــد. أكــداس رمــل وأكيــاس مصــفوفة معبئــة بــالتراب تســتند عليهــا رشاشــات مقاومــة الطــائرات تتــراءى ســبطانتها للمشــاهد بــالعين المجــردة منتشــرة فــوق ســطوح المبــاني الحكوميــة ومنصــات الحــدائق والشــوارع العامــة هنــا وهنــاك، نــاهيك عــن الــدخان المتصــاعد مــن البنايــات المتفحمــة والحرائــق المشــتعلة فــي كــل زاويــة من زوايا بغداد.

صار الموت شبح يدخل البيوتات من الأبواب والشبابيك، ينزل من السطوح دون استئذان، بل وأكثر من ذلك تماهى في الهواء الذي نتنفس، راج مع أرائجُ البارود المشبع بالفسفور وعصف النترونيين المشع، صار الموت يعوم في الشوارع والأزقة كما يشاء العدو، بل أنه وجد مرتعا ومتنفسا له في الحافلات الناقلة للركاب والمناطق المزدحمة المكتظة بالسكان من خلال التفجيرات. أدميت المناطق الشعبية، تلك التي يقطنها الغالبية الفقيرة من أبناء الشعب البريء، كالشعلة ومدينة الثورة وبغداد الجديدة،\ والكرادة والأعظمية وحي العدل والدورة والعامرية وحي الجهاد، ناهيك عن المحافظات السنية التي شُلّتْ هي الأخرى بتفجيرات العجلات المفخخة والعبوات الناسفة والأحزمة الناسفة بعد أن تركزت فيها المقاومة ضد المحتل.

لم يتحلى المحتل بالأخلاق ولا برفيف رأفة، وحوش حلت ببطون خاوية وعيون جائعة، سرقوا كل ما وقع تحت أيديهم من جواهر وأموال وتحف، جردوا البنوك والمتاحف من مكنوناتها. داهموا بيوتات المساكين بحجة التفتيش على السلاح وفي الحقيقة كانوا يفتشوا عن الجواهر الثمينة والأموال المرصودة. صار الشعب يدرك ألاعيبهم ويستهزئ بهم، حتى وجد المطرب حسام الرسام ضالته في أغنية يقول فيها (بنص القوري عالصاروخ صاروا يدورون) هههههه – أي يبحثون عن الصاروخ في أبريق الشاي.

في الأمس نشرت أحدى الفضائيات صورة لجندي أمريكي قتل طفلين في سيارة بيك آب ومن ثم تصور بصورة تذكارية مع القتيلين وهو مبتسم. نعم مبتسم! لأنه أنهى حياة طفلين بعمر الزهور، الأخ الأكبر بعمر خمسة عشرة سنة والأصغر بعمر أثنتا عشرة سنة. أنه يفتخر لأنه تمكن من قتل طفلين عربيين، وحين

تسـأل مسـؤوليهم عـن نـوع الجريمـة التـي حصـلت؟ يبـرروا فعلتـه الشنيعة بحجة الدفاع عن النفس.

نعـم ... دفاعـا عـن الـنفس..... لانهـم يـدركون وجـودهم باطـل، فشـبح المـوت صـار يلاحقهـم، والخـوف مـن المجهـول يعصـف بكيانـاتهم.. مـا برحـوا أنهـم صـاروا يتسـاقطوا أشـبه بـأوراق الشـجر فـي موسـم الخريـف، يتسـاقطون واحـدا تلـو الآخـر جـراء اشـتداد المقاومـة التـي باتـت تـنظم نفسـها فـي جماعـات وتـبطش بهـم وتلاحـق كيانـاتهم فـي متاهات الشوارع والازقة.

مـن جهـة أخـرى تـأزم الوضـع بـين صـفوف العـراقيين، لـذا تجـد صـفة الشـجار صـار سـمة الفـرد والعصـا التـي يتكـئ عليهـا فـي تعاملـه مـع الآخـرين لإنجـاز هـدف مـا يرومـه، أو غايـة مـا تمناهـا، أو نيـة مـا رغـب بتحقيقهـا، المسـألة باتـت لاتقـف أمامـه كحـاجز..... علـى سـبيل المثـال؛ الـذي رُفِضَ كـزوج فـي مـا سـبق، صـار ينـتقم مـن أهـل حبيبتـه، أو يتـزوج أبنـتهم عنـوة، حيـث بعـد أن تعطـل قـانون الدولـة أفعـل مـا تشـاء، خاصـة إذا مـا كـان منتميـا لأحـدى الفصـائل المسـتحدثة مـن الميليشـيا أو لحـزب مـن الأحـزاب المتعلقـة بـذيل المحتـل. هنـاك مـن أنـتقم مِـنْ مَـنْ لـم يسـدَ لـه خدمـة مـا فـي مـا سـبق، أو أنـتقم حقـدا مـن الذوات الأثرياء والاغنياء دون حجة أو سبب.

انقسـمت النـاس إلـى صـنوف متنافسـة، الـبعض أنتمـى لفصـائل المقاومـة، وهنـاك مـن أيـد الاحـتلال وأصـطفى تحـت أرادتـه بحجـة نبـذ سـلوك النظـام السـابق البغـيض. كمـا تعـددت الغايـات، هنـاك مـن همـه تحريـر الـوطن وهنـاك مـن ود بسـط نفـوذه والسـيطرة علـى مواقـع السـلطة بـدعم مـن القـوى الخارجيـة. وآخـرون وجـدوا متنفسـا لهـم مـن ظلـم نـالوه سـابقا لرفـع سـقف مطـالبهم فـي إدارة مصـالحهم تحـت وقـع الاحتلال، وخاصة المنزوون تحت مسميات طائفية وقومية..

عمت الفوضى في أرجاء الوطن مما جعلت مصادر القيادة تختفي خلف المصالح الشخصية البحتة، فيما عبثت الميليشيا المتنفذة بمقدرات الدولة الأمنية، ولكثرة أعدادها ومسمياتها الغريبة؛ بتنا نتوه في تشخيصها وحفظ أساميها، تصوروا أكثر من ثمانين مسمى بين أحزاب وكتل طائفية وقومية وفصائل ميليشيا كل يود فرض نفسه على الشعب المسكين.

البتول التي كان يعشقها الجميع؛ غدت قبيحة المنظر، مومس، أنتُهِكَ جسدها، نزعت حجابها وجواهرها... ذلك هو العراق الأبي، الكل ود سرقته حتى الدول التي تبعد عنا آلاف الأميال تهافتت على خيراته من أجل لقمة سائغة، وقد سرقت أمريكا مكنون البنك المركزي من ذهب وفضة وجواهر ودولارات خزّنها النظام السابق بالقتر وخنق الشعب في ظل الحصار، بالإضافة لما جمع فيه من تحف فنية ومقتنيات أثرية عمرها آلافا من السنين. البنك الذي وضع فيه الرئيس صدام أهم آثار العراق وممتلكاته القيمة والمهمة والثمينة من مصوغات ذهبية نادرة قبل احتلال العراق، والتي ترجع بإرثها إلى عهد السومريين والبابليين وحقب الحضارات التي مرت على العراق، بالإضافة للقناطر المقنطرة من سبائك الذهب والفضة.

نفض خزين البنك المركزي، لم يبقي فيه شيء يذكر. على أثر تلك السرقة فضت البنوك الأخرى خزائنها من قبل العصابات المستحدثة واللصوص المارقين وجند علي بابا الذين دخلوا من الحدود من عرب وعجم سطت عليها وأفرغتها من مؤنها. تمثلت بما فعلت أمريكا في البنك المركزي.. كذلك فعلت بريطانيا فعلتها في البصرة، فهم لصوص وقتلة، وقد نشرت ملكة بريطانيا إليزابيث صورة لها وخلفها يبدو بوضوح بيانو الرئيس صدام حسين المصنوع من الذهب الخالص....

إن كانت الملكة تفتخر بما سرقوا جنودها؛ فلا تلوم الجيش الذي بأخلاقها افتخروا. نهبوا الغالي والثمين مما وجدوا، تلك أخلاقهم الخسيسة وما بدلوا. توافقت رؤاهم بروى أمريكا بما رانوا إليه من عار وما كسبوا. هذا هو ديدنهم على مر التاريخ تشهد عليهم آثارنا وريع ما سرقوا. يتباهون بما فعلت ايديهم القذرة كأنهم بدماء المساكين والأبرياء سكروا.

3

وسط تلك المعمعة استمر قاسم في مراجعة محله ومعاينة الدولارات التي دفنها في كيس من أكياس بالات الملابس، ليبعد الشك عن أنظار عذاله ومنافسيه في العمل، وخاصة عن جاريه أبو عصام وحاتم الجرو، و.. الخ.

لم يكترث بما أحاطته من مآسي وفقر وعجز مادي، فالله عوضه مبلغ لا ينضب، يغيثه في فترة القحط والعوز إذا ما أصابته فاقة، كما يستطيع أن يتصدق منه على المساكين والفقراء من الذين لا يعرفون أساسه من الذين يمكثون في أماكن بعيدة عن حيه، تجنبا لافتضاح أمره وإفشاء سره.

ذلك ما كتمه وأخفاه عن انظار الجميع، دفن سره بصندوق مقفل بأقفال فولاذية من الصمت والسكوت والحذر، أبقى الأمر سرا حتى على زوجته، الحذر جعله لا يثق بأي شخص، تجنبا للمفاجئات الغير سارة. مع توالي الأيام واشتداد العقد الخارجية بات يشعر بالقلق وبثقل حمله دون شريك. بل الحرج صار يشغل باله ويزيد قلقه مع تقلبات الظرف وارتفاع الاسعار وبالذات اسعار العقارات.

لم يخطط لما بعد الهدوء، لا يعرف كيف يبدأ مشواره القادم وهو يتخبط في مستنقع أحلام بدأت تكبر مع الأيام، بدأت تصرخ في داخله لينتشل ذاته التي تحجرت تحت ظل الفاقة والزمن الرتيب المنحدر، في الوقت الذي به بات يجد صعوبة بالتحرر من قيد الظرف المحيط به، اضحى يشتد عليه الخناق أمنيا..

مع مرور الايام صار يدرك ضعفه ويلتمس نار صبره وجمرة الغلاء التي باتت تحرق مخططاته المستقبلية. كما أن وضع الاحتلال شف الحلول، أيبس المساعي الفردية التي ود القيام بها،

ظـرف يحتـاج لمـؤازرة، لتكـاتف الأفكـار، لأكثـر مـن فكـر فـي تجـاوز محنة الظرف، بسبب فقدان الأمن وتفاقم الغلاء....

مــن خــلال تتبعــه لحالــة الســوق، أدرك أن كــل شــيء قــد تضــاعف ســعره، وبــالأخص العقــارات. فالــدار التــي كانــت تُقــدّر بــدفتر واحــد (عشـرة آلاف دولار) أصـبحت بـدفترين، والعجلـة التـي كانـت بخمسـة آلاف دولار صـارت تُبـاع بثمانيـة أو حتـى عشـرة آلاف. هـذا الارتفـاع الجنـوني فـي الأسـعار أربكـه، زاد مـن قلقـه وأرهـق تفكيـره، فـالغلاء لا يعرف سقفًا.

عـادةً مـا تـرتبط أسـعار السـلع بـالأمن السـائد؛ فحـين يسـود الاسـتقرار، ترتفـع قيمـة الأشـياء. لكـن بغـداد تسير فـي اتجـاه معـاكس تمامًـا. فأسـعار العقـــارات تشـــتعل رغـــم تـــدهور الأمـــن، وتزايـــد أعمـــال القتـــل، والتفجيـرات التـي تطـال المنـاطق الشـعبية وحتـى تلـك التـي تتبـع جنـود الاحتلال.

ارتفعـــت الأســـعار بشـــكل غيـــر مســـبوق بعـــد إلغـــاء شـــرط التمليـــك الحصـــري لأبنـــاء بغـــداد، ذلـــك الشـــرط الـــذي كـــان يُلـــزم أن يكـــون صــاحب العقــار مســجلًا علــى نفــوس بغــداد حســب إحصــائية 1957. هــذا الإلغــاء فــتح البــاب أمــام أبنــاء المحافظــات الأخــرى للتفكيــر بــامتلاك عقــار فــي العاصــمة، لمــا تــوفره مــن فــرص عمــل وخــدمات ومرافق، كونها واجهة الدولة.

تلــك التحــولات أرهقــت أحلامــه، تســللت إلــى صــدارة تفكيــره دون اسـتئذان، وأصـابته بحالـة مـن الشـلل الـذهني. لـم يعـد يـدري كيـف يقـتحم جدار الصـمت والـزمن القـادم ليحقـق حلمـه بـامتلاك دار فـي أحـد أحيـاء بغـداد الراقيـة. احتمـالات تحقيـق الحلـم بـدأت تتلاشـى أمـام آفـة الغـلاء، التي أخذت تلتهم مدخراته وتسحق طموحاته.

مضـت الأيـام تتقلـب، وتكشـف عـن صـور جديـدة لا تتوافـق مـع أحلامـه. رغـم اختفـاء صـوت النظـام السـابق وانكسـار عصـا السـلطة، ورغـم تـدهور الأمـن، بقيـت أسـعار العقـارات فـي تصـاعد، بينمـا ارتفعـت أسـعار السـلع الأخـرى بشـكل طفيـف. هـذا التنـاقض جعلـه يرى المستقبل بضبابية، لا تنسجم مع تطلعاته.

بعـد أن كانـت الأحـلام قـاب قوسـين أو أدنـى مـن التحقـق، بـدأ يشـك فـي إمكانيـة الوصـول إليهـا وسـط عتمـة تلـف أجـواء الـوطن. فقـد ثقتـه بالمسـتقبل وبنفسـه، وأضـحى يتخـبط فـي سـره، تاركًـا أحلامـه علـى غـارب الـزمن. هـل ستسـتتب الأمـور؟ هـل يمكنـه أن يعـيش حيـاة طبيعية تفضي إلى الراحة؟

كأنمـا أصـابته إغمـاءة التغييـر، كحـال عامـة النـاس الـذين تـأملوا عـودة الميـاه إلـى مجاريهـا بعـد سـقوط النظـام السـابق. الـبعض وجـد فـي الوضـع الجديـد متنفسًـا للتحـرر، بينمـا بقـي آخـرون غـارقين فـي عنـق الزجاجـة دون أمـل. وكـان قاسـم مـن بـين هـؤلاء الـذين خـف وطـأة القيـد عنهم، متأملًا فرجًا قريبًا يقيه حر الصيف وزمهرير الشتاء.

صار يفضفض مع نفسه ويقول:

"حتمـاً سـتهدأ الأمـور، سـتخف غبـرة الفوضـى، وتتضـح جليًـا الحقـائق. سـينجلي الهـم، وتعـود الميـاه لمجاريهـا. حينهـا سـأبدأ مـن حيـث يسـتقر الوضع."

لكـن تسـيّب الأوضـاع، وفقـدان النظـام، وازديـاد الجـرائم حـال دون فسـح المجـال للعمـل والتفكيـر بمـنهج التطـور التجـاري. انفـلات الأمـن أوقـف الحيـاة، وانقلبـت الأوضـاع نحـو الأسـوأ. صـار يشـعر أن الحيـاة تبخـرت مـن أجـواء بغـداد، وأن العنـف والحقـد والطائفيـة باتـت هـي اللغة السائدة.

أيادٍ خفية أججت الجمر، ولعبت لعبتها الخبيثة، لا مصلحة لها في استقرار العراق. أججت نيران الطائفية، وأدارت دفتها من خلف الكواليس، ليتمكن المحتل من فرض سيطرته دون مقاومة. همّها الأول أن يبقى الوطن في دوامة الفوضى، ليستمر النهب، وتُسلب المناصب، وتُغتال الأحلام.

تضاعفت أسعار العقارات بشكل غير مسبوق، ففي عهد النظام السابق كانت أقل بكثير من معدلاتها الحالية. ومع سقوط النظام، تأمل الناس خيرًا، فاندفعت خلف توقعاتها، تشتري العقارات في بغداد، وتبني آمالًا عريضة على مجريات التغيير. غير أن العُقد المتجذرة في المجتمع لم تسمح لتلك الأحلام أن تنمو، بل حقنت الواقع بالسم، وانتفضت من مكامنها، لتدفع بالفوضى نحو تعكير المزاج العام.

خرجت الأمور عن السيطرة، وزادت الحياة قرفًا وإهمالًا في مساراتها. الناس باتت تركن إلى الزوايا، تحتفظ بما تملك من مؤن ونقود لأيام القحط القادمة، حسب تقديراتها المتشائمة. توقعت مستقبلًا أكثر سوءًا من ماضيها. كثيرون هاجروا، بحثًا عن سبل عيش كريمة خارج حدود الوطن، بينما بقيت الغالبية تعاني من انعدام الأمن والغلاء، خصوصًا الفقراء والمغيبين من الضباط العسكريين الذين جُرّدوا من مناصبهم على يد المحتل الغاصب. هؤلاء بقوا تحت رحمة الزمن، يأملون عودة الحياة إلى سابق عهدها، رغم الانحدار الملحوظ في منسوب الأمن.

وسط هذا المشهد القاتم، أوحت الأوضاع لقاسم أن يتحرك، أن يخرج من موقع الجمود قبل أن تضيع الفرص من بين يديه. قرر أن يرفق ذاته بمعين يعينه على التفكير، ويخرجه من قمقم العقد التي دفن نفسه فيها. أراد أن يسبق الزمن، ويدق أسفين أحلامه في لوح القدر.

بـادر بشـراء طقـم ذهـب خـالص – 24 قيـراط – لزوجتـه رُقيّـة، تلـك الصـابرة القنوعـة، التـي لـم تـذق طعـم الفـرح الحقيقـي منـذ زواجهمـا قبـل عشـر سـنوات. امـرأة رضـيت بـالرزق الحـلال، واقتنعـت بـالعيش تحـت ظـل زوجهـا، وتحملـت تقلبـات الظـروف والفاقـة دون أن تشـكو يومًا. أراد أن يشركها في همومه، وفي تخطيطه لقادم الأيام.

فـي صـباحٍ هـادئ، انحـدر إلـى سـوق الـذهب فـي الكاظميـة، ذلـك السـوق الـذي لـم يعـد يعمـل إلا لسـاعتين أو ثـلاث فـي اليـوم، مـن العاشـرة صـباحًا حتـى الثانيـة ظهـرًا فـي أحسـن الأحـوال. تجـول فيـه، ثـم اقتنـى قـلادة ذهبيـة 24 قيـراط، تأملهـا بذوقـه، وتخيلهـا ترفـل علـى صـدر رُقيّـة، تلـك التـي شـاقت مـع شـقائه، وأراد أن يضـفي بسـمة علـى شفتيها، ويمنحها لحظة صفاء وسط ضباب المستقبل.

عـاد إلـى البيـت وهـو مسـرور، حبـور بإسـعاد زوجتـه، لكنـه كـان وجـلاً مـن وقـع المفاجـأة التـي سـتدوي فـي أرجـاء البيـت. تقلبـت أفكـاره وهـو يرسـم صـورًا فـي مخيلتـه: كيـف ستسـتقبلها؟ لا شـك أنهـا سـتفرح، ستشـكره، وستسـأل عـن مصـدرها. حينهـا، سيكشـف لهـا صـرة المفاجـأة، سيشـركها فـي همـه وحلمـه، سـيجعلها جـدار الأمـان الـذي يحتمي به، لتعينه على جلد الأيام ومواجهة القدر القادم.

لابـد لـه مـن وكـرٍ يـأوي إليـه فـي أوقـات الضـيق والشـدة، وسـيجعلها ذلـك الـوكر الـدائم، كمـا كانـت دائمًـا: ملجـأ أمـان، وبيـت حنـان، وصـرة أسراره، وبحر شجونه.

دخـل البيـت والبسـمة تكسـو وجهـه، اسـتقبلته حبيبتـه رقيـة بالأحضـان، طبـع علـى خـدها قبلـة طويلـة. اسـتغربت سـلوكه وهـي تبتسـم فقالـت له:...

- أراك على غير عوائدك؟ يا ترى ما الذي غير سلوكك؟
- ولا شيء، لكني اسألك:.. كم سنة مرت على زواجنا؟

- فتـرة عشـرة سـنوات تقريبـا، خيـر مـا الـذي ذكـرك فـي ذلـك؟ أتود أن نعيد زفافنا، أن نجدد عهدنا ومحبتنا؟
- بالضـبط، أحلـم بـذلك، الـزمن أنسـانا مشـاعرنا،(حينهـا حضـنها وقبلهـا قبلـة أخـرى ثـم وشـوش فـي أذنهـا بعاطفـة جياشـة). منـذ عشـرة سـنوات وانـت صـابرة علـى فـاقتي وهـواني وقـدري، خلالها لم أقدم لك هدية تفرحك. متحملة مشقة الحياة معي...
- المهـم أنـت فـي حيـاتي، وحالنـا لا يختلـف عـن احـوال النـاس، الظلـم عـام ولـم يخـص أحـد. ولكـن أراك اليـوم مختلـف عمـا أنت عليه في سالف الأيام، ترى ما ورائك؟؟؟.
- كـل خيـر، وددت أن أفرحـك وأن أعبـر لـك عمـا يجـيش بـه قلبـي تجاهـك، لـذا اقتنيـت لـك هديـة بسـيطة، أحـزري مـا هي؟...
- ساعة يدوية...
- أكيد لا....
- قميص نوم....
- أكيد لا..
- حذاء....
- ههههههههههه، لا وألف لا..
- الم تقل انها بسيطة، إذا تنورة....
- أكيد لالالالا....
- حيرتني قلها وأرفع التكلفة عني.....

حينها أخرج كيس القلادة من جيبه دون أن يريها، قال لها:...

- ممكن أن تتلمسيها..
- أنها صلبة... ترى ما بها؟ أتكون قلادة...
- هي كذلك مبروك عليك..
- نعم، ماذا تقول... دعني أراها ؟؟؟؟

أخرج القلادة من الكيس، ومدّ يده ليحلقها في عنقها. لمع بريقها على صدرها، فصُعقت من جمالها، وانبهرت من وهجها، حتى اتكأت على صدر زوجها مذهولة. كانت المفاجأة أكبر من قدرتها على الاستيعاب، لكن السؤال تسلل إلى ذهنها كهمسٍ غامض: من أين لك هذا؟

رغم الغبطة التي غمرتها، إلا أن خيطًا شفيفًا من الحزن والشك قيد فرحتها. لعب الشك بذيله، ورفّ خيوط الذهن، وخلخل جوف القلب بصعقة ثمنها. إنها غالية، أكثر مما اعتادت، أكثر مما تسمح به ظروفهما. من أين له ذلك؟

رفضت أن تتقبل الهدية دون أن تعرف مصدرها. لم يدفعها ضعفها للتنازل عن مبدأها، عن قيمها وكرامتها. كانت الرغبة تنزف حيرة في داخلها، ترغُبها وترغُمها على تقبلها، تدفعها لترتديها، كما يقول المثل: "العين بصيرة واليد قصيرة."

دمعت عيناها حزنًا أمام لمعة ذلك العقد الثمين، لكن عبء الكرامة والتربية أثقل عليها الأمر. لم يكن بإمكانها أن تتقبل شيئًا دون معرفة حقيقته. إيمانها منعها من الانجراف خلف نزوة عابرة، وعزة النفس والعفة التي تربت عليهما منذ الصغر لوت رغبتها، حتى بدا الأمر سيانًا، لا قيمة له إن خالف مبادئها.

لم تسمح لنفسها أن تشجع زوجها على الانحراف عن الطريق الذي اختطه لنفسه. هكذا تربت، واشرأبت فيها العفة والنزاهة والشرف. تعلمت أصول الدين، وعاشت على ضوء القناعة. طوال خمسة وثلاثين عامًا من عمرها، لم تبتهج بحلي، ولم تعانق جيدها قلادة، رغم أنها كثيرًا ما تمنت امتلاك واحدة.

فالذهب بطبعه يضيء وجه المرأة، ويزح عنها شبح الخوف والفاقة، ويمنحها ثقة بنفسها وبمستقبلها. إنها مسألة نفسية بحتة،

لكن النفس التي تعودت على الطهر لا تساوم على المبادئ، حتى لو لمع الذهب في عينيها كحلمٍ مؤجل.

لكن تقبلها يعني اشتراكها بجريمة تلطخ بها جبين زوجها، كمن يمهد السبل له لفعل جرائم أخرى، أو يمهد الطريق له لمصير مجهول. يعز عليها أن تكبل يدي زوجها بقيود المآثم، أو تشجعه على الموبقات وهي التي تعرف أصله وفصله ونزاهته. ذلك العفيف، الشريف، النظيف، الطاهر على ما تعرفه عنه عبر تلك العشرة الطويلة والالفة الحميمة.

الوضع لا يسمح لها تخطي المُثل التي تغنت بها، فهي مكسورة الجناح. الظرف المهلهل عفس بمقدراتهم ولم تشكو زوجها، أتنكسها قلادة؟؟؟!!.. ولكن من أين له كل هذا المال؟ لابد من أن أتعرف عن أصلها ومصدرها..

صارت تتساءل والشك يفرد جنونها ويغز شرودها، في واقع حال جعلها عصبية المزاج، مضطربة، ضاربة الأخماس بالأسداس دون أن تصل لنتيجة ويقين...

ذلك ما دفعها أن تسأل زوجها وهي مقتضبة الجبين، الحزن يلف بصيرتها، قالت له:....

- ترى ما السر الذي تخفيه عني وأنا عبر كل تلك السنين بمثابة ذراعك اليمين؟ أعترف لي عما يكمن في داخلك ولا تعكر مزاجي وضوء العلاقة الحميمة بيننا؟.
- الحب كده.. الله ما أجملك حين تغضبين.
- من أين لك هذا؟ من أين جئت بالمال؟ قلي الحقيقة فلا أسرار بيننا. أعرفك طوال عمرك حافي القدمين وخالي الجيوب....

لم يعد بمقدوره كتمان السر طويلًا. كان بحاجة إلى طرف يشاركه حيثيات قصة الكنز، يعينه على اتخاذ القرار السليم، ويهديه إلى التصرف والتفكير المناسب في المرحلة المقبلة. فالنفس لا تستقر وسط اضطراب الوحدة، خاصة مع اقتراب عواصف العقد التي تهدد الوطن، رغم الهدوء الظاهري الذي يسود البيت.

ولعل ذلك ما دفعه إلى شراء العقد الثمين لزوجته؛ محاولة منه لخصم جزء من صراعه الداخلي، ولإيجاد توازن نفسي في خضم التوترات المتراكمة. إنها قضية ظرف، فالمجتمع بدأ يتغير، والناس باتت تبحث عن خصوم، العيون متربصة، والحسد يرقص في النفوس كهوامٍ تتغذى على الفرص. التلصص أصبح عادة لدى البعض، متعة يتسلون بها في مراقبة الآخرين، حتى طرق الجيوب تحولت إلى هواية يتفننون بها لإرضاء ذواتهم الأمارة بالسوء.

المشاكل النفسية التي استوطنت نفوس البعض تعمقت وتضخمت، وصارت تحدد مساراتهم نحو المادة والمصلحة الشخصية. فانعكست على المجتمع بقسوة، وأفرزت قطيعة ولا مبالاة، حتى باتت العقد لا تنسجم مع الواقع، بعد أن تبخرت الرحمة تحت وطأة الظروف المجحفة. لم يعد الناس يتغاضون عما يرونه أو يسمعونه، وكلٌ يبحث عن "الهبرة" من زاويته الخاصة.

لذا، لا مفر من مصارحة زوجته بالحقيقة. فالوحدة قد تلتهمه، والآخرون قد يصطادونه في لحظة ضعف. يحتاج إلى من يسنده، من يشاركه التفكير والتخطيط، من يعينه على مواجهة تقلبات الأيام القادمة. وزوجته، أقرب شريك له في الحياة، هي الأجدر بأن يضع ثقته فيها، خاصة بعد اضطراب الأسعار وارتفاع قيمة العقارات مقارنة بما كانت عليه قبل سقوط النظام السابق. المصارحة لم تعد خيارًا، بل ضرورة...وهو موجها كلامه لزوجته:...

- لا تسيئي الظن بزوجك يا جميلة، أنت قد عشتِ معي سنينا طويلة دون أن أنحرف قيد شعرة، كل ما في الأمر بأني أعتز بك كزوجة، فلم تطالبينني بشيء فيما سبق، وأني وددت أن أكافئك بهذه الهدية.
- تعرفني وأعرفك، ونعرف البير وغطاءه، أنت لا تملك شيء والعيشة مرة ومستورة بشق الأنفس والحمد لله، أرح قلبي وقل لي من أين لك هذا؟

صار يبتسم ويمازحها بخواطر من المحبة ...

- الحب كده.. خصام، غرام، وشك بالحبيب.. هههه... يا امرأة ثقي بي ولست ممن يمد يده على الحرام. لم أكن ارضى بالحرام وأنا شاب أيكون لي ذلك وقد تجاوزت الأربعين؟
- إذا قل لي الحقيقة؟
- لقد عثرت عليها في الطريق...

كشرت بوجهه وشدت من نبرتها....

- لا تلعب بأعصابي، فلست على مزاج كما ترى، أتظن بأني لعبة بين يديك، أفصح عن أمر العِقد؟

لم يصبر أمام حيرتها فكشف لها المستور...

- يا حبيبتي، يا نور عيني، إلا يكفي قد عشنا فترة الظلام معا، لقد رأف الله بنا وأنار دروبنا. لقد رزقنا الله من حيث لا نحتسب.
- والنعم بالله، يكفينا إيمانا به وبرزقه.
- أتذكرين يوم ذهبت للمحل بعد السقوط بيوم واحد؟
- نعم أذكر.

- أتــذكرين حــين عــدت بوجــه مســتطير شــاحب تســيطر علــيَّ الحيــرة، حينهــا تجهــم وجهــك بعــد أن وجــدتِ تغيــرا قــد طــرأ علــى محيــاي... حينهــا ســألتني؛ مــا بــك ؟مــاذا جــرى لــك؟ لــم أنــت مضــطرب ومتلكــئ؟- حينهــا قلــت لــك لا شــيء، إنمــا تــأثرت بالأوضــاع والســرقات التــي ضــربت عمــق الدولــة ومقاماتهــا، فأحالت مقوماتها إلى هشيم متناثر في الطرق.
- نعـم أذكـر ولـم أكـن مقتنعـة بجوابـك، لكنـي تقبلـت الإجابـة لأنهـا أقرب للحقيقة.
- فــي ذلــك اليــوم وأنــا أتفحــص الــدكان، وجــدت كيســا محكمــا مــن الــدولارات مرمــيٌّ أمــام الــدكان! وكأنــه ســقط مــن هــؤلاء اللصــوص الــذين نهبــوا البنــوك وهــم يهمــون بــالهرب- هــم اجتهــدوا بالســرقة ونحــن اجتهــدنا بــالرزق والنصــيب.. أكــتم السر عن نفسك، فالنفس أمارة بالسوء.
- وطــئ صــوتك، الحيطــان لهــا آذان توصــوص. رحمــاك يــا رب. اتجهــت لزوجهــا وقبلتــه مــن جبينــه، لــم أظــن فيــك ســوءا، أنمــا العقــد ثمــين لا يقــدر بــثمن. ولكــن .... علــى نيــاتكم ترزقــون .... أتعلم كم هو المبلغ؟
- 300 دولار فقط.
- تقــول كــيس مملــوء بالــدولارات، فيــه 300 دولار فقــط؟ ... أجابت بشيء من العصبية.
- يا هبله قيمة العِقدْ 500 دولار..هههههههه....
- يا أهبل أسالك عن كيس النقود... لا تضحك عليَّ.
- فــي البدايــة لــم أعــدها... ولكــن بعــد أن هــدأت العاصــفة قلــيلا، خفــت مــن الســرقات تطــولني، فعــددتها ودفنتهــا فــي كــيس مــن أكياس البالات. يا رقية المبلغ نصف مليون دولار.!!!!
- مممـــــا ذذذذ ااااا قلت، .. ماذا... نصف مليون..

كـادت أن يغشـى عليهـا لـم تحتمـل الصـدمة، جلسـت علـى الأرض ويدها على قلبها ....

- نصـف مليـون، هـذا الـذي سـقط مـنهم فقـط، فكـم هـم إذا قـد سرقوا؟؟؟......
- أأنت تمكنت من عدها؟ ...
- نعم... ما بك؟ لا تفضحينا...
- بالك مطمأن وهي بعيدة عنك؟
- ماذا في ذلك؟

..بعد أن استراحت قليلا..

- أفـرض سـرقوا دكانـك وهـو لا يقـيم خمسـمئة دولار، فـلا يوجـد فيـه غيـر بـالات أسـمال وأطمـار باليـة، فمـاذا تفعـل حينهـا؟ يجـب الآن تُـأتي بـالمبلغ للبيـت، فالبيـت أأمـن وأكثـر راحـة بـال لنا....

صارت تشكر الله على رزقه.. رحماك يا رب ... رحماك يا رب...

- أسـمع الآن تـذهب وتـأتي بـالكنز علـى الفـور، علـى الأقـل ننـام دون قلـق واضـطراب نفسـي، علـى الأقـل نحـن نكـون حـراس عليـه.. لا بـل أنـا وأنـت نجلبـه سـوى كـي لا يشـك فيـك أحـدا.... اليـوم أن لـم نجلبهـا فلـن تخلـد عينـي إلـى النـوم، هيـا جهـز نفسك.

سالت زوجها بحيرة وتعجب..

- هـي يـا هـذا.... كيـف تحملـت سـكوتك علـى الكنـز كـل تلـك الأيام؟ أي قلب تحمل؟

- لم اكن على ما يرام، والأوضاع على شدتها في حينه، وخفت أن كاشفتك السر تفضحين أمرنا دون قصد منك، ربما نفتضح أمام الأولاد وفي الحارة. في الأخير لم أتحمل ثقل الكتمان، فقلت لابد من إشراكك معي، كي تعينيني على حملها والتصرف بها، لذا اشتريت القلادة لأفتح بها قلبي لك، لأدخلك في معمعة الحسابات التي أرهقتني.
- أنت مجنون؟... نفتضح أمام الأولاد ولا نسرق من قبل الأوغاد... لا تضع عراقيل أمام مسعانا، ثم لا تخف؛ أني سأحتفظ بالدولارات في خزانة ملابسي، لن يتجرأ أحدا العبث بها، على الأقل تكون تحت أنظارنا.
- جهزي لي حقيبة ملابس صغيرة... لالا ؛ من الأفضل أن نقتني واحدة من سوق باب الشرقي كي لا يشكوا بنا المتربصون من الجيران.
- أحسنت؛ أنها فكرة صائبة، خمس دقائق وأكون جاهزة، أنت نادي على أبنك كي يبقى في البيت ولا يبتعد عن الدار حتى عودتنا، الوضع لا يطمأن أحد.
- فعلا، دعهم يبقون في البيت هو وأخته ولا يخرجون منه حتى نعود.

4

انطلـق قاسـم وزوجتـه رقيـة نحـو بـاب الشـرقي، القريـب مـن دارهمـا. اقتنيـا حقيبتـين: واحـدة متوسـطة الحجـم، وأخـرى أصـغر، مـن تلـك المصـنوعة مـن خيـوط النـايلون الرخيصـة، زهيـدة الـثمن، شـائعة الاسـتخدام، ذات أشـكال مكعبـة وأحجـام متعـددة. اختاراهـا بعنايـة كـي لا تلفـت الأنظـار، فهـي عمليـة وسـعة حجمهـا تخـدم الغـرض دون إثـارة الشكوك.

بعـد اقتنـاء الحقيبتـين، اسـتأجرا عجلـة أجـرة مـن ذات الشـارع، ذهابًـا وإيابًـا إلـى سـاحة الميـدان. وصـلا قبـل الغـروب بسـاعة أو أكثـر قلـيلًا. كانـت حركـة النـاس محـدودة، لكنهـا تسـير كالـدبيب فـي الشـوارع، فـي عجلـة مـن أمرهـا، تحـاول إنجـاز مـا تبقـى مـن مهامهـا اليوميـة قبـل أن تغيـب الشـمس وتـدنو سـاعة العسـر. ففـي العتمـة، تكثـر الجـرائم، وتتنشـط المصـائد والمكائـد والسـرقات. قـوات الأمـن تنسـحب إلـى مخابئهـا، وربمـا تكـون هـي مـن تسـتغل الفـرص لصـيد "الفئـران المنفلتـة". لـذا، كـان الجميـع منشـغلًا بهمّـه، يسـابق الـزمن لينهـي مشواره ويجنب نفسه المخاطر.

ذلـك الهـاجس المشـترك كـان طاغيًـا، يفـرض حضـوره علـى النفـوس، يقتـرب مـن ذروتـه مـع بـدء الغسـق. فـلا بـد مـن إنهـاء المشـوار والعـودة إلـى البيـت قبـل أن يصـاهر الخـوفُ الغسـق، حيـث تبـدأ رحلـة الرعـب مـع نثـار العتمـة المتسـلل مـن الأفـق المنحـر. عنـدها، تتحـول المدينـة التـي يلفهـا هـدوء مؤقـت إلـى غابـة تجوبهـا الوحـوش الضـارية، فـلا أحـد يأمن على نفسه.

توقفـت العجلـة أمـام دكـان صـغير. دلـف قاسـم ورقيـة إلـى الـداخل بعـد أن طلبـا مـن السـائق الانتظـار لـدقائق، وأخبـراه بأنهمـا ينويـان نقـل بعـض ملابـس الباليـة إلـى ذويهـم ومعـارفهم مـن الفقـراء والبسـطاء. لـم

يطِـلَا البقـاء. وضــعا كـيس النقـود داخـل الحقيبــة، ثـم دفنــاه تحـت كـمٍّ وافـر مـن الأغطيـة والملابـس المسـتعملة، لتبـدو الحقيبـة طبيعيـة تمامًـا، لا تثير الريبة.

حمـل قاسـم الحقيبــة، وضــعها فــي صــندوق العجلــة الخلفــي، وأغلــق الغطــاء بإحكـام. جلسـت رقيـة فـي مكانهـا وقبـل أن يلتحـق بهـا قاسـم، ناداه جاره أبو عصام:..

- الحمـد لله علـى السـلامة يـا أبـو محمد، لـيس مـن عاداتـك لا تسـلم علينـا، كأنـك نسـيت أخوّتنـا، اشـتقنا لـك، لـم نـراك منـذ زمـن، لـم أشــاهدك تفــتح محلــك منــذ مــدة، تــرى هــل عوضــت عمــل البــالات بعمـل آخـر؟ أخبرنــا اشــتقنا لسـماع اخبــارك، ان شــاء الله خير.

أمـتعض قاسـم فـي داخـل نفسـه مـن وجـوده وسـؤاله الغيـر مناسـب فـي وقـت غيـر مناسـب، حيـث يعلـم بخفايـا نفسـيته الدنيئـة اللحوحـة وبُعـد عينـه الحسـودة؛ لقد ظهـر فـي وقـت ميـت، ثقيـل، حيـث لـيس الآن وقـت تثريــب، فيمــا زوجتــه كتمــت أنفاســها وغيضــها داخــل صــدرها لكثــرة اغتيابـه مـن قبـل زوجهـا فـي سـابق الايـام. بقيـت فـي حيـرة مـن أمرهـا وهــي تنصــت علــى حــديثهما باضــطراب. هجســت بــذلك القلــق يســري فــي عروقهــا كجريــان الــدم، خوفـا مــن أن يكـون قـد شـك فـي أمـر حضورهما دون سابق إنذار...

- ههههـه، أنـت أعلـم بـالظرف يـا أبـو عصـام، الأوضـاع لازالـت مهـزوزة وغيـر مسـتقرة، ولا أريـد أن أجـازف بحيـاتي.. وهـل أبيـع ذهبـا كـي أواظـب علـى العمـل! أنهـا مجـرد أسـمال باليـة اسـتغنت عنهـا النـاس. ثـم النـاس همهـا الأمـان والأكـل ولـيس اللـبس فـي هـذا الظـرف المقيـت الحـاد.. الله كـريم، اليـوم أنـا مشغولٌ مع أم محمد، وغدا بإذنه تعالى تفرج وأكون هنا.

أبو عصام دائما ما يتحلا بالفضول الزائد، لذا ود أن يستفسر عن الكيس وما فيه....

- وما قصة هذا الكيس الذي حملته، هل أصبحت تتاجر في أماكن أخرى؟
- ههههههههه، قل غيرها يا أبو عصام... لا بل قل هناك من هو بحاجة لها وليس لديه القدرة على دفع ثمنها في هذا الوقت العصيب.. أني أتصدق بها على المحتاجين والله قد أوصانا بالأقربين، عسى أن ندفع البلاء عنا، أنت أدرى بالأوضاع المتقلبة، لقد ساءت كثيرا وانفلتت الأمور وانقلب كل شيء رأس على عقب، الحالة شملت الأغنياء والبسطاء على حد سواء.. هذه الفوضى التي لا تهدأ أربكتنا، جعلتنا نحلم بالماضي القريب..... على أية حال شكرا لسؤالك لابد من أن أذهب، صاحب التاكسي مستعجل وأنا أيضا في عجلة من أمري والوقت ليس وقت مجادلة.
- صدقت أصبحنا في تيه لا يعلم به إلا الله... مع السلامة، مع السلامة يا أم محمد.
- مع السلام... قالتها بشيء من عدم الرضا.

أربكه سؤال أبو عصام، زلزل توازنه، حتى كادت ساقاه أن تخوناه من فرط التوتر. تسارعت نبضات قلبه، واشتد عليه الضغط، كأن السر الذي يحمله على كاهله أوشك أن ينفلت من بين ضلوعه بفعل الإلحاح الذي مارسه جاره. كان القلق ينهش أعصابه بلا رحمة، ولم تهدأ حالته إلا حين دارت عجلات التاكسي، هاربة به إلى جوف الغسق، مبتعدة عن قبضة الحرج التي كتمت أنفاسه. وما إن تحرر من ذلك الموقف، حتى تنفس الصعداء.

لم يكن في وضعه الطبيعي، بل كان في مهمة بالغة الخطورة، ربما الأخطر في حياته كلها. صدق المثل القائل: "من في جعبته عنزة

تمعمــع". كــان الخــوف والقلــق علــى وشــك أن يفضــحا ســره، ولــولا اصــطحابه لزوجتــه، لربمــا انكشــف أمــره. فقــد أدرك أن حضــورها يضـفي علـى المشـهد ظـلًا مـن الأنوثـة، يربـك المتتبـع ويعكـس الصـورة فـي نظـر المراقـب، ويبـدد الشـكوك المتسـللة مـن نظـرات أبـو عصـام اللحوحة، اللماحة، التي لا تعرف الرحمة.

فـي زمـن مضــى، كـان هنـاك صـديقان حميمـان، لـم يختلفـا يومًـا، ولـم يفترقــا قــط. جمعتهمــا ألفــة نــادرة، واحتــرام متبــادل منــذ نعومــة أظفارهمـا. كانـا يُضـرب بهمـا المثـل فـي الوفـاء، حتـى باتـا محسـودين مـن قبـل الأقـربين والغربـاء علـى حـد سـواء، لمـا اتصـفا بـه مـن صـفات نبيلــة، وعلاقــة متينــة عضــدتها آصــرة مــن التبجيــل والاعتبــار. كانــت صداقتهما جدارًا منيعًا، لا تهزه ريح، ولا تنال منه العواصف.

وفـي أحـد الأيـام، بينمـا كانـا يسـيران جنبًـا إلـى جنـب فـي زقـاق مغبـر، لاحـظ أحـدهما ورقـة خضـراء مسـتطيلة الشـكل، يـدحرجها الـريح أمـام أقـدامهما. اسـتوقفه شـكلها الغريـب، فسـاوره الشـك بأنهـا ليسـت عاديـة. دفعــه الفضــول لالتقاطهــا، بينمــا كــان صــديقه غــافلًا عنهــا. ومــا إن تمعــن بهــا، حتـــى اكتشــف أنهــا ورقــة نقديــة مــن فئــة 100 دولار أمريكي، لم يسبق له أن رآها أو تعامل بها من قبل.

فـــي البدايـــة ظنهـــا مجـــرد صـــورة أو إعـــلان، لكـــن حـــين تحسســـها بأصــابعه، أدرك أنهــا حقيقيــة، وورقــة نقديــة صــحيحة. غلبتــه النشــوة، وبحسـن نيـة فطريـة، أخبـر صـديقه الـذي لـم يكـن منتبهًـا لهـا، وكأنمـا أراد أن يشاركه لحظة الاكتشاف، كما شاركه الحياة منذ الطفولة:...

- رعـد؛ لقـد عثـرت علـى 100 $، كنـت أعتقـد أنهـا مجـرد صــورة عبثيــة مفبركــة، لكنهــا أتضــحت أنهــا ورقــة نقديــة حقيقية، سليمة.

- دعني أرى يا أحمد (أخذ يتفحصها وحين تأكد بأنها سليمة 100%، تمسك بها) قال لأحمد: نعم أنها حقيقية، فعلا 100 $ صحيحة، إذا دعنا نذهب إلى الصراف نصرفها ونتقاسم قيمتها.
- وما علاقتك بها؟! أنا الذي عثرت عليها، فهي من حصتي كاملة.
- لكننا نسير معا جنبا لجنب، ثم أنت صديقي المقرب، كل الأشياء مشتركة بيننا ودائما نتقاسمها، فنحن نتقاسم المرة والحلوة، فلو أنت تأخرت قليلا لكنت أنا الذي التقطها، إذا لي حق المناصفة.
- مستحيل! كيف تحشر نفسك في رزق دلقتها الصدفة أمامي، أنها رزق من الله، فلو كان لك بها حظ ونصيب لانتبهت عليها قبل أن أنتبه عليها، هي لي كاملة لن تأخذ منها سنتا واحدا، هل فهمت؟
- بل لن أدعك تأخذ نصيبي منها، مثلما لك فيها، لي أنا حظ فيها أيضا. لا تك أنانيا مجحفا، نحن دائما نشترك بالأشياء.
- أنا لست أناني، لكنك وضيع تحشر نفسك فيما لا يعنيك، تغتصب ما ليس لك حق به، هات المئة دولار.
- لن أعطيها لك، يجب أن نتقاسمها مناصفة.

تمسك الأثنان برايهما دون أن يتنازل أحدهم عن طمعه، طمع رعد غلب حلمه وكذلك حلم أحمد راغ في صحن طمعه وبخله، فأشتد العناد والصياح بينهما ومن ثم ارتقت الحالة إلى مرحلة الشجار حتى طالت الأيادي الأجساد، فأدمى أحدهما الآخر، مثلما تمزقت ورقة المئة دولار إربا إربا دون أن تصبح من نصيب أيًا منهما.

وعلى أثر تلك الواقعة والخصام؛ افترقا دون أن تهادن بينهما الأيام أو تجمعهما في لقاء ألفة وعودة. أصبحت تلك الورقة جدار فصل

دائـم بـين الأثنـين، كـأنَّ الشـيطان قـد تمثـل لهمـا بتلـك الورقـة النقديـة نتيجــة حســد النـــاس والطمــع الــذاتي، فجعــل بصــمة الطمــع تلطــخ جبينيهما بالفرقة والعداء إلى الأبد.

إذا كانــت ورقــة مئــة دولار فرقــت صــديقين حميمــين، فمــاذا ســيفعل نصـف مليـون دولار بخصـمه اللـدود الحسـود، ذلـك الـذي تعشـعش فـي مخـــه مســتوطنات بكتريـــا الطمـــع التـــي تغشـــي نظـــره وروحـــه بنـــتن قرفهــا. أكيــد أنــه ســينتقم، ســينتقم أبــو عصــام منــي إذا مــا علــم بقصــة الكــيس المرمـــي بـــين دكانــــه ودكــــاني، فهــو جــاري، لا يفصــله عنـــي ســـوى جـــدار عـــازل، هـــذا يعنـــي بأنــــه ســـيطالب نصـــف المبلـــغ كـــون الكـيس مرمـيٌ بـين الـدكانين. ذلـك مـا جعلـه يقلـق مـن سـؤال أبـو عصـام في الحظة التي كان يود الهرب بالكيس من وجوه معارفه.

خــــلال تحــــرك التاكســــي صــــار يــــدعوا الله همســــا، خانعــــا، مستســــلما لمشـيئة ربـه - يـا رب ارفـق بنـا، الطـف بعبـدك المسـكين فلسـنا مـن أصـحاب السـوابق كمـا تعلـم، ولسـنا سـوى مـن عبـادك القـانطين تحـت ظلك، أبعد عنا عناء الشر وغل الحاسدين الحاقدين...

وصـــلا البيـــت بســـرعة عجـــلات التكســـي مختـــرقين حـــاجز الخـــوف، متجـــاوزين أزمـــة القلـــق، مـــا أن وصـــلا حتـــى انتعشـــت أوصـــالهما بالرضـــا، كأنهمـــا خرجـــا مـــن معركـــة غيـــر متكافئـــة منتصـــرين يلوحـــون بشـــارة النصـــر فـــي وجـــه الـــزمن، محيطـــين ذواتهمـــا بســـور مـــن الأمـــان والمستقبل.

أدخـلا الحقيبــة لغرفــة النـوم، دون أن ينتبـه عليهمــا الأولاد اللـذان كانــا منشـغلين مـع أولاد الجيـرة أمـام عتبـة الـدار، فلـم ينتبـه علـيهم أحـدا مـن الجيـران... دسـت أم محمد الحقيبـة فـي خزانـة الملابـس ثـم أقفلـت بابـه بمفتـاح علقتـه فـي جيـدها، ثـم اتجهـت للمطـبخ لتعـد وجبـة عشـاء تـريح بها أعصابهم والتي كانت قد هيأت مستلزماتها مسبقا.

5

في اليوم التالي، لم يذهب أبو محمد (قاسم) إلى دكانه. لم تعد مسألة البيع والشراء تعنيه، بعدما اطمأن إلى وضعه المادي وأمّن مستقبله بما رزقه الله من نعمة تكفيه لعمرٍ كامل. ومع دفء الشمس وتنهدات الصباح، اقتنى دجاجتين وبعض الخضار والفواكه لأم محمد، لتعد لهما وجبة غداء مرموقة تعبّر عن فرحتهما وابتهاجهما بما نالهما من فضل الله، الذي ميّزهما عن كثيرين لا يزالون يتأملون فتاتًا يسد رمق يوم أو شهر، في وقتٍ بات فيه الشلل يزحف من كل حدب وصوب على خاصرة الوطن، ويصيب ضعاف الحال بعاهات في تدبير الرزق.

ومع مرور الأيام، بدأت الحياة تتقلب بين الجحود والبسط، تنفرج في زاوية وتختنق في أخرى. لكن قسوة الظرف دفعت الناس إلى كسر صمتهم، إلى المجازفة بحياتهم، لأن عجلة الحياة لا تتوقف مهما تعقدت الأحوال. لا بد من استمرار المطاعم والمخابز والمحلات التجارية، فكيف للناس أن تعيش دون طعام وشراب ومصدر رزق يعيل الفرد وعائلته؟ وكيف تُدار الحياة دون رعاية صحية في المستشفيات؟

لابد أن تفتح المستشفيات أبوابها، أن تكون جديرة بالثقة والأمان، لتستوعب الأعداد المتزايدة من المرضى والجرحى، نتيجة التفجيرات المتكررة واشتداد المقاومة هنا وهناك. لابد من وصفة سحرية تعيد للبلد كرامته وثقته بنفسه، فالعقد تلاحق الجميع، جنود الاحتلال وأبناء الشعب على حدٍ سواء. ومن الطبيعي أن ينال غير المحظوظين نصيبهم من هذا العنف الدائر، فالرصاص والشظايا العمياء تطال أجساد الأبرياء من المارة والمساكين، ممن لا ناقة لهم ولا جمل في هذه المعمعة التي لا يبدو أن لها نهاية قريبة.

لابـد أن تعـود الحيـاة إلــى مجاريهــا، ولــو رويـدًا رويـدًا. فقـد جزعـت النفـوس مـن حالـة الكسـوف والخسـوف التـي تخـيم علـى الـبلاد. مـن يتحمـل هـذا الكسـف بكـل مغالاتـه؟ حتـى المحتـل نفسـه يحتـاج إلـى عـودة الأسـواق لسـابق عهـدها، ليـتمكن مـن بسـط نفـوذه وتحقيـق مبتغـاه. ففـي ظـل الفوضــى، يبقــى الفـرد يبحـث عـن ثغـرة ينفـذ منهـا إلــى جهـة الأمان، ليفض غلّه في جسد المسبب الرئيسي لهذا الخراب.

كـل أوسـاط المجتمـع صـارت تشـكي حالـة الجمـود والقحـط. فالقسـوة لهـا حـدود لـن تحتمـل إذا مـا تجـاوزت حـدها ومـدتها، لـذا بـدأت النـاس تفـك أزمتهـا بـذاتها، غـدا لـون المجتمـع قـاتم، بـل فـي بعـض الأمـاكن الشـعبية صـارت أكثـر سـوداوية ممـا هـي عليـه فـي المنـاطق الراقيـة، للضعف العام السائد اقتصاديا في المجتمع.

كـل شـيء بـات يعـرج فـي مسـراه، يأخـذ وقتـا أطـول مـن المتوقـع كـي يسـتقيم ويقـوم، مـع ذلـك سـارت الحيـاة رتيبـة وبأنفـاس متقطعـة، غيـر مرضــية، متحملــة القســوة المفرطــة تحــت وقــع تنــافس الأحــزاب الجديــدة علــى الكراســي مــن جهــة؛ وزحمــة الميليشــيات الدخيلــة المسـتحدثة والعابثـة فـي أمـن الدولـة مـن جهـة أخـرى، كـل يـود بسـط نفـوذه علـى منافـذ الدولـة وسـدة الحكـم تحـت ظـل المحتـل، فارضـا قراره الموائم لتطلعاته.

دلــف أبــو محمد لغرفــة النــوم لتبــديل ملابســه وأخــذ قســط مــن الراحــة والاسـترخاء، كـان قـد غـص فـي منتجـع الأحـلام، باتـت تنهمـر علـى ذهنـه أفكـاره كـرذاذ المطـر، تَـذكره بماضـيه الجلـف، متـأملا مسـتقبلا سلسا باهرا على ضوء ما حدث.

دلـف للغرفـة ليرتـدي لباسـه المعتـاد الدشداشـة البيضـاء التـي تعـود أن يرتـديها داخـل البيـت.. وهـو مـاض فـي سـرحانه، مـرت علـى بالـه أشــرطة أيــام القحــط والتصــرم التــي لا حقتــه منــذ ولادتــه دون أن

يستطع أن يكف جماحها ويلين أهوائها. لاحت له ساعات الحزن والتحسر. أيام مرة جلدته، خصفت عمره بسوط الفقر، منعته من تكملة دراسته، أخرته في مشواره وفي تأملاته وزواجه عن أقرانه..... حينها سقطت على حافر الخد دمعة حزن، صار يقرأ الأدعية ويشكر ربه على لفتته وعطفه وأن جاءت متأخرة، كما صار يعد ذاته لغده الجديد، ليرمي تلك الايام السوداء بحجر الوداع، لينسى همه ويترك أحزانه خلف ظهره. حينها عرف بان رحمة الله لا تحل إلا على العبد المتزن المؤمن وأن طال الزمن.

يقول الله في سورة الطلاق- " من كان يؤمن بالله واليوم الأخر ومن يتَّقي الله يجعل له مخرجا، ويرزقه من حيث لا يحتسب". صدق الله العظيم.

وقبل أن يجهز الغداء عاد وجلس في الصالة الصغيرة حيث البيت لا يتجاوز مساحته 100م² يتكون من غرفتين صغيرتين وصالة، تكاد لا تزيد مساحتها عن مساحة الغرفة الواحدة، وفضاء حوش صغير مبنيٌ فيه حمام ومطبخ إلى جانب منه. ربط طرفي الحوش بسلك معدني (السيم) لنشر غسيل الملابس.

كان قد عاد محمد قبل فترة الغداء بفترة وجيزة، أنّبته أمه على تأخره خارج البيت لسوء الأوضاع التي لا تسر، قائلة له:....

- يا بني؛ لِمَ لا تسمع كلامي وكلام أبوك، الوضع غير آمن وأنت تذهب بعيدا، أتدرى لو جرى لك مكروه ما لا سامح الله؛ سأموت من بَعْدَكْ قهرا! ألا تعلم بأن الصهاينة يسلون أنفسهم بقتل أطفال العراق! هؤلاء المحتلين القذرين ليس في قلوبهم رحمة اتجاه الطفل ولا الكهل، ناهيك عن فرق الموت المتوحشة التي تجوب الطرقات.

- لا تخافي يا أمي: أبنك رجل وليس طفل، ثم أنَّ هناك من أهل المحلة صاروا يؤازرون بعضهم البعض خوفا من هجمات عصابات النهب والسلب ألتي طالت بعض مناطق بغداد مثل حي العامرية وحي العامل والجهاد، حيث بعد أن أفرغوا البنوك والوزرات اتجهت تلك العصابات لسرقة البيوتات بدوافع طائفية مقيته.
- من قال لك هذا ؟ سأله أبوه..
- لقد تشكلت قوة من شباب المحلة لتحرس البيوت من العابثين الغرباء، كل من يملك سلاحا، بندقية كانت أو مسدسا أو ساطورا أو هراوة وعصي، فليتقدم في الدفاع عن محلته.
- حسنا فعلوا! هذه العصابات موجهة، تقف خلفها أجندات تخطط لتدمير البلد، حتما يستقون أوامرهم من أسيادهم خارج الحدود؛ وإلا ما كان لهم تلك الجرأة التي يتصفون بها أملا بارتقاء سلم السلطة وترهيب الشعب وتهييج الطائفية.

ربما النعرات الطائفية بدأت تأخذ سعة في مجالها وتبرز بين الأهالي، إضافة للثأر والكراهية تجد فرص جيدة تعينها تحت غياب القانون، ربما العنصرية نبتت لها جذور وسط الرعية وأستفحل عودها، كل شيء جائز في خضم هذه المعمعة... هكذا أجابته أمه..
- يا أبني أسمع كلام أمك... لقد كنا من أنظف الشعوب وأطيبها، كانت البساطة هي هويتنا، لا ينحرف فكرنا عن حدود قيمنا ومنهج ديننا الحنيف بشعرة. ها أنت ترى أمك من الطائفة الشيعية وأنا من الطائفة السنية... تصور؛ حين كنت طفلا كانت الناس تنام كمجاميع في وسط المحلة لصغر بيوتاتهم، الآن نَتجنب الجار وغيرة الجار ونحن قانطون في غرف محكمة أبوابها. صارت المشاكل

والهفوات تطرق بيباننا دون خجل ودون أذن. أنا فعلا سمعت في منطقة العامرية وحي العدل حدثت سطوات على بيوتات الأبرياء في عز النهار.

- يقولون بأنَّ العصابات تأتي من خارج بغداد وآخرون يتهمون عصابات تخرج من قصبات بغداد، ويقولون من خارج الحدود جزافا والله أعلم، عصابات تحمل نزق الطائفية، قسمٌ منها تقودها عمائم مدجنة بخبث النية، الكل يسعى لخراب وتدمير الوطن.
- صدقت يا بني، فأحذر لا تبتعد عن البيت.

وسط هذا الخراب العميم، برزت أحزاب طائفية تنهش في جسد الطوائف الأخرى، لا سيما تلك التي تتلقى دعماً لوجستياً من الخارج، أو التي تسلقت سلالم السلطة وهي تروّج لأجندة المحتل. كثرتها أفقدتنا القدرة على حفظ أسمائها، بعد أن كنا نرتاب من الحزب الأوحد، فإذا بنا أمام طوفان من الفرق والتيارات، قُدّر عددها بأكثر من ثمانين حزباً وطائفة، بين سنة وشيعة وأقليات أخرى.

أسماء شتى طفت على الساحة، كل يدّعي الوطنية والشرعية: الشيوعية، الدعوة، الحكمة، الصدريون، أنصار السنة، أبناء عمر، أبناء محمد، الفاطميون، حزب الله، ربع الله، السلفيون، أنصار محمد، الفضيلة، حزب أم علي، حزب الراقصة ملايين، أبناء المحسنين، الماكرون، الناجون، المغيبون، الخراصون، الخراطون، القانطون، الجشعون، النصابون، النسابون، السفسطائيون، المجددون، الأخمينيون، الدراويش... والقائمة تطول.

يتنازعون فيما بينهم على المال والمنصب، منشغلون بجمع الثروة وتكديس النفوذ، بعضهم مدعوم بمليشيات، وآخرون يتخفّون خلف

عباءة الدين والقومية لكسب رضا الجمهور، وغيرهم تائهون خلف مصالحهم الذاتية ونواياهم الملتبسة.

في زاوية أخرى من هذا المشهد، كانت رقية تتوضأ، وقاسم كذلك. صلّيا الظهر وصلاة الشكر، كلٌ حسب مذهبه: هو على المذهب الحنفي، وهي على المذهب الجعفري. ثم فرشت السفرة، وأعدّت الطعام في الصحون. طبخت برياني بالدجاج، تلك الأكلة العراقية المحبوبة التي تختلف تماماً عن البرياني الهندي المتداول في الخليج... وقبل أن يبسملوا وتهمّ أيديهم بنسف الغداء، رن جرس الباب، ثم دخل جاسم بصوته الأجش، دون استئذان. السلام عليكم...

- وعليكم السلام.
- رد أخوه قاسم- تفضل، ها قد جئت في الوقت المناسب قبل أن نبدأ غدانا، كم نيتك طيبة يا أخي.
- انا موعود بالأكل الطيب، وعلى نياتكم ترزقون، ههههه.
- ماهي أخبارك؟ ماذا تفعل؟.. سأل قاسم أخوه
- الروتين يفرض نفسه، كنت مارا في الميدان ورأيت دكانك مغلق، التقى بي جارك الطويل، النحيف، ذات العيون الصفراء سألني عنك وقال لي بأن أخوك مشغول ووضعه مضطرب وحالته غير سوية هذه الأيام، لربما يمر في أزمة لا يود الافصاح عنها، فقررت أمر عليك واستقصي وضعك، ربما تكون بحاجة ما اسديها لك.
- دعك من هذا التافه الطرطور، أنه لجوج ولحوح، يحاول أن يتلصص على أخبار الأخرين ويغمس أنفه في كل صحن، سألتك عن حالك ووضع شغلك؟ كيف تسير الأمور معك؟ وكيف صحة الوالدة؟
- الوالدة بخير والحمدلله، أما من طرف المستجدات فلا جديد، نتجول في الشورجة ونستخرج قوت يومنا بتقطيع الأنفس.

- المهم لا تتكاسل أمام الرزق، قل لي؛... هل لازلت تتبع اهوائك في البارات ودور المباغي؟ أم هداك ربك وعزفت عن الموبقات.
- لا هذا ولا ذاك، أن كنت لا أجد فرصة عمل حقيقية في هذه الفوضى الدائرة؛ من أين آتي بالمال لأشتري الخمر.. لا لا أطمأن، الجيب خالي والحمد لله.

استخرج قاسم من جيبه مئة دولار ووضعها في يده..

- خذ هذا مصرف لك ولأمك وأمانة عليك لا تشتري به خمرا.
- أيه يابا (مبتسما).... أصبحت تلعب بالدولارات وأخوك حافي القدمين يتأمل صدقات الناس تحل عليه، هيا جود علينا بما جاد الله عليك.
- هههه لا ليس كذلك، لقد ربحنا بصفقة دسمة خمسمائة دولار، وها أنت جئت وخطفت منها مئة، هههههه هذه هي كل الحكاية.
- شكرا لك أخي، الله يزيدك.
- آمين..

دخلت أم محمد الصالة وفي يدها صينية الأكل تحوي صحون مليئة برز البرياني، فيما كانت قد جلبت سلطانية مرق الفاصولياء مقدما. كانت قد نست أن تخلع العِقد الذي ابتاعه لها زوجها عن جيدها قبل أن تشرع بصب الغداء، حينها لفتت منظرها أنتباه جاسم، فلم يكن قد رآها سابقا ترتدي قلادة ذهبية، وكان طبع الفضول يغلب طبعه، فلم يمنعه السكوت عن فض ما يجيش في داخله، فقال لها مبتسما:...

- الله يا أم محمد؛ هذا عقدك جميل جدا، في الظاهر أصبحتم أغنياء فجأة، عيني عليكم باردة، ألله يرزقكم عسى أن ترزقونا!
- بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ، قل أعوذ برب الفلق ومن شر ما خلق ومن شر حاسد أذا حسد...من أين!!!....يا حصرتي على أبو محمد، (الفقير فوق الجمل وعضه الكلب).

ردة فعل أم محمد كانت سريعة، دلالة على شدة الحسد.....ثم تداركت نفسها بلفتة سريعة حين أزفت الموضوع لعهدة زواجها حيث قالت له:....

- أتدري هذا هو عقد زواجنا، هو هدية عرسي لم أرتديه منذ زواجنا، فقلت مع نفسي دعني البسه ولو مرة قبل أن أعطيه لأخووك يبيعه، فأن العيشة أصبحت ضنكة، مرة، هميمه، يقولون قيمة الدينار هذه الأيام مرتفعة.
- أنا أكثر معرفة منه بالسوق، فعلا الدينار ارتفعت قيمته، هات العقد أبيعه لك!.
- هههههه ...وحين إذ أقبض من دبش .ههههه... (أي أن وقعت في يدك كأنها ضاعت). ثم علت الضحكة من قبل الجميع. ههههههههههه

بعد انتهاء الغداء غادر جاسم منزلهم شاكرا أخوه على مساعدته..

قال قاسم لزوجته.....

- يا رقية: عين أبو عصام باتت تلاحقنا، فأنه يتلصص أخبارنا، صار يسأل علينا من جاسم.
- لا تعير له أهمية ربك موجود وأعلم عين الحسود لا تسود، مهما ود أن يقتص منك فلن ينال غير الخيبة.

- ههههـــه...نــاس فاضــيه، شــاغله انفســها بالحســد، وأخــرى مشغولة بهموم الدنيا....
- هكـذا هــي الـدنيا؛ غريبــة الطبــاع، نــاس تــركض وراء نــاس دون يقين ودون أن تدرك غايتها..
- آه يــا جميلتــي، أنــت تخففــين عنــي مصــاعب الـدنيا، آه يــا حلوتي، آه شعلة...
- مَنْ شعلة هذه التي تتغزل بها؟؟؟
- أنتِ

كوني كما أنتِ
كما مرسومة في ذهني
كتقاسيم الخاطرة
حمامة تجوب مخيلتي
بيضاء كالثلج وهاجة
كلما نظرت إليك أبتسم
أبحث بين ثناياك عن شرر لجاجتي
كي لا أغادر رصيف عينيك وادراجه
أترين المصباح؟
من نورك قد توقد....
ربما حين تلمسيه نوره يتجدد..
ربما حين رآك بجانبي
ابتسم لنا وتودد
يا ترى..
هل أوقدتُ في ثناياك فتائل المعبد؟؟؟

- بـل ظفـرت كـل مفــاتني، جعلتــي أشــهق لاحتضــانك، آه كـم كلامـك جميـل، أنـت لـم توقـد الـروح فقـط، بـل جعلـت كـل كيـاني شعلة.

أرتمت في حضنه ثم قبلته من خده قبلة طويلة، ثم قالت له:..

- أنت كل حياتي........

عندما خرج جاسم من المنزل نمته أم محمد، قالت عقبه:...

- يا رب كم وضعت فروقا بينه و بين أخوه، أحدهم دمه أخف من الماء والآخر دمه أثقل من رغوة الطين. غليظ، دمث، لا أحبه...و الله لولا أن يكون أخوك لطردته من الباب، كأنكما لم تنزلا من ذات الرحم.
- يا امرأة؛ ألا ترينه قد عاقب نفسه بهذا الإهمال، أو عاقبه الزمن والظرف، لا بيت يأويه ولا زوجة تحويه وتحتمل عجرفته. لا عمل له ولا مشغلة تشغله، شخصية مهزوزة منبوذة من قبل الجميع، لا كرامة له ولا حلة تجله... أتريدين إزاء كل ذلك الغضب والظلم أن أزيده غضبا وظلما، إلا يكفي ما هو عليه؟ دعينا نترحم على الأقربين- قبل أن يترحم علينا الغرباء، عسى أن يذكرونا بالخير. دعينا من سيرته، دعينا نطوي صفحة الشؤم هذه.

عندها مال نحوها، طوّق خصرها بذراعيه، ضمّها إلى صدره، وطبع على خدها قبلة طويلة، ريانة بالحنين. احمرّت وجنتاها، واختنق الخجل في ملامحها كما يختنق الشاطئ بزبد البحر. ارتجف جسدها، وسرت رعشة في ساقيها، كأنّ حرارة الألفة اشتعلت في أوصالها. التمس نبضها، وسكب رغبته في كأس فتنتها، حتى طفح الشغف في عينيه، يتلألأ كوميضٍ لا يُكبح.

كانت هي القمة التي بلغها، ومنها بدأت الرعشة تصعد إلى منازل القلب والبدن. حياؤها رافق نزوة شوقٍ حميمة، ارتقت سلّم هواجسها وشعورها، حتى دلفت إلى ساحة الوضوء بالشوق، متهيئة لنزال العاطفة. تراخت، اندمجت، وصارت امتدادًا لشعور قاسم نحوها، فالتقت رهافتها برهافته على حدود الإعجاب والقبل.

أضـاءت وجنتاهـا بلآلـئ الحيـاء والمحبـة، وتهلـل الوجـد بينهمـا علـى صـفائح الـروح والجسـد. باتـت ترتـع فـي دائـرة الشـوق، وتوقـدت شـعلة الرغبـة، تبحـث عـن نجـاة مـن صـرامة اللهفـة. اجتاحهـا دفـقٌ يلـين فؤادهـا، ويطـري جلـد العشـرة، فانتفضـت سـنابل أنوثتهـا تحـت وقـع الرعشة، تتراقص سحرًا وألقًا أمام سيل ذكوريته المتأججة.

كـان قـد أوقـد شـعلة أنوثتهـا الحـادة، حتـى لامسـت لـواعج قلبـه، ولسـعت محبتــه بحرارتهــا. حينهــا، أســرّ لهــا بفــيض ســحره، وقــال وهــو يحتضنها بغنج وتعجب:"أأنتِ حلمٌ أم وهجٌ يسكنني؟"...

- أبعـد سـتة عشـرة سـنة مـن الـزواج، لازالـتِ تخجلـين منـي؟ الله مـا أجمـل خجلـك وحيائـك، فـي كـل مـرة أهجـس بـذاتي وكأنهـا في ليلة عرس جديدة، كأنك لم تتعودي على زوجنا.
- تربينــا علــى العفــة والحيــاء والخجــل، المــرأة دون حيــاء لا جمال فيها ولا بهجة ولا ضوء، ألم تقل لي ذلك.
- صدقت..

تأبطـت ذراعـه وهـيَّ مبتسـمة مستأنسـة بميلـه عليهـا، وكـأنَّ شـفاه الحـب شـفت عليهـا الأشـواق جـراء حـرارة الاشـتياق، وكـأن الصـمت سـلب منهمــا الحــديث تحــت وقــع نظــرات الاعجــاب، جــزل ذاك العنــاء وسَــخُط الظــرف أمــام رغبتهمــا الجامحــة فــي ذلــك الــتلاحم. تلــك اللحظـات مرقـت بـذلك العصـف بحنـان متـدفق، كـورت سـنين الفقـر السـليطة تحـت جمـرة الـود، كأنهـا بـذاتها كانـت عطشـة لغـرف كـأسٍ مـن زيـر المحبـة والحنـان لتعيـد لحيويتهـا ألقهـا بعـد أن تناسـتها بسـبب العنــاء، وبعــد أن ســقاها كــأس الأمــان والاطمئنــان بوجــود الكنــز لتتحدى به ظرف الزمن المجحف القادم.

لانــت علــى صــدره بابتســامة شــفافة، شــابها انكســار شــغل الفكــر، أرهـق الفـؤاد، نحـل الجسـد. كانـت قـد تراخـت بـين يديـه تمامـا وهـي

ترتعش كوردة توضئت بحرارة الشمس، أحاطها بذراعيه وهو يقبل خدا من نرجس وشفة من جلنار، استكانت إلى وهدة الصمت تماما، خلعت قفازات التحدي عن كفيها، والعفة عن جسدها الهيولي المذعن لسيف الرغبة الجامحة. ركبت معه مركب السفر والتجوال، سافرت معه لعمق الخيال، لعالم الجنون والهوس؛ حتى هجست بلهيب شمس الحب تصلي أحشائها بنور وجده، مثلما هجس بذات النور يشيح العتمة عن صدره، أتحدت التأملات، صعدتْ مع دخان الهيام لسماء الأهواء، هناك استكانت هواجسهما على قمة الصمت، امتدت لعالم السكون الذي أطبق على عالمهما.

ما أن نال أعجابها ونالت ثنائه، كأنَّ الزمن رجع بهما ليلة الزفاف، أستمر ينفض غبار عاطفته الجياشة في طريق الموكب حتى حجرتها، حواها بحضنه بشوق حتى كلت متنه، حتى شبعت غرائزها من ندى الشوق.

بعد أن قضيا وطرا من الحب والحنان والمتعة المدهونة بوغف شوق طارئ، بعد أن غسلا هموم الزمن بزلال الحب، تلك التي تراكمت على جثاميهما سخط الروتين والقلق، كللا شفاههما بمسحة من رغى الابتسام والفرح، حيث لامست أحاسيسهما سعادة أنية في ظل ظرف آني وخيم- حينها همست بآذنه في لفتة لم يتعود عليها، أو كأنه قد تناساها لقسوة حقب الزمن المتعاقبة عليهما حين قالت له:.....

- أحبك...... أحبك......
- الله... كم جميلة خرجت من فمك بعد هذه الجولة الممتعة، لم أتعود سماعها منك منذ زمن...

جعلها تبتسم وتردد مرة أخرى..

- أحبك

حينهـا احتضـنها بشـدة لتسـرقهما غفـوة عـن عـالم الوجـود، غفـوة لـم تطـول مـداها، كانـت قـد استسـلمت قواهمـا لسـلطان العبـث بعـد أن تراخت أجسادهما دون إرادة.

بعـد تلـك الجولـة المريحـة، اتفـق قاسـم وزوجتـه فـي مضـجعهما علـى درء الحسـد والغـل المتـربص فـي عيـون الجيـران والمعـارف، عبـر صـدقةٍ يتقربـان بهـا إلـى الله: ذبـح خـروفٍ يُـوزع لحمـه علـى الفقـراء والجيـران والأقـربين. وإذا مـا سُـئلوا عـن المناسـبة، يجيبـون: "إكرامًـا لوجـه الله الـذي أنقـذ أبـا محمد مـن تفجيـر الكـرادة، حيـث كـان يتجـول هناك الأسبوع الماضي."

وبالفعـل، اقتنيـا كبشًـا سـمينًا، عُـدّ قربانًـا لـدرء كـابوس الخطـر. رُبـط الكـبش بحبـل إلـى صـنبور الميـاه المثبـت بجـدار الحـوش، وظـل هنـاك أربعـة أيـام، بانتظـار صـبيحة الجمعـة القادمـة، يـوم مبـارك يتفـاءل بـه المسـلمون. كمـا اتفقـا علـى شـراء سـيارة ومنـزل فـي منطقـة بعيـدة عـن حـيهم، تجنبًـا للحسـد، وابتعـادًا عـن النفـوس المتبجحـة التـي تنـبش فـي قشور الأمور بحثًا عن تفسير السطور.

فمنـــذ أن حـــلّ الاحـــتلال، تفاقمـــت المشـــاكل وتعقّـــدت العلاقـــات بـــين النـاس، وارتفعـت أسـعار العقـارات بشـكل جنـوني. السـبب يعـود إلـى أن النظـام السـابق كـان قـد منـع شـراء العقـارات فـي بغـداد لغيـر مواليـدها، وفـق سـجل إحصـاء عـام 1957، حفاظًـا علـى التـوازن الـديمغرافي ومنعًـا لانفجـار سـكاني لا تحتملـه المدينـة، نظـرًا لازدحـام شوارعها وضيق أزقتها وضعف بنيتها التحتية.

بغـداد، المدينـة الأفقيـة التـي تمتـد علـى شـكل دائـرة بقطـر يزيـد عـن خمســين كيلــومترًا، تُعــدّ الأكبــر فــي الشــرق الأوســط مــن حيــث المسـاحة. وهـي العاصـمة التـي يتطلـع إليهـا العراقيـون، لمـا فيهـا مـن فرص عمل، وتنوع في الحياة، وتركيز الدولة على شؤونها.

لكن بعد الاحتلال، أُلغيت تلك القيود، وبدأ الزحف نحو بغداد كزحف الجراد على الحقول، من كل الأطياف والجهات. الكل أراد امتلاك عقار فيها، مما أدى إلى ارتفاع الأسعار بشكل جنوني، قبل أن تشتعل فتنة الطائفية بفترة وجيزة.

وفي حضرة زوجته، فكّر قاسم بالاستعانة بزوج أخته صفاء، لمساعدته في شراء بيت في منطقة الأعظمية، لما له من دراية بأهلها وأحيائها. لكن زوجته رفضت، حرصًا على السرية، وقالت له بحزم:....

- "لا أحد يجب أن يعرف، حتى أقرب الأقربين... فالحسد لا يرحم، والنية الطيبة لا تكفي وحدها."
- لا تفتح النار علينا، تفتح العيون علينا، دعنا نعيش بهدوء وسلام، أبتعد عن كل قريب من طرفي ومن طرفك، وعن المعارف وخاصة من الجيران، لا تكن ساذجا، لا تحتك بأي شخص من طائفتي أو من طائفتك، هؤلاء سيفسدون علينا فرحتنا، سيفسرون الأحداث على حسب أهوائهم ومن ثم يكيلون لنا التهم الباطلة جزافا، وربما يوقعوننا في مطبات نحن في غنى عنها. ألم تسمع بمقولة الأقارب عقارب.
- صدقت يا أم محمد، يكفينا دوخة الراس، غايات الناس لا تدرك، حتى لو كانوا من أشراف الناس وأكثرهم نظافة. المثل يقول ..."يا فهيم كن حليم". حيث السر إذا ما تجاوز ثلاثة اشخاص أنتشر كالنار في الهشيم. حينها لن يتركوننا بحالنا وقد يسلبوا منا راحتنا وحياتنا.

6

جاسم يصغر قاسم بعشر سنوات، كما أسلفنا. يعيش حالة من الإفلاس المدقع، تائهًا بين دروب الرزق، يبحث عن ذاته وسط شخصية مهزوزة، تتأرجح بين مطرقة الفاقة وسندان الحظ العاثر. لم يستطع يومًا أن يعدل ميزان حياته، ولم يجد لنفسه مكانة بين الناس تبجله أو تفرج عنه كربه. يبدو ككائن غريب، بلا أوراق تثبت وجوده، يدور في فلك التيه، لم تنصفه الظروف يومًا، فصار يتبعها بألم ونكهة حلم لا يتحقق.

تأملاته متلونة بلون ظرفه، غائرة في عتمة الغموض والرعونة، يجلده الزمن بلا رحمة. منذ أن وعى، لم يلمس شيئًا من الحظ يعينه، سوى أظافر تعاسة تخدش طبعه وتحك جلده الذي تخشب بين جدران الوحدة والعمل الشاق من أجل كفاف العيش. وضعته تلك الحال في خانة المنبوذين، المعقدين، المكروهين من العامة، فرسمت له صورة غامضة كظلال من الشك في ذهنه، وكهوة دهمة في عيون الآخرين.

يبدو بليدًا في نظر الجميع، أشبه بظل شجرة خريفية لا تظل أحدًا، لا يؤثر إلا على نفسه. ما إن يختنق بالفقر، حتى يتماهى قدره كشبح في بطون الغسق، يبحث عن ضالته هنا وهناك، عبر نصب أو احتيال أو سرقة أو تطاول. هذه الظروف القسرية أنبتت في داخله عقدة التعامل، وعقدة قبول الآخر. طباعه حادة كالسيف، هادئة طالما هو في غمده، وشرسة حين يُشهره. خشونة طبعه لا نفس فيها ولا روح، يجلد بها ذاته كما يجلد بها الآخرين.

حين يشتد به الغضب، تكاد عصافير أفكاره تهرب من أعشاشها، تعزف جعجعة العقد والقلق، خوفًا من غدٍ بغيض، ومن ليل طويل لا يدرك فجره. لم يستقر على هدف يصلح شأنه، ولم يواكب أقرانه

الذين سبقوه في تطلعاتهم الفكرية والمادية. فُصل من المدرسة صغيرًا، لكثرة غياباته ومشاكساته ومشاكله مع التلاميذ والإدارة. ومنذ ذلك اليوم، غدا لصيق الرصيف وربيب الشارع، كبر على زن الفاقة وسقاية الحسرة، حتى فقد بهجة الحياة.

غدت الأيام جرابيع تقرض تأملاته المغشاة بطلاء المستحيل، ذلك المستحيل الذي لا يتحقق إلا بفيض الجيب وسنم التعلم. صار للظرف سياط تجلده بين حين وآخر، تذيب صبره، وترميه في الطرقات كشرٍ عابث. لذا نزعت قاسم ثقته به، وكرهت هدى وجوده في حياتها. إنها لعنة الفقر وسوء السلوك والعجرفة والخشونة.

وفي الحقيقة، لم يكن ليختلف الأمر كثيرًا لو أكمل دراسته، فواقع الوطن الذي جنح نحو الحصار والحروب لا يرحم. حتى لو تخرج، ماذا كان سيكون؟ قصبًا أجوف بين أعواد الخيزران التي يمثلها رفاقه، أولئك الخريجون العاطلون عن العمل منذ أن توقف نبض الحياة في البلد. توقفت المشاريع، تقلصت الوظائف، هلكت الشركات، ثم تفتت في ديجور الحصار، وتلتها حرب احتلال وجور أكبر. أضحت الأجواء دخانًا من بغض وشك لف الجميع، وانتشر الخريجون كالدبيب في كل مكان، يجوبون الشوارع بحثًا عن فرصة ترفق بهم، تنتشلهم من واقعهم المر، وتمنحهم شيئًا من التقدير والكرامة..

لم ينجَ من مستنقع التهلكة، لم يفلح إلا من كان له سندا أو ظهر أو جدار قوي يستند عليه، سندا ماديا أو معنويا أو سياسيا، وتلك جميعا يفتقدها تماما. ثم كم سيصرف على نفسه حتى يصل مبتغاه؟ وهو حافي القدمين بين رفاقه، معتمدا في تكملة مشوار حياته على رفق الآخرين والمنظمات الإنسانية. من ذا الذي سيصرف عليه كل تلك

الأموال الطائلة؟ في ظرف تبخر منه الرزق والخير أمام شرر نار الزمن.

هكذا بقي كـ باب مغلق على ذاته، كسجل مسحت كلماته، معلق تأملاته بخيط واه من الحظ من خيوط العنكبوت، ما أن تهب عليه ريح الظرف؛ حتى يتهاوى في ديجور الزمن، ينقطع وصله وتنقطع صلته بعالمه الخارجي، ليس له مصدر رزق يرتكز عليه ولا معيل يعينه على تجاوز أزمته وهمه الذي كبر كورم سرطاني لا علاج له. حيث خلال حياته وبسبب سلوكه الخشن بات يتنقل من عمل لآخر دون أن يثبت على عمل يكور شخصيته ويزيل همه.

جاسم يعيش مع أمه في زنزانة صغيرة في حي الفضل، دارهم مكونة من غرفة وصالة صغيرة، كانت فيما سبق ممر ضيق بين فرعين، سُقف كيفما شاء الظرف وأتفق أن يوضع له بابا وشباكا ليستر هؤلاء الفقراء المساكين من التشرد. يكاد السقف يسقط على رؤوسهم إذا ما تعرض لأي تهديد عصف ما أو لزخات المطر، لما يتخلل ذلك السقف من ثقوب نخرت صفائحه مطارق الزمن.

لذا تجدها في موسم الشتاء تنز عليهم كمزاريب سخط وغضب لكثرتها، سقف لا يسترهم من البرد، لقدم المساند الخشبية الموضوعة تحت السقف من مساطر وجسور ترتكز عليها حصران بالية مفروشة تحت طبقة من التراب، لقدمها ولفقر الحال وعدم أمكانية تجديدها سنويا، بقيت تلك الحسران تنثر عليهم غبرة اللعنة في الصيف وسخط المطر في الشتاء....

لم يعد ذلك السقف البالي يحتمل ثقل الزمن والأتربة المفروشة فوقه وتلك الحصران متهتكة وتلك الصفائح صدئة، تهجس بالسقف يبدو كجسد تختنق به أورام خبيثة منتفخة هنا وهناك لثقل الأتربة ورخاوة قوام مسانده..

البيت خرب منزو في زقاق مزري، تكثر فيه المزابل والحفر والسواقي الآسنة والأوبئة لقدم الحي في بغداد. أزقة طرقها غير معبدة، مشلولة بعبق نتن المجاري والسواقي الطافحة العريضة التي تعصف بالأنوف قرفها، نتيجة تدفق مياه المجاري فيها باستمرار، لعدم تسليك فتحاتها، وإهمال البلدية للمنطقة، ولاستحالة ترميمها وتعميرها وتنظيفها، إلا بإزالتها تماما.

قست عليه الظروف، طاردته الفاقة مثلما طارده النحس وقلة الحظ، لم يرتق يوما لدرجة القبول والاحترام كأقرانه، أصبح طريد الفشل والانكسارات بعد كل عمل يجرب حظه به، تلك الحالة جعلت من شخصيته المغيبة عودا ناشفا، يابسا، جلدا، مؤذيا كصبار أجرد، لا أحدا يدنو منه أو يصاحبه. أكتسب طباعه من قساوة الظرف فأصبحت الحالة هلامية قفرة تعبر عن شخصيته.

خلال عمله كان يتسلى بتفعيل المشاكل، سلوكه الخشن جرده من هدوئه، بلحظة غفلة يتحول لرجل موتور، يتجلى بالسخف والقبح والمخاشنة مع أي زبون يصادفه، لذا تلك الاساليب جرته إلى أن يفض غله في أكواب الزبائن دون طائل، مما يخلق توترا في تعاملاته مع المقابل جعل الجميع يشكيه...

عندما عمل نادلا في أحدى المطعم، ضرب زبونا بالصحن كاد أن يشج راسه، لمجرد اعترض على نوعية الأكل الذي قدمه له، وعلى أثر ذلك طرد من العمل وأودع السجن مدة أسبوع من الزمن.

في محاولة أخرى سرق من خزنة متجر مبلغا ثقيلا، بعد أن رفق به أحد التجار وأودع ثقته به كأمين على دكانه، كان يخلف صاحب العمل حين يكون الأول مشغولا بصفقة تجارية لجلب بضاعة أو تصدير بضاعة. وبذلك قطع رزقه بيديه، لم ينفع إنكاره عملية

السرقة أمام تحقيق الشرطة حيث شهدت عليه الكامرة التي اصطادته ولم يكن منتبها عليها، هكذا دوليك كان يقطع خيط الوصل بالعالم من حوله بسلوكه الارعن.

لم يجد من يحتضنه ويأويه سوى فوضى سوق الشورجة المزدحم، حيث تضيع عيوبه وتختفي تحت فوضى الزحمة وكثرة طلبات العمل والاستعانة به، على الرغم من قلة المردود بسبب مئات المتنافسين ممن هم على شاكلته، وممن دفعهم العوز إلى العمل بسوق الشورجة ليجدو فيه متكأ ومرتعا لمبتغاهم. إذا ما علمنا بأن الشروجة هو أكبر سوق تجاري في العراق لبيع الجملة لكافة المواد.

العمل في الشورجة أكسبه قوة عضلية نتيجة حمله البضائع ودفعه العربات الثقيلة من متجر لأخر، أو نقل البضائع لمرائب العجلات القريبة، ليتم نقلها خارج بغداد، إضافة لذلك نمت قدراته على تحمل قسوة الطقس خلال الصيف والشتاء، حيث الحرارة تتجاوز معدلاتها صيفا الـ 50 درجة مئوية، فيما تصل معدلات درجاتها لتحت الصفر في موسم الشتاءً.

صفة القسوة التي أتصف بها ولدت نتيجة تداخل العقد أمام قلة فرص الرزق، فمعظم التجار يعزفون عن التعامل معه، ألا في حالة تفرده في المنطقة، حينها ينطبق عليه المثل القائل (من قلة الخيل شدوا على الكلاب سروج).

طبعه البليد جعل الامور تتعقد في ذاته شخصيا، حيث وصل به الحد أن لم يجد من يخاصمه فأنه يخاصم نفسه، كأنه يتعرض لهبات من الغضب الفيروزي فينزوي داخل نفسه، يتجهم وجهه بطبق من الكآبة وبلون حزين دميم، ينطوي على نفسه فيعزلها عن محيطه وينشغل تفكيره بذاته وبضعف الحال وقلة المادة، ذلك أصبح طبع

من طبائعه. هذا السلوك غرز في داخله صفة الاستعجال والأنانية والبجاجة وقلة الذوق، وعدم التسامح، إضافة لانعدام ثقته بنفسه وبالآخرين ممن حوله من البشر.

خلال عمله كانت مشاعره تحثه على مشاكسة بعض النسوة أو التحرش بهن، حيث الغريزة لا يمكن السيطرة عليها وهو قرابة الثلاثين من العمر دون أن يدخل تجارب عاطفية تلين طبعه. أحدى المرات وجد ضالته مع امرأة أربعينية، صار يتبعها ويمازحها حتى قرفت سلوكه حينها هددته بصرامة:..

- ألا تخجل من ذاتك وأنت بهذا الجسد الرتم، ابتعد عني أو أخبر عليك زوجي الذي ينتظرني في عجلته....

تلك الوقفة جعلته ينسحب من حرشة الشارع ليتجه لدور المباغي والملاهي، متبعا الغريزة الجنسية التي طفحت في نفسه كدهون وجهه، حيث هناك من تعمل بهذا الكار مقابل أجر تتقاضاه بعيدا عن الشد والنت والمجانة، انسحب تجنبا للفضيحة التي لا تهمه قدر خوفه أن يستدعى لمراكز الشرطة بعد أن أخذ عليه تعهدا فيما سبق بعدم تكرار فعلته. كان قبلها قد القي القبض عليه متلبسا مع أحدى الفتيات بعد أن رام التحرش بها، كان قد تبعها في أفرع محلة الصدرية، عندها تجمع عليه لفيف من شباب المنطقة بعد أن استنجدت بهم الفتاة، كالوه ضربا بعد أن القوا القبض عليه، كبلوه، ثم استدعوا شرطة النجدة لتقيده، على أثرها سجن مدة أسبع ثم أفرج عنه بكفالة أخوه قاسم..

كان يأبى ملامة أخيه بسبب تكرار مغامراته، لذا هم بالصمت منزويا بين زحمة الناس والتي تختفي خلفها كل العقد بلحظة. أنزوى بين أفرع الشورجة المتداخلة بعيدا عن أنظارها..

صار يلوم نفسه على ضعفها وضعف تجاربه وهيافة قلبه.... الفاقة جعلته يركض خلف الرزق حتى نسي عواطفه، خلال تلك الفترة المظلمة من حياته كان يتنقل بين الأعمال لجلب عِلّاقة البيت معيلا نفسه ووالدته الشمطاء، وبالذات في فترة الحصار التي دامت ثلاثة عشرة سنة من الضعف والقحط، فترة نخرت اجساد العراقيين وأمخاخهم. لذا لم يجد الوقت الكافي ليشغل نفسه في أمور قلبه إلا بما تحن عليه الصدف، ثم أنه كان يدرك قدر وقيمة ذاته، يا ترى؛ من تفكر أن ترتبط بحمال أجير وأن كان شابا وذو حيوية، إلا إذا كانت شمطاء وعجوز.

تلك المغامرات العاطفية التي من خلالها ود أن يروض غريزته بها كان قد مر بها مرور الكرام، فلم تلبي غاياته وطموحاته. كانت فعليا تفتقر إلى مبدأ العلاقة الحقيقية والنضوج العملي، خنقت أهوائه لذة الجنس التي افتقرها وخياله الذي غص في نعومة جسد وأنوثة امرأة وطراوة لسان وفكر امرأة...

بعد أن أهلكه عمله خرج من شرنقة البحث عن الرزق لمجال العبث والصياعة، آلت الصدفة أن يزور أخوه عندما يكون قريبا من بيته أو بيت أخته هدى مستغلا الفرص المتاحة ليطعم نفسه بأكلة دسمة يملي بها جوف بطنه، حيث أنه يعلم تجبب الناس منه حتى ولو كانوا أخوته، أنه يدرك ذاته ثقيل دم إذا ما أَمَّ أي محفل.

وبعد أن ملأ جوفه وجيبه في بيت أخيه، خرج يطارد الشوارع مرتديا بنطلون جينز قديم، وفي قدميه ينتعل مداس من صندل يشحط به الأرصفة والطرقات. تعود على السهر والتجوال، حيث أنه نادرا ما يعود للبيت مبكرا، تاركا أمه العجوز عاجزة في إدارة ذاتها، يسومها قلق من أمره وأمر الوحدة اللعينة في الدار..

كأنـه تخلـى عـن ذاتـه، نـزع أمـر اهتمامـه بنفسـه، فـلا يهـتم لمصـيره، تركهـا فـي تلـك المعمعـة بحيـث كيـف مـا تكـون يكـون. التجـارب لقنتـه الـدروس، فـتعلم كيـف ينفلـت مـن قبضـة العُقـد وحـزم الشـرطة وتركـات الـزمن، دائمـا مـا يجـد الحلـول الآنيـة العاجلـة أمـام عينيـه إذا مـا تـورط بعقـدة مـا... أحـدى المـرات القـت القـبض عليـه الشـرطة فـي دور المباغي التي يرتادها، حينها قال له ضابط الشرطة:.....

- لمَ أنت هنا؟ ألا تهاب السجن؟

- علـى مهلـك يـا سـيدي، أنـا مجـرد حمـال أجيـر، كلفـت بجلـب المشـروبات للـدار وكمـا تـرى الصـندوق أمـام عينيـك، اصـحاب المبـاغي يربحـون الكثيـر وكـذلك يـدفعون الكثيـر، وأنـا شـحيح غـارق فـي الفقـر، خـال الجيـب، وأنـت تـدرك حـال الكسـير، لـم لا أعمـل معهـم. ثم أنا لو كانت لي القدرة على الزواج ما تأخرت.

حينهـا عطـف عليـه وأخـلا سـيبيله بعـد أن أخـذ عليـه تعهـدا بعـدم تكـرار الفعـل. حيـث كانـت الدولـة تلاحـق البغـاة ودور العهـر المنتشـرة سـرا بـين الأحيـاء العامـة العفيفـة. لـذا تجـده لا يكـف ذاتـه عـن متابعـة الفـرص وعمليات النصب التي يجريها احيانا في سوق الشورجة...

.. لـذا تجـده متعـود علـى العقـد، لا يـأبى مخـاطر الطـرق ولا هـول المفاجئـات، يشـعر بذاتـه منصـاعة لهوسـه بحيـث نـادرا مـا يخالفهـا، لا يخـاف شـيء يخسـره لأنـه لا يملـك أشـياء ثمينـة مـن الاسـاس، لـذا تجـده يخـاطر بذاتـه فـي دروب الضـياع؛ كمسـطول هـائم يبحـث عـن نفسـه فـي مشـاوير قـدرها بـين بـراثن الطـرق والبـارات. أنـه أشـبه بـالكلاب السـائبة التـي تبحـث فـي الـدروب عـن عظمـة تلهـي نفسـها بهـا، تهجـس بـه لـه القـدرة علـى شـم رائحـة المخـاطر عـن بعـد، للخبـرة التـي استقاها من الشارع.

تعود أن يلتقي برفيقيه (جعفر و رشيد) الحمالين اللذين لا يختلفان عنه إطلاقا إلا من ناحية الشكل وقوام الجسد. هم رفقاء درب في المحفل والعمل والصياعه، رفقاء تجمعهم بذات الصفات والسلوك والخُلق والعبث، لا يختلفان عنه في القيمة والقدر، فهما مثله تماما دون جذور وأصول، لا عوائل تأويهم ولا زوجات تحويهم. تعرفا على بعضهم البعض في سوق الشورجة، تقوت الصلة والصحبة بينهما، صار يرافقهما لدور البغاة والعهر متى ما لانت الرغبة وتوافقت الاهواء، حيث دائما الطيور على أشكالها تقع.

لذا أنه وجد بهما ضالته ووجدوا به ضالتهم، تجمعهم أزقة الدعارة وهوس الليل في حدائق بغداد، يبحثون عن مبتغاهم وغاياتهم وشخصياتهم المسترخات خلف اللذة في دور العهر تحت أجنحة الليل والسكون والخمرة. لذا حين يجد نفسه معزولا في وحدته مقيدا بالهموم، يتدارك ذاته في البحث عنهما، حيث يجد راحة ورتع بين جنوح النفس وشطط الرغبات لنسيان عناء الزمن... لذا حين ترك دار أخوه وجد دافعا يحثه على البحث عن صديقيه قبل أن تغرب الشمس، أتجه لاحتمالية تواجدهما في الاماكن المتعارف عليها، وهو يدرك بأنّ احدهم كالكلب لن يجرؤ مغادرة مكانه، لذا صار يبحث عنهما لقضاء ليلة مسلية بعد أن عبء جيبه بما رزقه أخوه.

الفصل الثلث

1

خلال تواتر الأحداث وانفلات الأمن وتدهور حالة الوطن؛ كانت قد كثرت العقد وتجذرت المشاكل بين الشعب والمحتل، العبء الذي جاء به المحتل عبء ثقيل، كأنَّه جاء يغتصب الشعب نكاية بالنظام السابق، فجعل حجة اسقاط النظام عربون احتلال الوطن..

هكذا وجد الشعب بذاته في ورطة، تُركوا دون معين، قطعوا مسافات الحروب الطويلة والعقد المتجذرة دون نتيجة، أضحى الميدان مستنقع آسن لن يفلت منه أحد، بات يترنح في معمعة العقد الجديدة دون أن يلتفت عليهم أحدا، لا تعينه وضعه العام ولا ترفق به منظمة أو هيئة أمم أو دولة من الدول بما تسمى بالعظمى...

سقط الوطن كسقوط تمثال الرئيس، تهشم في مكانه، كل جزء منه صار يمثل طائفة أو قومية أو حزبا ما وهكذا دواليك... سقط سقوطا مدويا، عقص صبر الشعب، تقلصت فرص الحياة، بل تبخرت الحياة عن أصلها في معظم مناطق الوطن التي اضحت ساخنة... ذلك ما جعل الوضع ينكمش على نفسه، تعقدت وتأزمت أمور الناس، تيقنوا بأنه لا انبلاج واضح في الأفق تحت غمامة المحتل الذي شجع على تفعيل الأزمات وسنّ الفوضى وتهييجها. لا فسحة أمل تعيد الوضع لسابق عهده، دب يأس بين عامة الناس من أن يعود التوازن إلى ما كان عليه. حيث الطفل شب على جرع الألم والشيخ مات من شدة الألم، والآخرون أضحوا سكارى من لسعة الألم، ليست لديهم حلول ناجعة، طالما قبضة الحكم بأيدي محتل ولصوص ومجرمين.

من جهة أخرى شدت المقاومة من وتيرها، تلك التي ابتدأت بفصيل أصبحت تملك فصائل ووحدات، رغم أنها كانت في بداياتها في وضع مهلهل غير مبرمج. غير منتظم، تحركاتها عشوائية، جراء

أخطـاء النظـام السـابق العديـدة فـي عـدم تهيئتهـا علـى أصـولها مسـبقا... لـم تـنعم بالـدلال قبـل الاحـتلال، لتشـكل قـوة حقيقيـة تواجـه المحتـل. لـم تــوزع الأســلحة علــى النــاس، لــم تــدرب الشــباب علــى المواجهــة، اختصــرت المقاومــة علــى طائفــة، ابتــدأت عشــوائية علــى ســجيتها، مســتندة علــى دوافعهــا الوطنيــة وحــب الــذات والــدين الــذي فــرض الجهاد ضد المحتل.

ربمـا الـرئيس لـم يتوقـع بـأن العـدو سـيجتاح العـراق وسيسـعى لأسـقاط نظامــه، أو لــم يســعفه تفكيــره اتخــاذ القــرار المناســب بعــد أن تلقــى الصــدمة الأولــى علــى حــين غفلــة مــن أمــره، علــى الــرغم مــن أن الأحــداث كانــت متــواترة، متسلســلة، لــم تكــن مفاجئــة لأحــد، اجتيــاح المحتــل حــدود الــوطن، قلــب مــوازين العقــل والقــوة، شــاركته دول تــبغض العــراق ودول وجــدت فــي إزاحــة العــراق بــروز نجمهــا الآفــل، هكذا كل بحث عن مصلحته نال قسطا من الشعب.

حيـث كـان العـدو قـد أجتـاح العـراق داخليـا بفـرض الحصـار عليـه قبـل أن يجتاحـه واقعيـا بزحـف قواتـه علـى حـدوده علـى أثـر اجتيـاح العـراق للكويـت عـام 1990... ***فيمـا سـبق كانـت بريطانيـا قـد عزلـت مدينـة الكويـت عـن العـراق لتجعلهـا محميـة بريطانيـة، ومـن ثـم اسـتقطبت آل صـباح مـن الحجـاز 1925 ليكونـوا حكامـا عليهـا. خـلال سـيطرة بريطانيـا علـى العـراق أبـان الحكـم الملكـي توسـعت الكويـت علـى حسـاب مسـاحة العـراق كمـا توسـعت أبـان حـرب العـراق مـع إيـران مستغلة انشـغاله فـي حربـه لتسيطر علـى آبار نفـط الرميلـة العراقيـة، لعـدم وجـود حـدود حقيقيـة مرسـومة بـين البلـدين.. لـذا كـان اجتيـاز العـراق للكويـت لـه دلائـل، ولـن ينتهـي هـذا الصـراع حتـى تعـود اراضي العراق للعراق كاملة.***

بـدخول المحتـل أرض الـوطن، اختفـى رجـالات الشـرطة والأمـن مـن السـاحة، جـراء التهديـد المباشـر الـذي تعرضـوا لـه بشـكل مباشـر مـن

قبل المحتل وأعوانه. تلك المؤسسات أطرقتها فوضى الأحزاب المعارضة والجديدة منها والمليشيا المستحدثة التي دخلت ساحة النزاع بعنجهية وبإسناد من أجنداتها. كانت قد حددت لها مهام وغايات مقدما، لتُسهل سيطرة المحتل على البلد مثلما تُسهل لذاتها السيطرة على مقاليد الحكم، لذا فرضت ذاتها بالتنسيق مع المحتل على عاتق الشعب.

تلك الميلشيا تمكنت من خلخلة الاوضاع الداخلية بتكثيف هجماتها على مراكز الشرطة والنقاط العسكرية إلى جانب المحتل، لغرض سرقة الأسلحة من جهة ونيل عاطفة المحتل من جهة أخرى. كما لاحقت الضباط وأصحاب الشهادات والعلماء والأطباء والشخصيات البارزة التي تعيش في الداخل لتجريدها من دورها وقواها، وللانتقام منها كي لا يكون لها دور تسوية على المدى القريب.

تلك الفترة اعتبرت فترة مظلمة، قسرية، سوداء، عصيبة، ابتدأت منها شرارة الفوضى، صار الشخص لا يعرف حقيقة عدوه من صديقه، تعددت وجوه العدو بأشكال مختلفة، صار الظن والشك يتحكمان بهواجس الناس دون استثناء.

خلال تلك الفترة اشتدت المقاومة وباتت تأخذ زمام الأمور على عاتقها، وعلى غرار القاعدة - قاوم تسلم - فأنظم تحت لوائها عددا كبيرا من الضباط وأمراء الجيش وضباط الشرطة الذين تم تسريحهم أو الذين أعفوا من مناصبهم بقرار الحاكم الامريكي برايمر. انضموا للمقاومة لدرء المحتل وإذلاله، خاصة بعد القرار الخاطئ في حل الجيش مثلما سيّبت الشرطة دون مركزية.. وكان من ضمن تلك الكوكبة المعفية من الخدمة السيد صفاء زوج هدى شقيقة قاسم..

صفاء لم يجد سبيلا للعيش بعد **قرار بريمر** بحل الجيش دون أن ينال حقوقه التقاعدية. حينها أضحى خال الوفاض من كل ثنية تحفظ له كرامته، لم يجد تحت يديه شيء ما يستعين به على جلد الظرف، عاش في تيه من أمره دون انتماء حقيقي للوطن، دون مصدر رزق يعينه وعائلته على الصمود بوجه عاصفة التغيير المهتاجة، المتقلبة.

كما برز نشاط الصدريين بشكل محدود ضد المحتل للعشوائية التي ابتدأوا بها كونهم حديثي النشأة وضعيفي التنظيم..... هذا ما كان واضحا للأعلام في تلك الفترة، وقد تمكنوا من التأثير بالمجتمع بشكل عام ونالوا كسبا شعبيا بين الطائفة الشيعية، كون الاحزاب المستحدثة وجدت في المعمعة مرتعا لأثبات الذات واستغلال الفطرة التي يعيش بها الشعب المسكين على حساب المصلحة العامة.. هكذا تمددت تلك القوى بين الطوائف فأججت الطائفية، وهذا ما حث عليه المحتل لزرع الفتنة الطائفية فيما بعد، لكون المقاومة السنية خنقت المحتل في مناطقها..

كانت الناس بشكل عام ماضية على سجيتها وسذاجتها ونظافتها وبساطتها، فلم تعتنق صفة الطائفية كمذهب متزمت يقحم في إدارة الدولة، ولم تتمسك بصفة الكراهية تجاه الطرف الآخر كمبدأ ومنهج لتحقيق أهداف خاصة تخص مذهب معين تنكيلا بالمذاهب الأخرى، إلا بعد أن فرض المحتل ذاته على الشعب.

ومن خلال الجعجعة الإعلامية المدوية من قبل الإعلام الخارجي والدولة المهزوزة، والإصرار على بث إشاعة الفوضى العارمة بعد غياب تام للسلطة؛ بدأت تتحرك المقاومة وأشباه المقاومة ضد المحتل بشكل عشوائي واستفزازي، كان ذلك بالتحدي والبهرجة والاستعراض بحمل السلاح والتهديد العلني، وأن كان كل ذلك لا يعد بالمستوى الحقيقي لمعنى المقاومة إلا ما ندر، كان الفعل غيض

مـن فـيض مــا انتهـت إليــه المقاومـــة لزعزعـــة معنويـــات المحتـــل فـــي سيطرته على العراق.

وفعلا تمكنت من إدخال الرعب في قلب الغاصب، ذلك ما أدى إلى دخول قوات المارينز الأمريكية إلى مدينة الأعظمية والثورة تتعقب المقاومين المجهولين وتلاحق عناصر جيش المهدي المستحدث، لإسكات اصواتها وبسط سيطرتها على الشارع وتحييدها تحركاتهم...

وبالفعل تمكنت من أقماع تلك البادرة بعد أن عاثت قوات المارينز قتلا وتدميرا لبيوتات آمنة دون تمييز، اعتقلت من اعتقلت وقتلت من قتلت من الشيب والشباب في أول واقعة حقيقية لقوات المارينز ضد التنظيمات الشعبية، ومثلما بترت وعنفت في مدينة الأعظمية السنية قست بذات القوة في مدينة الثورة الشيعية.

وعلى أثر تلك الواقعة تم تغيير أسم مدينة الثورة إلى مدينة الصدر، إكراما للعلامة المرجع الشيعي السابق السيد محمد الصدر، والتي اغتالته قوة مجهولة لغاية في نفس يعقوب.

وكان من ضمن ضحايا الأمريكان في مدينة الصدر الشاب حسن أبن الحادي والعشرين من العمر، وهو أخ رقية زوجة قاسم - وقد حل الخبر عليهم بطواف الحزن وسيل الشجن والشدة، مقتله تخطى خطط أفكارهم التي أعدوا لها أنفسهم لتغيير واقعهم المزري، الحادث أدى إلى تجميد مشاريع قاسم الذهنية والعملية تماما، حيث أنشغل خلال تلك الفترة في تأبين المأتم وارتداء ثوب الحزن مراعاة لمشاعر زوجته وأهل زوجته. الحدث المفاجئ أعاق مخططاته، قيدته، أستمرت الحالة مدة أربعين يوم من العزاء والعناء، لحقها فترة شهرين من الجمود والتنكيل الذاتي.

كان وقع الخبر المشؤوم على قاسم وزوجته كالصاعقة، نزل على رأسيهما ففلج منابع الفرح، وأغلق صنابير السرور في بيتٍ كان يتهيأ للاحتفاء بالحياة. جاءت الصدمة من واقع مرير، قلبت موازين الفكر والتخطيط، وخلخلت ركائز المواجهة في ظل الأزمة التي تعصف بالبلاد. زلزلت الأوضاع النفسية والفكرية، وقلبت المشهد رأسًا على عقب. تحول الحلم البهيج إلى رجاء أملس، ثم إلى حزن كظيم، خشن، يجرّهما إلى دوامة من الأسى. تساقطت أقنعة الصبر والأمان عن الوجوه، وتحطم الجدار الزجاجي الذي يفصل بين اليأس والأنَاة. زادت كآبة الظرف كآبة، وتحوّل الحال إلى شظايا تشرخ الأحلام، كأنها شفرات تمزق نسيج المشاعر المرتبكة.

ذلك الخبر المعلقم أجّل مخططاتهما إلى أجل غير مسمى، وأثقل رؤوسهما بالحيرة، وشرخ حصافة الفكر بعناءٍ لا يُطاق. جرف نياتهما وأهواءهما إلى هوة من الشتات والحيرة والعذاب. أمام المشهد الجسيم، صغرا، ولم يستطيعا تجاوز حدود الموقف أو التماطل في مواجهته، ولا حتى المناكفة العمياء.

حسن، الأخ الأصغر لرقية، انضم إلى قافلة الصدريين قبل شهر من ذلك التاريخ، وذهب ضحية للعنف السافر الذي مارسته القوات الأمريكية ضد شعبٍ أعزل، يبحث عن هويته المغيبة في عين الغاصب، ويطالب بحقه في حياة كريمة.

بمقتل حسن، كأن غيوم الشؤم تراكمت فوق رأسيهما. كان مقتله أول نذير شؤم ينهال على رقية وقاسم، فتبدل وشاح الفرح الأبيض إلى سواد قاتم، وانقلب الفرح إلى ترح. باتا كأنهما أسيرين تحت نظرات القدر القاسية، وانحنى التفاؤل بالمستقبل نحو اكتئاب داكن، مغبر، وتيهٍ عائم في مدار المحتل البغيض. تحوّل الحلم إلى هاجس خوف واستياء، ورعب من القادم، وأوجمت حياتهما بالمفاجآت غير المتوقعة.

تمت مراسم الدفن والتأبين بمشاركة لفيف من الأقرباء والجيران والعامة، وأخذ الحزن يشق زيق الفرح في بيت أبي محمد. كأن الكعكة المسمومة التي جلبها المحتل يجب أن يتذوقها كل بيت عراقي. كأنها قسمة أُعدّت مسبقًا، لا تفرّق بين سني وشيعي ومسيحي وصابئي ويزيدي وآثوري، فالمهم بقاء السيطرة وتشجيع العمالة، وهذا ما يرضي الأمريكان ويطيب خاطرهم.

أما يونس، فعندما علم بحاجة المحتلين إلى مترجمين، تقدم بطلب المعاونة رغم أنه لا يفقه من الإنجليزية إلا القليل، ورغم انتمائه للطائفة السنية التي تبغض وجودهم. لكنه، كشابٍ محاصر، لم يجد وسيلة لإنقاذ نفسه إلا بالانضمام إليهم. التفّ الوضع السيئ على عنقه، وكبّله بالمشقة، فدفعه للتنازل عن كرامته مقابل النجاة من فقرٍ خانق. هكذا انخرط في سلك الخيانة، سعيًا لتحسين وضعه المادي الذي تدهور بفعل الحصار الجائر.

خلال انشغال قاسم بفاتحة حسن، ونتيجة للصدمة التي ألمّت به، تركوا البيت جميعًا بعد أن أحكموا إغلاق أبوابه الداخلية والخارجية. فالموقف مأساوي وأخلاقي، لا يحتمل التأخر أو التريث أو التنحي عن حضور الجنازة والمأتم. فالإنسان، أمام الكوارث والمواقف الحرجة، ينسى نفسه، ينسى وضعه، خاصة إذا ما فقد عزيزًا...

انشغلوا بإعداد المأتم والمشاركة به من الساعة التاسعة صباحا وحتى فترة المساء؛ ليعود محمد وأبوه يتفقدوا البيت بعد الساعة السابعة مساءً، أستمر ديدنهم على هذا المنوال لمدة ثلاثة أيام وهي فترة العزاء الرسمية، فيما يستمر الحزن داخليا بين أفراد عائلة المجني عليه مدة أربعين يوم، تكون فيها البيوتات مفتوحة لاستقبال المعزّين الذين تأخروا لسبب ما في تقديم واجب العزاء.

خلال تلك الفترة أستغل عادل بن الجار بن أبو عادل فرصة غيابهم ليثب من سطح دارهم لسطح دار قاسم، لينزل عبر السلم الحجري لحوش البيت حيث جنحت نفسه لسرقة المنزل. كان قد علم بمصابهم وانشغالهم بمقتل حسن أخ رقية من قبل محمد الذي يقاربه في السن. حينها فكر بأن يستغل الفرصة ليسرق ما تطاله يده...

عندما وجد ذاته في الحوش؛ أجتهد أمام أسهل الفرص وأثمنها التي برزت مام ناظره، شغف بسرقة الخروف المربوط بأنبوب الحنفية. فك عقدة الشناطة، تمكن من رفع مزلاج قفل الباب الخارجي عن موضعه في الأرض وبالتالي تمكن من فتح الباب على مصراعيه، ليتمكن من سحب الخروف خارج البيت دون أن ينتبه أحد من المارة عليه، بعد أن وجد ذاته والخروف خارج المنزل؛ رد الباب برفق ليعود إلى وضعه السابق مغلق كما كان. أعاد كل شيء لوضعه الأول وكأنَّ شيئا لم يكن.

وخلال عودة قاسم وأبنه محمد في المساء اليوم الثالث من العزاء اكتشفوا اختفاء الخروف من المنزل، العملية أصابت أبو محمد خيفة من سرقة النقود، أسرع بفتح غرفة النوم، أطمأن على سلامة النقود، لا زال الأمر سرا لا يعلم به سواه وأم محمد، فلو علم بخبر الدولارات شخص ثالث لكان قد سرق البيت بمحتواه وجدرانه.

اتجهت شكوكهم إلى الجار أبو عادل أو إلى أبنه، فلا أحد يجرء أن يتطاول على دارهم دون أن يمر عبر سطح دار أبو عادل، للتماس الحاصل بين سطحي البيتين. لكن لا دليل لديه يثبت التهمة عليه، كما أن مسألة الاتهام صار لها أشواك تغز الشاكي، صار لها معنى أكبر في عرف الظرف الشائك الجديد والفوضى العارمة الدائرة في البلد، صار الكل يتخوف من الإشارة إلى المتهم بشكل مباشر، خوفا من تبعية الموقف أن ينعكس عليهم.

حينها ذهب قاسم يستفسر من جاره فاضل (أبو عادل)، أبو عادل رجل جعسوس، أخبره بعدم علمه بمصير الخروف، أما عن عادل فأنه دائما ما يكون برفقته في ورشة العمل إلى جانبه، فالورشة تحتاج لإدارتها أكثر من يد واحدة.

بث خبر سرقة الخروف في المحلة، الكل أعرض تأسفه وعدم رضاه عن العمل الجبان الذي لحق بهم، ولكن الشكوك كلها أنصبت على بيت أبو عادل، فلا أحد يتجرأ دخول المنزل إلا عن طريق سطح داره. الجميع أيقن بأن السارق خطط لفعله قبل أن يسرق.... كان أبو عادل قد نقل الخروف خارج حدود المنطقة ليتصرف به بحرية، حيث تم جزّه أو بيعه لأحد الجزارين.

والحقيقة المرة الواضحة لقاسم هو أشتراك عادل وأبوه في عملية السرقة، حيث عادل من سرق، وأبوه من تصرف بالخروف. وكان دليلهم بأن باب الدار لا يمكن فتحه من الخارج، أما من الداخل فيمكن أن يرفع مزلاجه التحكم عن الأرض وبالتالي يسهل فتحه. كما تبين فيما بعد بانتماء أبو عادل لأحد الفصائل المستجدة من الميليشيات التي امتدت يدها على الكثير من مراكز الدولة ودور البسطاء من القانطين في بغداد.

الظرف قيد قاسم، فلا يستطيع أن يكيل له التهمة جزافا أو لكائن ما وأن كان شكه في محله أو تيقنه من ذلك، حتى وأن تيقن من السارق، فالوضع له انعكاسات لن تُحتمل. تغير كل شيء، انعكست الحقيقة تماما، فلون السواد شظَّ سواده والبياض تجرد عن بياضه، الفكرة غدت سامه في موضعها. الوضع الجديد أصبح مقنع، ولن يسمح بتاتا طرح فكرة الاتهام جزافا ضد الغير. التهمة تعني أنك تزرع بذرة حقد وعداء في قلوب الآخرين، في زمن تمزقت به الشرائع والقوانين، تعرت العدالة أمام التهم بعد أن تهلهلت مراكز الشرطة وشتت عناصرها في جوف الغاب.

صار البلد يطفوا على مستنقع من الفوضى، ربما تتطور المسالة وتتشعب لجزئيات أكبر لا تحتمل، قد تتحول لغدر وانتقام، فمن يستند على جدار من الورق لن يتمكن من أن يقف بوجه إعصار مدمر..

إذا هذا هو قدره، لابد من صك فمه بالشمع الأحمر، والتحلي بالصبر، والتأني، وتحمل المصائب دون أن ينبس بشفة حتى تقوى جذوره.... ولن يقوى على حل مشكلته واسترداد حقه بالمقارعة، وأفضل حل هو أن يدع المجرم ينازع ضميره أن يستسلم لذاته، فالإنسان أذا ما فلت من قبضة العدالة الجنائية؛ فلن يفلت من عدالة الرب ولو بعد حين.... لذا مهما كبر وطال شأنه؛ لابد من أن يلسعه ضميره بفعلته الجبانة، لابد أن تعود الحياة لقوانين الطبيعة التي تتحكم بالبشر ويتحكم بها الله، فالزمن كفيل بأذلال الجبروت.

فيما سبق كان كل شيء منظم ومحكوم بشرائع وقوانين، أما الآن سطت الفوضى فضاع رأس الخيط تحت عجلة الأحداث، لا توجد سلة نفايات تزج بها هموم الجار وشظايا النار، باتوا يعيشون في دوامة الغاب، القوي منهم يأكل الضعيف والشاطر من يتجنب عصف المخاطر. هكذا كتم على همه وزاد من حرزه وحذره، الوضع لا يأتمن، الثقة باتت معدومة حتى بين أبناء الأسرة الواحدة، فما بالك بالشخص الغريب!.. فيما سبق كان الجار يحرس جاره، ويحرص على شرفه ويقيم بيته وشرفه، ويتحمل وزره، يعينه على المصائب والمصاعب والفاقة. أما الآن..... صار الجار ثعبان وعقرب يلدغ ويلسع جاره، يحسده، يتعقبه، يستغل الفرصة للنيل منه! لذا اتفق قاسم مع رقية على عدم ترك البيت خاليا، لابد من تواجد أهدهما فيه مهما تصادفهم أحداث جسيمة في المستقبل.

فيما سبق كانت المحبة سائدة بين الناس، صادقة، كنهرٍ جارٍ؛ الكل يغرف من فراته العذب. البساطة هي الصفة الغالبة بين البشر،

تزهو بلون الياسمين وبرائحة القرنفل وبطول النخل وبحسن وجمال الصبية، هذه الصفات تلاشت بيوم وليلية، لتصبح مدلهمة، شائكة، قصيرة، عبثية، لا يشيعها حسن ولا لون بهيج... مع الاحتلال تغير الحال، اخترقت صفوف الناس شرور الأحزاب ولعنة الطائفية، فمن تصيبه مصيبة صار لا يجد لذاته حلول لها تعينه على جلده؛ إلا أن كان منتميا لتلك الفوضى، باتت العقد والهموم تتعلق في أعناق أصحابها، تجردهم من سمة الفضيلة. أمسى الفرح والترح لا يعم كما كان سابقا، هكذا تركت العادات بهرجتها في حدود الشخص وذاته وكأنَّ الإنسان تجرد من إنسانيته، بات يعيش في تيه من أمره وهو يعالج أمره وحيدا، لا أحد يعضده أو يناصره.

تغيرت النفوس مع تغير الوضع، الكل صار يبحث عن الفرص ليستغلها لمصلحة ذاتية بحتة. أصبح الإنسان حذرا، لا يأمن شر ذاته وسخرية الآخرين، يمشي على أنامل شكه، لا يشرك ذاته في ناقش ولا يرطن لجدال المارقين، لا يجامل أهوائهم ولا ينظر لعناقيد الكروم المطاطية التي تغر الناظرين. ربما يغرق تفسيره في سوء تقدير من يجادلهم، فيصطدم بنية الآثمين واللصوص المارقين الذين يبحثون عن أنصاف الفرص في عيون فرائسهم.. قد يذهب الإنسان بعكس اتجاه النية فيذهب ضحية إغفاله، فيقع في مطبات الشك وجعجعة السين جيم التي لا تنتهي نقيرها والخصوم يمتلكون آذان طرشة وقلوب نغصة.

ذهب الخروف -- " وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ" [البقرة: 216]. صدق الله العظيم.

أخذ بسلم الآية وسلم أمره لله، جعله صدقة وقربان للشهيد حسن، ثم قرر أن يشتري خروفا جديدا عوضا عن المسروق، وفعلا تم له

ذلك بعد انتهاء مأتم حسن بشهر تقريبا أو يزيد، اشترى كبشا وحدد موعدا جديدا لنحره.

بعد تلك الحادثة صارا اكثر حرصا وتجببا من الجيرة، صارا ينظران إلى الناس قاطبة كذئاب مفترسة تتحين الفرص للنيل منه، باتا يتعامل مع محيطه بحذر شديد، محاولا تجنب الاحتكاك بهم، محتفظا بسرائره، كل شيء في الحياة له ثمن وخصم؛ حتى الأهواء والنية.

حسنا فعل في استفساره من أبو عادل الجعسوس عن مصير الخروف، تلك كانت إشارة مبطنة منه باتهامه هو وأبنه بالسرقة، لذا حذر أبو عادل أبنه من العبث مع أبو محمد في المستقبل، كي لا يفسد سمعته في المنطقة.

2

في صبيحة الجمعة الأولى من شهر آب، وبعد فترة قرابة شهرين من وفاة حسن، تم نحر الخروف، وزع لحمه كصدقة على مجموعة من الجيران، كما خصص جزء منه بحدود كيلوغرامين لوالدته وأخيه..

بعد أن فرغ من توزيع الصدقة على الجيران، توجه قاسم بصحبة أبنه محمد لبيت والدته الكائن في منطقة الفضل، ليقوم بواجب الزيارة التي تأخرت كثيرا بسبب تقلبات ظرفه وظرف البلد، ليفرحها بواجب الزيارة والصدقة وينظر لاحتياجاتها واحتياجات البيت، وليعتذر لها عن تأخره عن واجب السؤال والزيارة.

أكريا عجلة تكسي، حيث المسافة ليست بعيدة؛ ولكن طريق المشي غير مؤتمن، الحذر واجب في ذلك الظرف العسير..

حين دخلوا في زقاق الحي وجدوا تجمعا للناس قرب بيتها، خاله الشك بأن أخوه جاسم قد عمل مشكلة ما مع الجيران أو مع آخرين، بات يلعنه في قرارة نفسه... حين تقدم من الجمع سأل أحد الواقفين دون معرفة مسبقة ودون مقدمات سأله عن سر هذا التجمع، وإذ به يخبره بوفاة أم جاسم.

- ماذا...هل أنت جاد.. ماذا تقول ؟

أستكان في صمت وذهول، كأنه غير مصدق الخبر، وغير مصدق لحظات توديعها الأخيرة، سرح في فكره بعيدا قبل أن ينفجر حزنا على أمه ومآقيه مغرغرة بالدموع، سالت على خديه كالوخز، حينها غص لسانه بحزن كظيم، بات ينوح والشهقة تشرخ أنفاسه:.....

- لا....لا يا يمه لا. استعجلتِ الرحيل..

لا يا أماه.. جئت أزورك بعد قطيعة، فأبيت أن تستقبليني، أبيت إلا أن تهربي مني للآخرة!.. يا للحظ السيء، والله يا يمه لم يمنعنِ عنك سوى قسوة الظرف وسوء الطالع، سامحيني يا يمه.

- وهل تعرف المرحومة؟
- أنها أمي.... أمي الغالية...

ثم دلف يتخبط في مشيه وهو يبكي باتجاه البيت، وحين ولج في الدار وجد جمعا غفيرا من أبناء الجيرة، وجد جارتها أم رجاء التي دائما ما كانت ترعاها في وحدتها وتسأل عن صحتها، أخبرته قائلة:....

- كل صباح أطرق الباب عليها لأقدم لها طاسة الروبة (الخاثر)، واليوم حين طرقت الباب لم تفتحه لي... فيما جاسم كأنه لم يبات في البيت، ما دعاني أن أستدعِي زوجي ليفتح الباب عنوة عليها...
مسكينة، لقد ماتت وحيدة، غريبة، ربما احتاجت شربة ماء ولم تستطع خدمة نفسها حتى وجدناها ممددة في فرشتها دون حراك.. لقد أختارها الله في يوم كريم... ثم لا نعرف لها قريبا سواك أنت وجاسم.. كما لا نعرف أرقام هواتفكما وعناوينكما.. إلى رحمة الله.
- حسنا فعلت يا أم رجاء، ثم نزلت دموعه، وهو يأن بصوت أجش شجي:.....
(يمه يا يمه من بعدك ما ظل عندي وطن، يمه ويا يمه بغيابك أزدتُ شجن، انقُطعتْ جذوري تعقدت أموري... يا يمه جيت اشوفك وأراضيك، تركتِ قلبي يعاني من قصوري)...
وداعا يا يمه....

اودع قطعة اللحم لأم رجاء ثم أتصل على صفاء هاتفيا، حينها كان قد أنتشر للتو هاتف الموبايل على نطاق ضيق، مهاتفا إياه قائلا له.:..

- ألو...أبو عامر؛ أرجو منك أن تجلب أم عامر وتأتي إلى دار أمي في منطقة الفضل – أمي سلمت عمرها، توفاها الله فجر اليوم.
- ماذا تقول - لا إله إلا الله.
- لا تتأخر، لا يوجد أحدا في الدار – الجيران قائمون بالواجب، وأنا صدفة جئت أزورها، لكنها لم تنتظرنِ وجاسم لا أدري في زريبة نائم...
- نصف ساعة وسنكون عندك بأذنه تعالى.

عجز عن معرفة أين يتسكع أخوه ليخبره بوفاة أمه، لم يكن يملك موبايلا للاتصال به. طلب من أبنه أن يذهب للبيت ليخبر والدته ومن ثم يعودان سوية لتدبير طقوس التابين والعزاء. ثم طلب من أمام المسجد القريب من دارها أن يفتح له باب المسجد ليقيم فيه مأتم العزاء لصغر دارها، فتم له ذلك بيسر.

قبل فترة الظهيرة وصل أخوه جاسم الذي كان نائما في غرفة صديقه ورفيقه في العمل جعفر، ورائحة الخمر تعط من شدقيه.. حين رآه أخوه وبخه على تصرفه الأهوج، ذرف دموعا كدموع التماسيح ربما شعر بتقصيره وإهماله لأمه، ولكن هيهات تنفع الندامة أو تزيح عن القلب شجنه. فقال له:...

- بدل السم الذي تشربه كل يوم أشتري لك هاتفا نقالا لنعرف أين تتسكع؟ كيف تبيت بعيدا وأنت تعلم والدتك مريضة؟
- تلومني ولا تلوم نفسك؟ تسألني وأنت المقصر معنا!...لمَ لمْ تزورها منذ زمن؟ لم لا تتصدق عليها؟ يا أخي طل علينا

ولو بالشهر مرة؟ تلومني وأنا الضائع، التائه، أنا أهرب من ذاتي لأنسى همي، لذا تجدني أتسكع في دور المباغي والبارات.... وهل كنت أعلم بها ستموت الليلة؟

- صدقت لقد نسيت نفسي، وأنت لم تحاول أن تغير من ظرفك، بقيت تتبع أهوائك الحقيرة.
- هذا الذي فالح به ترمي اللوم عليَّ.....

لم يجدِ الكلام نفعا، بعد ذلك انشغلا في دفن الجثة وإقامة مأتم العزاء.. من عادة الناس والمعارف وقت التأبين أن يئموا بمساعدة أهل المتوفي بالعمل في إدارة محفل التأبين، أو بدفع عذرٍ لأهل المتوفي - وهو مبلغ من المال أو من المؤن ليكون عونا لهم في مواجهة زخم المعزين، الذين يتوافدون عليهم بكثرة لتقديم العزاء..

كان صفاء قد أقتنى خروفا في اليوم الثالث من أيام العزاء ليضحي به إكراما لوجه الله على روحها الطاهرة، وذلك تعبيرا عن السنة المعمول بها في الديانة الإسلامية. وكانت تلك لفتة عززت مكانته في قلب زوجته هدى وفي نظر قاسم الذي يجيل له احتراما كبيرا.

أنشغل الجميع في المأتم إلى جانب قاسم خلال الفترة العصيبة التي حلت على رؤوسهم بالغم والهم وبشكل مفاجئ دون مقدمات، كان صفاء نعم المعين وخير النسيب والجليس في إدارة المأتم، لشخصيته المرموقة وطيبته وبساطته، لذا كان قاسم يوكل له المهام الصعبة خلال غيابه في إدارة المأتم.

يعتبر العذر جزء من المشاركة في المأتم، يصرف على الوافدين الجدد على شكل سجائر أو مشارب من الشاي والقهوة، أو يصرف على وجبات الطعام كتقليد معمول به لمدة ثلاثة أيام، وبعد انتهاء المأتم يجمع ما تبقى من المال لفعل الخير على روح المتوفى أو يجزى ببناء القبر. وكان قاسم قد سلم ما جمع لأخيه جاسم، فهو

اولى بالصدقة، ليكون عونا له على مواجهة الظرف القادم، كما أضاف على المبلغ مبلغا من جيبه دون أن يخبر جاسم بذلك، كما دس في جيب أخته هدى ما قيمته خمسمائة دولار لمواجهة الظرف الذي لا يحتمل دون أن يبلغها عن مصدره...

استغل جاسم هذا المبلغ في ترميم سقف البيت ولبخ جدرانه الداخلية بمساعدة صديقيه جعفر ورشيد، وتغيير بعض أثاث البيت البالي. لذا العملية لم تكلفه سوى تكلفة المواد من أسمنت وصبغ. وحين وجد ذاته وحيدا؛ استدعى صديقيه المشردين ليقيما معه في بيته، فلم يمانعا ذلك لقرب الدار من مركز عملهما في الشورجة.. حينها أصبحت الألفة بينهما أشد قوة بعد أن اشتركا في المصرف والمبيت والعمل والعربدة.

أما قاسم بعد وفاة أمه صار يتصدق على روحها الطاهرة بعيدا عن أهل الحي الذي يسكن فيه، كثيرا ما كان يلوم نفسه لتقصيره بحق والدته دون قصد، شعر بالندم على عدم المواظبة بسؤال عنها، أخذته الظروف في مسالكها المعقدة فنسي أمر والدته، كما قتر عليها المساعدة ماديا بسبب القتر الذي كان يعيشه وضعف مردود عمله، حيث ما كان يحصل عليه لم يكن سوى فتافت لا يسد رمق العيش. هكذا تسلط الظرف عليه، جرده من المبادرة، كان أقوى منه على مر الزمن....

إذا ذهبت لدار حقها، وكأنها أبت أن تعيش عيشة رفاه وهناء بعد الذل الذي ناصب زوجها من قبل. ثم أن هذا البلد لا تندمل فيه الجراح ولا تهدأ فيه النفوس إلا حين تهمد، لن يسعد به أحدا حتى لو ملك مال قارون. عواصف الغل الهوجاء دائمة الحركة، مستمرة في ضرب شواطئه، حيث بين فترة وأخرى تشتط أمواج العصف داخليا أو خارجيا، كأنَّ العراق يقبع على بركان فوضى وغضب

وعقد، ما أن تفل حقبة حتى تأتي حقبة أخس منها عطاءا ومكانة، وهكذا دواليك...

الظرف الشائك جعل من الوطن مستنقع عقد، التفت خيوطها على أعناق الشعب قاطبة، صارت العقد والمشاكل تلضم بسلسلة طويلة في خيط من مسد تعلق في الرقاب، تعقص النفوس، تجلي الابتسام عن الثغور، تجلي الحلم عن الأناة والفكر عن الذهن والسلام عن الأمان. تلك هي صبغة الحياة المشاعة بين الناس، أو المفروضة عليهم من قبل المحتل وأعوانه دون إمكانية تخطي حدودها.

3

العقيد الركن صفاء أبو عامر، أحد ضباط الجيش العراقي الباسل، قبل أن يُجبر على ملازمة الدار إثر القرار الجائر بحل الجيش من قبل الحاكم الأمريكي بول بريمر. رجل شهم، تتصبب غيرته عرقًا من مسامات جسده على وطنه وأبناء شعبه. في الأربعين من عمره، وسيم، ذو قدرة فائقة على الإقناع والمجادلة، صقلته تجارب الحياة، لا سيما مشاركته في حرب الخليج الأولى، التي تركت في نفسه بصمات عميقة من الألم والإنسانية، وألبسته حلة من العفة والمرونة، جعلته قادرًا على تجديد صفحات الحياة بتوازن نادر.

بعد الاحتلال، وجد صفاء نفسه في دوامة من الحيرة والقلق، يسعى لتدبير لقمة العيش بعدما أُغلقت أبواب الرزق في وجهه ووجه رفاقه من أبناء المؤسسة العسكرية. القرار الجائر بحل الجيش لم يكن مجرد إجراء إداري، بل كان ضربة قاصمة لظهر الوطن، إذ ترك آلاف الضباط والجنود في تيهٍ لا يُحتمل، تتراقص فيه الهواجس أمام فكرة الغد، وتدق فيه أجراس الموت في صوامع التفكير.

اشتدت الفاقة، وتقلصت الأحلام، وسادت الفوضى، لا في الشوارع فحسب، بل في النفوس أيضًا. بات صفاء، كغيره من الضباط، ضحية ظرف يساومه على حياته وحياة أطفاله، صورة سوداوية تتفاقم يومًا بعد يوم، حتى صار الفرد يرتعب من الغد كلما نظر في مرآة الزمن.

حل الجيش لم يكن فقط قطعًا للأرزاق، بل كان تفتيتًا لتركيبة وطنية متماسكة، هدفه ضمان السيطرة على البلد، وتحييد خطره عن إسرائيل، وإبقاء الفوضى عائمة لأطول مدة ممكنة. الزنبيل الذي

كـــانوا يقتـــاتون منـــه شُـــفّ، وســـبله قُطعـــت، فغـــدت حيـــاتهم موســـومة بالعقد والضجر والظلم والهمجية القسرية.

صـفاء، الـذي كـان يومًـا قائـدًا فـي الميـدان، أضـحى جلـيس البيـت، لا يشـغله سـوى عبادتـه التـي يؤديهـا فـي مسـجد أبـي حنيفـة النعمـان فـي الأعظميـة. كبريـاؤه واعتـزازه بنفسـه يمنعانـه مـن التنـازل، رغـم قسـوة الظـرف، فيتأمـل مـع رفاقـه فرجًـا يلـين قـدرهم، ويجنـبهم ويـلات الغـد بعد أن جفت جداولهم.

بتجريـده مـن عملـه؛ تحولـت حياتـه لحالـة هيجـان، لحركـة أمـواج متلاطمـة تعصـف بأنفاسـه وأفكـاره، ريـح بهتـان تضـرب شـواطئ قلبـه، لا تنفـع معهـا مصـدات التمنـي ولعبـة الـورق، أضـحت حياتـه رتيبـة، مملـة، لا روح فيهـا، تكسـرت مجـاديف سـعدها علـى حـين غفلـة بعـد أن وجـد ذاتـه معزولـة متقوقعـة علـى الرصـيف، غارقـة فـي بحـر مـن الهـم دون أن يجـد لهـا مسـرب فـرج ضـمن حلكـة تلـك الأيـام المـرة، أحاطتـه جنـادل وسـاوس وشـياطين القلـق، فيمـا وجـد فـرق التنكيـل والترهيـب والمجانـة تبحـث عنـه خـارج البيـت، أضـحى للشـك اسـنان تأكل ظنه وتبعثر فكره وترهق جسده.

تطـورات الأحـداث مـع الأيـام المتسـارعة، جردتـه مـن المبـادرة، حالـت حياتـه إلـى سكون تـام، دحرجـت قـوام شخصـه مـن قمـة الألـق والتـبجح لوهـدة الصـمت والـذل، تحـول مـن فاعـل مـؤثر فـي أمـور الـدنيا لصـعلوك لا قيمـة لـه، مـن عَلَـمٍ بـارز فـي المحـيط لمتسـكع هـائم فـي الطـرق. أضـحى كـالعجزة قانطـا فـي داره، متفرجـا عـن الأحـداث الدائرة، لا حلول لديه تقئه شر الغد القادم..

ذلـك مـا جعلـه يصـاب بحالـة خمـولٍ وانكسـارٍ دائـب. بـات يشـعر بـالحرج والضـعف فـي تعاملاتـه أمـام نفسـه، غـدى نبـراس فكـره

فانوس واهن لا يقاوم عسف الريح، فيما أغلقت مظاريف مسارب الحياة السعيدة بالشمع الأحمر.

عقوبة ظالمة شملته وزملائه من المتطوعين الذين خدموا المؤسسة العسكرية فترة طويلة، فرضت عليهم دون حق ودون قناعة، دون أن يكون لهم دور بارز في بلورة الأحداث المتقلبة، سوى أنهم محسوبون على فئة جيش النظام السابق. والحقيقة كما اشرنا لها حيث قرار حل الجيش كان لغاية في نفس يعقوب، ولتدمير البلد وإضعافه.

ما زاد الطين بلة هو تدهور الأمن وتفكك أوصال الدولة، إذ جاءت مهزلة المحاصصة الطائفية، المثبتة في الدستور، لتبعثر مقومات الوطن في دروب التيه. هذه الصيغة المشوهة أثارت اهتمام المحتل، فسارع إلى دعمها وتثبيتها، مدركًا أنها تخدم أجنداته. أما الدستور الجديد، فقد صاغته ثلة من الحاقدين والمنتفعين الذين لا تربطهم بالوطن صلة، ففتحوا أبواب الفوضى على مصراعيها، واخترقت العدالة، وسُلب النور من سراجه.

طرحت مشاريع التقسيم على طاولة المفاوضات من قبل بعض المتنفذين، فعمّقت الشرخ بين مكونات الشعب، وألقت بالبلاد في دوامة البلبلة والانحدار نحو مستنقع الرذيلة. باتت الفوضى والطائفية ترتع على وقع صدى إعلام العدو، مدعومة من جهات داخلية ذات مصالح خاصة، ليعيش الشعب حالة من الهذيان، يدور في فلك الانقسام والتفكك.

هذه الوقائع عجّلت بترسيخ الطائفية، وأغلقت أبواب الفرص في وجه منتسبي الجيش، الذين وجدوا أنفسهم عاجزين عن العمل الحر، إما لضعف الخبرة أو لغياب المهارات، أو بسبب الغلّ السائد

في الشارع. العزلة التي اعتادوها في ظل النظام السابق جعلتهم خارج دائرة العمل المدني، فلم يجدوا بديلًا يعوضهم عن وظائفهم.

تفاوتت المواقف بين تلك الفئات، فلكلٍ أسبابه التي دفعته لتجنب الانخراط في الأحزاب الجديدة، لما فيها من غموض وتشعب في النوايا. وكان صفاء مثالًا حيًا؛ رجلٌ اعتاد الوقوف شامخًا، لم يتقن عملًا حرًا، ولم تسمح له كرامته بالعمل تحت إمرة أحد، فقد نشأ قائدًا، لا مأمورًا.

النظام السابق كان صارمًا في رسم حدود الضباط، منعهم من الاختلاط بالمراتب الدنيا حفاظًا على هيبتهم، وحظر عليهم الأعمال الحرة التي قد تمسّ بكاريزما الشخصية العسكرية. الضابط كان سيدًا مهابًا، يحافظ على مسافة ثابتة بينه وبين الآخرين، ليتمكن من تنفيذ الأوامر ويحتفظ بعزة النفس أمام المجتمع.

ذلك هو السر الذي ميّز الجيش العراقي منذ تأسيسه عام 1921، وهو ما منح الجندي التزامًا صارمًا بمهامه، مهما بلغت صعوبتها. لكن بعد حلّ الجيش، وجد منتسبوه أنفسهم في تيهٍ وضنك، لا يعرفون طريقًا يقيهم شر الغد، ولا وسيلة تدرّ عليهم رزقًا كريمًا. معظمهم لا يجيد أعمالًا مدنية، فكان السلاح ملاذهم، والمقاومة خيارهم، مدفوعين بروح قتالية وغضب داخلي تجاه المحتل الذي دنّس أرضهم.

صفاء، كغيره، أصبح مقبورًا وهو حيّ، يعيش في مجتمع تحكمه القيود والعُقد، تحت سلطة مجموعة منحرفة من اللصوص وقطاع الطرق، ممن تسلّموا زمام الدولة بإمرة المحتل، ونفّذوا أجنداته الخارجية. الضابط، بعد حلّ الجيش، بات يشعر بالنبذ واللاجدوى، لا يملك عصا موسى لتدبير رزقه، ولا مكانة تحفظ له كرامته.

كـان قـرار حـلّ الجـيش خطـأً جسـيمًا بحـق العـراق ومنتسـبي القـوات المسـلحة، قـرارًا مجحفًـا قاسـيًا، وضـع الضـباط وعـائلاتهم فـي خانـة البـؤس والعــداء، وســحق حيــاتهم دون تعــويض، فانــدثر الجــاه والمنصب والهيبة والاحترام بجرة قلم من الحاكم برايمر.

حينهـا شـعر صـفاء بحالـه التجـرد مـن شخصـيته وهيبتـه أمـام نفسـه، أضـحى يـرى صـورته فـي المـرآة بشـكل شـبحي تختلـف ملامحـه عمـا كانـت عليـه فـي السـابق. بـات يتـنفس دنـس الهـواء الملـوث وغبـرة الحـرب التـي نثـرت عُقدها علـى رأسـه، أمتلأ فاهـه بقيح اليـأس، علقت الغصـة المـرة فـي صـدره كجمـرة ملتهبـة، أحرقـت زغـب صـبره وبهـاء ابتسـامته، جعلـت عينيـه تـذبل وهـي تغتسـل برمـد السـهد والسـهر جـراء التفكير المستمر بأمره..

ذلـك مـا دفعـه يتغنـى بالانتقـام مـن أجـل كرامتـه، طفـح الكيـل وبلـغ السـيل الزبـى، تقمصـه الغضـب فـي سـره، غطـى علـى مرابـع خيالـه دون أن يجـد مسـلكا آخـرا يحـرف قـدره عـن خـط الفوضـى، دون أن يجد بديلا عن ثأره، ذلك الذي بدا يثري فكره وعقله بفعل.

أنشـغل بالـه بحيـاة أسـرته ومصـيرها المقبـل، انحرفـت بوصـلة الـزمن بـه نحـو الخنـوع والعـذاب النفسـي، صـار يمشـي خلـف راحلـة الرجـاء وهـو ملـثم الفـاه، بعـد أن عـزم علـى تحـدي المحتـل. التفكيـر المضـنِ صـرعه، هـرش مخـه، غـدى فـي واقـع ظنـه كحشـرة القمـل وهـي تمخـر رأسـه، لـم يعـد يشـعر فرقـا بـين سـاعات الليـل وأوقـات النهـار، أضـناه اليـأس والتعـب، زهقـت احلامـه واحـلام اسـرته، أرداه الظـلام الزاحـف إلى واقعه وحقيقة شخصيته التي تأبى المذلة.

منـذ أن بـدأ تنفيـذ القـرار، أصـبح صـفاء شـريدًا، طريـدًا، لا يمسـك زمـام أمـره كمـا كـان. لـم يعـد قـادرًا علـى مقاومـة الظـروف وهـو يـرى أنفـاس أطفالـه وزوجتـه معلقـة فـي عنقـه، ولـن يسـمح لـه ضـميره

بالتقاعس عن تلبية احتياجاتهم طويلًا. ضاقت به الأيام، وعجز عن البقاء مكتوف اليدين في ظل واقع متقلب، فالموت أهون عليه من العجز... وهذا ما دفعه إلى طرق أبواب المقاومة، برحابة صدر وقناعة راسخة.

انتمى صفاء إلى فصيل مقاوم ضمن قاطع الأعظمية، وشارك في عدة عمليات ضد القوات الغازية ضمن مجموعة "الفرسان". كان مقاتلًا شرسًا كما عهد نفسه، ضاريًا، تمكن من قتل عدد من جنود المارينز، وفجّر دبابة على حدود بغداد الجنوبية ضمن مجموعة "أبو علي". تعاونت مجموعته مع فصائل أخرى، وتمكنوا من إحراق آلية همر في أطراف بغداد، وقتلوا مرتزقة داخل أسواق العامرية عبر القنص والمطاردة، وزرعوا العبوات الناسفة في شوارع العاصمة ومحيطها.

شارك صفاء في عمليات ضمن ديالى والأنبار وصلاح الدين، خلال ستة أشهر من العمل المتواصل، بعد أن توحدت صفوف المقاومة وتبادلت الأدوار والمعلومات. كما شارك في عمليات ضمن حزام بغداد، وأبلى بلاءً حسنًا.

العين بالعين والسن بالسن، والبادئ أظلم. صار صفاء يحارب من قطعوا رزقه، ودنسوا تراب وطنه، وسرقوا ثرواته وتراثه. أولئك الذين سطوا على بنوك العراق، وقتلوا أطفاله بفرض حصار دام ثلاثة عشر عامًا، هم من زرعوا الطائفية ودمّروا ملجأ العامرية.

علّم صفاء ابنه حمل السلاح، وشجّع زوجته على دعم المقاومين بنقل الرسائل وتبادل الأخبار، في وقت كان فيه الهاتف المحمول محدود الانتشار، وشبكات الاتصال تعتمد على تغذية دول الجوار. فقد منع النظام السابق دخول التقنية إلى العراق، ما جعله يدخل عالم الاتصالات متأخرًا، كآخر دولة في سلسلة الدول.

كان النظام صارمًا، حرم الشعب من أبسط وسائل الترفيه، كاستخدام الساتلايت لمتابعة القنوات الخارجية، ولم تدخل شبكة الإنترنت إلى العراق إلا بعد سقوط النظام بثلاث سنوات. كان المواطن مجبرًا على سماع أخبار العراق فقط، وهذا ما كان يؤلم الفرد العراقي ويزيده امتعاضًا، لأنه مغيّب عن الحقيقة. من امتلك صحن استقبال القنوات كان يُعد مجرمًا في نظر القانون البعثي.

المعرفة ومواكبة التطور هما غذاء الروح والعقل، لكن الجميع كان يعاني من طامة السكوت. بتنا نشعر أن الحروف تبخرت من أفواهنا، وفقدنا القدرة على التعبير، لم نعد نفهم الجمل ولا نستوعب مضامينها، بسبب غياب الحرية. تشابه الجميع في الظلم والخرس، حتى أضحينا كقطيع الغنم، نأكل ما يريده الراعي، ونلبس ما يريده، وننفذ أوامره دون اعتراض، والخوف يحيط بكل فرد دون ذنب.

بعد الاحتلال، تأملنا فرجًا حين التحق العراق بركب الإنترنت والموبايل والساتلايت، لكننا فقدنا الأمن والوطن. انتشر الفساد والقتل والفوضى، وتلاشت كل ملامح الحياة الجميلة. تفشى العنف والعبث واللصوصية، كالنار في الهشيم، بعد أن تنوعت أشكال الفساد وتغلغلت في مفاصل الدولة والمجتمع.

ما أبغض المواطن؛ ذلك الذي زرع الغيض والفرقة بين الطوائف والعامة من الناس، مما جعل الشعب يندم كثيرا على عدم جديته في مؤازرة النظام السابق ضد المحتل. نعم كانت هناك اخطاء كبيرة ولكن كانت هناك دولة قائمة، على الأقل لا يوجد لصوص ومجرمين يطوفون في الشارع.

تحت ظل المحتل تمكنت الميليشيات من تجنيد عددا كبيرا من أبناء الشعب على حساب الطائفية بعد أن أغرتهم بالمادة، هؤلاء الذين عصفت بهم ظروف سابقة من جور وظلم وقسوة حصار، وجدوا

الفرصة مواتية أمامهم لتحسين وضعهم المعيشي بانتمائهم لتلك الميليشيات، قسمٌ منهم أغرتهم الطائفية فودوا تسلق المناصب والرفعة باسمها. تلك الفرق كانت قد عبثت في أمن وأمان الدولة، أوقدت نار الفتن والطائفية بقصد أو دون قصد، دخلت لتقتص مِنْ مَنْ كان محسوبا على النظام السابق أو كل من له انتماءات وطنية أو متحمس لمقاومة المحتل، وذلك بتوجيه واضح من أسيادهم..

اضحى من يقارع المحتل يعتبر خائنا في عرف الوجوه الجديدة، التي رافقت دخول المحتل وبالذات تلك التي سيدت المناصب الرفيعة، تلك القشة التي قصمت ظهر البعير، والتي فرقت بين الطوائف المعادية للمحتل والمناصرة له. الميليشيات باتت تعبث في توازن مكونات الشعب، تلاحق عناصر المقاومة وبالذات المحسوبة على الطائفة السنية التي تركزت فيها المقاومة ضد المحتل.

لذا صار الطابور الخامس والاحزاب الجديدة تتصيد ضباط الجيش والطيارون والعلماء والأطباء وأساتذة الجامعة والفنانون وخطباء المساجد وكل من كان له شأن واضح قبل احتلال البلد حيث تم اغتيال معظمهم. ربما القتلة جندوا من قبل الصهيونية كما هو مشاع.

في هذا الإطار تعترف مجلة المشاهد السياسي البريطانية بتاريخ 22\3\2013 وهي تفتح ملف اغتيال العلماء والدكاترة والاطباء والضباط العراقيين وتكشف عن قتل 5500 عالم عراقي، وبحسب المجلة كان الطرف الأول هو الموساد الذي دخل العراق مع قوات الامريكية المحتلة، والطرف الثاني المخابرات الامريكية المركزية، والطرف الثالث هو فريق عراقي موجه من قبل دول الجوار لقتل الضباط. هذا ما قرأته نصا على جوجل. وكان أكثر من 1550 من العلماء واساتذة الجامعة فصلوا من وظائفهم في

سياق الحملة الامريكية الاسرائيلية التي استهدفتهم للاستفادة منهم ونقلهم خارج العراق. كما أعترف المفكر الكويتي عبدالله النفيسي في لقاء تلفزيوني من أن اسرائيل أدخلت عددا من عناصرها للعراق من أجل اغتيال العلماء.

سلسلة الاغتيالات التي شاعت في أرجاء العراق، جعلت حشدا كبيرا من العلماء والأساتذة تهرب خارج العراق باحثين عن مأوى آمن يكفيهم شر الملاحقة، الكثير منهم اتجهوا لدول الخليج..

على أثر ذلك نال السيد صفاء نصيبه على أيادي تلك العناصر الغاشمة، كونه أحد ضباط الجيش السابق.. كان ذلك حين خرج ذات يوم من مسجد أبو حنيفة بعد أن أدى صلاة ظهيرة الجمعة، فتلقى إطلاقة من مسدس كاتم الصوت في رأسه من قبل عناصر ملثمة يستقلون دراجة نارية، وعلى ضوء ذلك سقط شهيدا مضرجا بدمائه.. لقد سجلت القضية ضد مجهول دون تحقيق من قبل الدولة. كان ذلك بعد ثلاثة أشهر فقط من وفاة والدة قاسم. كان وقع الصدمة شديدا على زوجته هدى وعلى السيد قاسم، حيث بوفاة صفاء أصبحت أخته دون معيل حقيقي، هذا يعني على قاسم تحمل أوزارها وطفليها إلى أجل مسمى.. ليس بخلا؛ أنما خوفا من تفشي سر الكنز الذي عثر عليه..

بعد أن حل الجيش أصبح السيد صفاء رجلا فقيرا، لم يدخر من وظيفته ذهبا أو أملاكا سوى بيته وقليلا من الدنانير لن تقاوم تقلبات الظرف الذي زاد غلا وغلاء وفجاعة يوما بعد يوم... كان قد جرد من المكرمة المفروضة ومن نعمة التقاعد بعد أن خدم المؤسسة العسكرية مدة تزيد عن عشرين سنة؛ أنتهى به المصير إلى أن يصنف ضمن خانة المجرمين المحسوبين على رجالات النظام السابق، هذا ما خططت له أمريكا نكالا بالشعب المسكين دون حق.

4

بتسارع تغير الأوضاع، تغيرت النفوس وتغير كل شيء في الحياة وبالذات في حياة قاسم، أرتفع قيمة الدينار عما كان عليه قبل الحرب، زادت قيمة العقارات أضعاف قيمتها عما كانت عليه قبل الاحتلال بعد تدفق العراقيون بشكل ملفت للنظر وخاصة من الواجهة الجنوبية على بغداد، زاحفين من كل حدب وصوب لشراء عقار فيها، وذلك بعد أن تم الغاء قرار الدولة السابق الذي ينص على أن تكون بغداد لأهل بغداد المسجلين فيها على حسب إحصائية 1957.. والذي يمنع تملك العراقيين غير البغداديين في بغداد. كل ذلك جعل الأسعار تغلي في فوران دائم.

ذلك ما جعل السيد قاسم يتوه في صراع فكري عقيم، لا منفذ أمامه سوى منفذ ضيق يكاد لا يستطيع أن ينفذ منه، ألا إذا أمتطى صهوة المستحيل لمواجهة تقلبات الظرف، ساعيا إلى التغلب على مجرى الزمن وتقلبات المواقف، كان يطوف في دوامة القلق من حيث ارتفاع الاسعار وضعف الامان وعبء تصريف المبلغ بحوزته.

كان يدرك أنه لا بد من أن يستند إلى محور يضمن له ما تبقى من عمره، قبل أن تفلت زمام الأمور من بين يديه وسط تضاعف الأسعار وتبخر مدخراته من الدولارات. راوده حلم بفك أسره المالي، واستثمار ما تبقى من أمواله في عقار أو مشروع يقيه شر الندم، ويمنحه سندًا في أيامه القادمة. فاختزل تفكيره وقلقه في شراء بيت مرموق، وعجلة تساعده على التنقل بين أماكن عمله، تسهّل عليه نقل بضاعته، وتخدمه في السفر والتنقل، قبل أن تتلاشى قدرته الشرائية وسط تقلبات الأوضاع المتسارعة.

استقر رأيه على اقتناء دار في منطقة بعيدة عن موقع سكناه الحالي. كانت رغبته أن يشتري في الدورة أو الكرادة، لكن حظه ساقه إلى

بيت أنيق في السيدية، بعيد عن الأنظار، ليبتعد عن معارفه ويضمن لنفسه بعض الخصوصية. اتفق مع زوجته على مغادرة البيت الحالي حالما تهدأ الأوضاع، على أمل أن تعود الأمور إلى سابق عهدها.

كانت أحلامه سادرة، كأحلام الكثير من البسطاء الذين ظنوا أن الاحتلال سيجلب انفراجًا لأزمة العراق. حلم بالمستحيل، يضيء ليله المعتم وسط انتكاسات ضبابية ومواقف متكررة. كان يأمل أن يتجاوز الوطن محور الفتن التي تغلي جذورها في الداخل، وتنهش جسده المنهك. لكن الأيام أثبتت أن الأمر يستفحل، والمحتل يتفنن في تأجيج النار، يبث أخبارًا مزيفة، ويفتعل التفجيرات وينسبها لقوى مغرضة حسب مزاجه.

فمن طبيعة المحتل أنه لا يسمح باستقرار البلد، ولا يترك فرصة للإنقاذ دون أن يجهضها. لم يأتِ مصلحًا أو محبًا، بل جاء ليسرق الجمل بما حمل. لذلك استمر في الحفر والنقر، ليضمن بقاءه أطول مدة ممكنة، مستعينًا بعناصر محلية تحميه من المقاومة، وتمنحه شعورًا زائفًا بالأمان. فالاستقرار يعني نهاية مهمته، وانتهاء فترة استغلاله وسرقاته، ويعني أيضًا غياب المبررات التي تبرر وجوده.

لذا اختلق الفتن، وزرع بذور المشاكل الطائفية والاقتصادية، عبر العبوات الناسفة والعجلات المفخخة، يفتق بها الهدوء، ويقرب البعض من السلطة ويبعد آخرين. تفنن في إدارة الفوضى، وعمّق الهوة بين الطوائف والقوميات، ليكون هو القاضي والناهي والمراقب والجلاد، يفرض سلطته على رقاب المجتمع العراقي.

تمكّن السيد قاسم من شراء منزل في منطقة السيدية بسعر 150,000 دولار، دفع منها 100,000 دولار كدفعة أولى، على

أن يُكمل المبلغ بعد إتمام إجراءات التسجيل العقاري. كما اقتنى باصاً صغيراً مستعملاً، يصلح لنقل البضائع والركاب، اختاره بعناية كي لا يثير الانتباه. وفي خطوة جريئة، غيّر طبيعة عمله من بيع الملابس المستعملة إلى تجارة الملابس الجاهزة والبدلات الراقية المستوردة، وأعاد تصميم ديكور المحل وأثاث المنزل. ولو تأخر شهرين فقط في تنفيذ هذه التغييرات، لاضطر إلى دفع ضعف المبلغ بسبب تقلبات الأوضاع الاقتصادية السريعة في البلاد، حيث استغل سماسرة العقارات تلك الفوضى لنشر عمليات النصب والاحتيال.

جاءت هذه التحولات المفاجئة في حياة قاسم نتيجة لتغيرات جذرية في المجتمع، إذ أصبح بعض الفقراء الذين انحرفوا خلال سنوات الحصار والاحتلال من أصحاب الثروات، عبر الجشع والسطو والترهيب، بينما تراجع الشريف النزيه الذي اعتاد على لقمة الحلال إلى هاوية الفقر، إلا من استطاع النجاة بنفسه أو الهروب خارج الوطن.

أما على مستوى الدولة، فقد تسيد الجاهل والمنحط المشهد العام، وتقلّدوا المناصب الحساسة بعد انضمامهم إلى أحزاب جديدة مدعومة بأجندات خارجية. فصار الحارس مديراً، والكاتب محافظاً، والشرطي نقيباً، في مشهد عبثي يخالف تماماً مبدأ "الرجل المناسب في المكان المناسب". أصبحت المناصب تُباع وتشترى، وتُمنح على أساس المحسوبية والانتماء الحزبي والطائفي، وسط فوضى عارمة في تزوير الشهادات، حتى بات عدد حملة الدكتوراه يفوق التصور، وبعضهم لم يُكمل حتى المرحلة الثانوية.

هذه الحالة خلقت بيئة مشوهة دفعت من تبقى في مؤخرة الركب إلى السعي وراء الكسب السريع، ولو على حساب الأضعف، خوفاً

مـن أن يجرفـه التيـار. فمـن هـرب نجـا بنفسـه، ومـن بقـي ظـل يعـاني حتـى اسـتُنزفت طاقتـه وجيبـه وعقلـه. انقلبـت المـوازين، وتبـدلت المعـايير، وأصـبح مـن المسـتحيل التنبـؤ بمـا قـد يحـدث للفـرد فـي ظـل هذا الواقع المتقلب.

ومـن بـين مـن تغيـرت نظـرتهم، ظهـرت شـلة الحسـد مـن معـارف قاسـم، الـذين رأوا فـي تحسّـن وضـعه انحرافـاً عـن الاتـزان، وبـدأوا يرمونـه بـالظنون، وكـأن النجـاح بـات تهمـة. وقـد لمـس ذلـك مـن خـلال نظـرات جيرانـه أبـو عصـام فـي المحـل، وأبـو عـادل فـي السـكن، واستفسـاراتهم المريبة التي تنمّ عن غيرة دفينة.

وفـي ظـل تصـاعد الفوضـى، واشـتداد عمليـات السـلب والخطـف التـي باتـت سـمة مـن سـمات البلـد، قـرر قاسـم تأجيـل انتقالـه إلـى منزلـه الجديـد، مفضـلاً البقـاء فـي مسـكنه القـديم طلبـاً للأمـان، مسترشـداً بالمثـل القائـل: "العـدو الـذي تعرفـه خيـر مـن الصـديق الـذي تجهلـه" الألفـة التـي تعـود عليهـا والتـي شـدته إلـى الجيـرة وبسـاط المعرفـة، جعلتـه يؤجـل سـعي انتقالـه للبيـت الجديـد وخاصـة بعـد أن تعرضـت بعـض الأزقـة لهجمـات مـن قبـل عصـابات مجهولـة، وعلـى أثـر ذلـك تشـكلت فـرق صـد وإغاثـة بـين أبنـاء الأزقـة، صـارت تـدافع عـن نفسـها من الشرور الخارجية.

هـذا يعنـي أنـه سـيأمن نفسـه مـن شـبح المداهمـة الخارجيـة، أضـحى الإنسـان يفكـر بفـرص الأمـان أكثـر مـن أن يفكـر بالجـاه والرفـاه ولقمـة العـيش، اضـحت الأوضـاع لا تسـر ولا تسـتر، ولـن تهـدأ علـى مـدى الزمن القريب كما توقع البعض توقعا خائبا.

هذا مـا أوحـت لـه هواجسـه ومـا كـان ظـاهرا علـى مسرح العمليـات بعد أنتشـار عمليـات الخطـف والقتـل والتنكيـل بالأبريـاء علـى نطـاق واسـع فـي أرجـاء البلـد، حيـث صـار القتـل أرخـص السـلع المباحـة فـي

الشوارع بحيث من يحمل في جيبه 100 دولار قد يعرض نفسه للسطو والقتل المتعمد.

بعض البشر لا تروق لهم سعادة الآخرين. ما إن تلوح على وجوه أقرانهم مسحة فرح، حتى تبدأ الغيرة بدغدغة شجونهم، فتتحرك خيوط الحسد في دواخلهم، ويشرعون في نسج نسيج الخبث، باحثين عن أصل الغزل ونوعه، عن لون الطفح الذي غيّر ملامح وجوه من حولهم. ينهشون وينبشون كل ما يمكن أن ينفعهم، يبعثرون عُجرة ضعفهم، حتى تكتمل في عقولهم السوداء وبطونهم الخاوية صورة الغموض والريبة. هكذا تدفعهم الغيرة إلى العبث والتجني على الغير.

هؤلاء أشبه بالعلكة التي تلتصق بالقدم في أيام القيظ، لا تغيّر اتجاه السير، لكنها تعيق الخطى وتضيق الأنفاس، وتثير في النفس قرفًا ونرفزة. الوسوسة والوشوشة التي يتحلى بها بعض البشر ليست سوى انعكاس لشخصيات مهزوزة، أشبه بشفرة ذات حدين، تجرح في المدح كما في الذم. تحيل أصداف مشاعرنا البراقة إلى أشواك من الحقد والكراهية، فيما أجسادهم النخرة تتقرح وتزداد نتانة ونميمة وغلًا تجاه من يعرفونهم.

تلك التصرفات، بقدر ما تؤلمنا، تفعل ذات الفعل في نفوس أصحابها، تُنغّص قلوبهم العفنة، وتحوّل سعيهم إلى بؤر من الحقد، كحمية ضارة تسوق لهم الأمراض. أهل النميمة لا يفتكون من عاداتهم، يلبسونها كثياب، كسلسلة تطوق الأعناق، تعبر عن نواياهم القذرة تجاه الآخرين. هؤلاء السماسرة تمكنوا من إشاعة خبر شراء قاسم لبيت وسيارة، حتى وصل الخبر إلى أخيه جاسم.

لكن كيف عرفوا؟ ذلك ما سيكشفه الزمن...

ظل هذا الأمر معضلة في ذهن قاسم وزوجته. فبالرغم من حرصهما على السرية وتجنّب مخالطة الآخرين، انتشرت الأخبار كالنار في الهشيم. لم يُحسن قاسم تغطية الأمر، فافتضح بين حساده ومعارفه. امتد صدى الخبر إلى جاسم، حين أخبره أبو عصام، متربصًا بردة فعله. تمسك جاسم بالإنكار، فهو يعرف هشاشة وضع أخيه، لكن الـ 100 دولار التي أكرمه بها قاسم، والقلادة التي ترتديها رقية، أوحت له بصحة الخبر. فلا دخان بلا نار. كتم غيظه، وشعر أن أخاه لم يكن صريحًا أو جادًا في مساعدته، رغم قدرته على تعديل ميزان فقره المدقع.

أما محل قاسم، فقد بات يشع نورًا وبهجة في منطقة يغلب عليها الكساد، وكأن رفاهه جاء عكس التيار. في زمن أغبر، طغت فيه الأزمات والمظالم، صار ترف قاسم مثار جدل، وأصبح محط أنظار الجميع. غناه وعزه أرمدا عيون الحاسدين، وعلى رأسهم غريمه اللدود أبو عصام، الذي بات همه الوحيد معرفة مصدر هذا الجاه. صار يتقلب كالأفعى، يلدغ ذاته كالعقرب، لا يعرف استقرارًا ولا راحة. طالما أن قاسم تبدّل وضعه، فلا بد لأبو عصام أن يجد حلاً لمعضلته هو الآخر.

أما أبو عادل، فكان أكثر حنكة وثباتًا، يراقب التغيير من بعيد دون أن يُبدي امتعاضًا أو غيرة. كلاهما يقفان على ذات الخط، وعلى مرمى حجر من الأزمة، والسؤال الذي بات يشغل بالهم: كيف تجاوز قاسم واقعه الميؤوس؟

بات الشيطان يوسوس لأبو عصام، أو لعله تحوّل هو نفسه إلى شيطان أخرس يوسوس لنفسه، كاتمًا غيظه في أعماقه. صار كجانٍ يتسلل إلى نفوس المقربين من قاسم، يبحث عن لغزه، يدور حوله وحول معارفه، يناقش أصحاب الدكاكين المجاورة، يسأل ويستفسر، لعل فكرة تلبسه وتروي فضوله. أعماه الحسد، عقرت

الغيرة فكره وبصيرته، فبات يسأل نفسه ويجيب، ليصل إلى قناعة تُرضي فضوله وتُسكّن غليله.

يسأل ذاته ويجيب:..

- لا بد أن سطوة ما قد سطاها... أيمكن أن يكون أحد سُرّاق البنوك؟ كم سرق يا ترى؟ مليون؟ خمسة؟ خمسون؟ أم ربما مليار؟ هكذا، وبغمضة عين، انتشله الحظ من قوقعته، وألبسه ثوب السيادة في ليلة وضحاها، بعد أن كان بيننا صعلوكًا لا يهش ولا ينش.
لكن كيف؟ كيف كسر طوق الفقر؟ كيف تجاوز فكره المهلهل وصدى عجزه؟ كيف امتطى الحالة وتحول إلى لص وانتهازي، وهو المعروف بيننا بالعفة والاعتدال؟
الشمس نراها كل يوم، لم يتبدل لونها ولا حجمها، لكنها لم تتبدل كما تبدل هو. تحول على حين غفلة من فقير أبكم إلى غني ثرثار، من شريف إلى متهم، من مسحوق لا يعرف كيف يفك رجل دجاجة من عقدتها، إلى رجلٍ تجاوز محنته واستغل الظرف لصالحه.
نعم، هو رجل طيب، لا يُنكر ذلك أحد. لكن الطيبة وحدها لا تصنع الثروة، ولا تُبدّل الحال بهذا الشكل المفاجئ. فما الذي حدث؟ ما السر الذي قلب موازينه؟ أي باب طرق؟ وأي فرصة اقتنص؟ وأي لعبة لعبها ليخرج من ضيق الفقر إلى سعة الغنى؟

ذلك هو السؤال الذي ظل يتردد في أذهان من عرفوه، يطرق أبواب الشك، ويشعل فتيل الحيرة في القلوب.. كيف يا رب؟؛ أيكون قد أنتمى لأحدى العصابات الجديدة؟ لا لا أظن ذلك، لم

أجده يوما يهتم بهذه الأمور إطلاقا، لم أجده يحمل مسدسا أو بندقية في حياته لا في العهد السابق ولا بعد الاحتلال.

حين شاهده عاكفا على صلاته داخل محله أستهزئ به بقرارة نفسه حيث دخل وهو يحاكي نفسه:...

"أيا غشاش يا منافق...يحاول أن يوهم الآخرين باستقامته، أنك ثعبان ملتو، ما عدت أصدقك أبدا... لم أشاهد في حياتي لص بهذه البجاحة والبجاجة، يستشعر بالرضا ويعبد الله ويده أطول من قدميه، والله أنك حرامي محترف!! ترى على من تضحك بتصرفاتك العبثية هذه؟ يا ترى لمن تصلِي ويدك وسخة؟......آه.. همي أن أعرف مصدر رزقه.... يجب أن أساله لربما يساعدني ويقدر خط العشرة والجيرة الطويلة بيننا، أنه في داخله إنسان طيب وأمين".

تقدم منه وسأله:....

- السلام عليكم يا أبو محمد
- يا اهلا مسهلا
- ...هناك سؤال في بالي حيرني.
- الله لا يحير عبده... قول ماذا يشغل بالك؟
- أعرف وضعك المادي جيدا، وأعرف"*البير وغطاه* "كما يقول المثل، منذ عشرة سنوات وأنت جاري، هل ممكن تساعدني وتخبرني من أين لك هذا الغنى؟--- أسف على التطفل، ليس من باب الحسد، أنما أنا أفكر في نفسي، لربما أستطيع أن أخطو خطوتك أو تدلني على طريق ما من خلاله أحسن به وضعي المزري، فأنت صديق قديم لي، ولي حق العشرة والجيرة عليك..
- الله يرزق من يشاء.

- والنعم بالله، لكن لابد من مصدر ساعدك على تغيير وضعك؟ كيف تحول دكان البالات لدكان مرموق، دكان البالات لا يغني أحدا.

كان سؤاله بمثابة نصل خنجر مسموم طعن في ظهره. صار يكلم نفسه ويقرأ سورة الفلق مع نفسه... قل أعوذ برب الفلق، من شر ما خلق.. ومن شر حاسد إذا حسد.. ماذا يريد هذا المعتوه مني؟ أيود أن يشاركني حظي؟ كيف ادرأ خطره وسهام عينيه الحاسدة تتبع خطواتي خطوة خطوة، أنه يلاحقني..... دعني أنسحب من وجهه اللئيم، أو دعني أتجاهله أو أوقفه عند حده..... لكن كيف؟؟

ما هي الوسيلة التي ممكن ان أواجه بها؟ ممن يخاف هذا المعتوه؟

رد عليه بوجه مقتضب:....

- لا إله إلا الله... ماذا تريد أن أقول لك؟ أتريد أن أقول لك أني سرقت البنك لتصدقني! أتريد أن أقول لك الحاكم برايمر هو أبن عمي فتصدق عليَّ!...... يا أخي أن كنت تود أن تغير وضعك؛ غير من سلوكك وسكونك، من استقرارك وثباتك، من البقعة التي تقف عليها كالصنم، أنتمي لأحد الأحزاب أو الميليشيات التي باتت من كثرتها لا نحفظ أساميها.
- يا شيخ تعرفني جيدا، أنا لست من هذه الأشكال الرخيصة، لم أنتمِ لحزب البعث في السابق وهو في أوج عظمته، أتريد أن أنتمي لهذه الأحزاب الهزيلة، الركيكة، التي تعتاش على امتصاص دماء الأبرياء؟
- إذا كن لصا!!!!!
- أترضاها عليَّ بعد أن شاب الرأس؟
- إذا تود أن تعرف من أين جئت بالمال؟؟..
- بالضبط.....

حيث طرأت في ذهنه فكرة صارمة، بها يمكن أن يصده وأبعاده عن طريقه، بعدها لن يستطيع طرق بابه مرة أخرى.

هنا فتح أبو عصام أذنيه صاغرا:......

- بالضبط يا أبو محمد أكمل، كلي آذان صاغية.. أسمعك جيدا، حاشى أن تغلط....
- تعرفت على مسؤول كبير في الدولة عن طريق أهل زوجتي، مسؤول من الذين تسنموا المناصب الجديدة برفقة المحتل. ود الرجل أن يساعدني، أو بالأحرى أن يشغل نقوده في محلي، وكذلك ود أن أشتري له عقارات باسمي كي لا يُكتشف أمرهُ وسرهُ. هذا كل ما في الأمر، هل ارتاحت نفسك؟..
- من هو هذا المسؤول؟ أيمكن أن أعرفه؟ أو هل ممكن أن تدلني عليه؟
- أيه يا فالح ..... بالطبع لا ..... قلت لك قبل قليل ود أن أشغل أمواله سرا كي لا يُكتشف أمره، ولغاية في نفسه، ربما لا يريد أن يجلب أنظار الناس والمسؤولين الآخرين إليه.. ثم أين الأمانة التي حملني إياها لو ذكرت لك أسمه؟....أتريد أن يكشني؟ وما جزاء الإحسان إلا الإحسان.. هل نسيت ذلك؟ .. ثم أنت لِمَ تود قطع رزقي؟
- أسف أن أزعجتك، ولكن بعض الناس تود الهبرة لها فقط، من دون أن تنظر لأصحابها وللناس الجوعى حواليها، أنا رفيقك يا أبو محمد.
- لكن ليس على حساب مصلحتي.

آن ذاك خرج مقتضب الوجه وفي قلبه غيظ يصرعه، فيما بقي أبو محمد محتفظا بكياسته، والألم يعتصر قلبه من سهام العيون الحاسدة التي بدأت تتكاثر كالحشرات، كأنهم لا يودون أن يكون له شأن، أو أن يكون أكثر منهم جاها وغنى.

في الحقيقة أنها مسألة طبيعية أن يتعرض لهذه المواقف المحرجة في مجتمع دقت خاصرته مطارق الفقر حد العظم. أي أن الخير لو خص شخص ما، سيكون نكالا عليه أذا لم يعم المجتمع، إذا لم ينل منه بقية أفراده الشيء اليسير، لأن المجتمع شبكة واحدة؛ أن قطع خيطها فلتت خرز المسبحة جميعها.

خيرا فعل قاسم في أيهامه بالمسؤول الذي ود أن يشغل أمواله عن طريقه. أنها فكرة عبقرية، صائبة، تقنع كل شخص يسمعها تحت ذلك الظرف المقيت، ثم أن أبو عصام شخصية مهزوزة، سينقل الخبر لكل الناس المناوئين له والذين يجاورونه من معارفه، وبذاك يحصن نفسه ويؤمن شرورهم ويبعد كاهله عن خطرهم، لتكون له هيبه بين أقرانه يحسبون له ألف حساب.

الحياة لعبة ذكاء لمن يود أن يفلح بها، المسافة بين الخطوة والخطوة شعرة قد ترفع الشأن وقد تطيح بصاحبها. فلن يدرك الغد المراد إلا من جاهد وعمل بجد ويقين.

هكذا وجد البعض سلوكه غريبا في تعامله مع الغير والبعض الآخر استغل منفذا غير سويا ليصل مبتغاه بقصص ملفقة من الكذب والخدع بها تمكنوا من الولوج لقمم المجد، تربعوا على المناصب، مستغلين سذج الناس وضعاف النفوس حتى أغنوا أنفسهم وكبروا وتوسعوا على حساب غرمائهم، فأصحاب الشهادات المزورة باتوا بالآلاف، تسيدوا الوزارات والمناصب العليا..

كل من هب ودب صار له شان في المجتمع بالقوة التي يستند عليها- أحدهم كان ميكانيكيا قبل الاحتلال وبعد أن أنتمى لأحد الأحزاب المتنفذة، رقى ذاته لدرجة دكتور ليعين محافظا يمثل ذاك الحزب بشهادته المزورة...

دخل مدينتنا ذات يوم رجل يدعى "السيد ضياء"، لم يمكث سوى أسبوع، لكنه ترك أثراً عميقاً في ذاكرة الناس. كان رجلاً مراوغاً، بارعاً في نسج القصص، يمتلك قدرة خارقة على الإقناع، وسلاسة في الحديث تأسر المستمعين. تعرّف بسرعة على شباب المنطقة، اقترب منهم، وأوهمهم بكرمه وبشاشته، حتى أحبوه وصدّقوه، بل وصادقوه.

كان ضياء شخصية هلامية، مرنة، جذابة، ينسج أحاديثه بخيوط من الخيال والحقيقة، يرقّعها بالأكاذيب، ويغلفها بدهاء. كل جملة ينطق بها تبدو كأنها حقيقة، وكل فكرة يطرحها تقرب الواقع من الوهم. بلغ به الأمر أن ربط اسمه بشخصيات مرموقة في الدولة، مثل وزير الخارجية آنذاك طارق عزيز، ووزير الداخلية سعدون غيدان، وحتى المصارع الشهير عدنان القيسي، مدّعياً قربه منهم عبر صور مفبركة ركبها بشيء من التقنية أوهمت كل من شاهدها بحقيقة ما يدعي.

استغل هذا الزيف ليقنع الناس بقدرته على إنجاز معاملاتهم بسرعة، مقابل مبالغ مالية يدّعي توزيعها كرشاوى على موظفي الدوائر. وهكذا، أصبح ضياء بوقاً بين الشباب العاطلين عن العمل، يعدهم بالتعيين، لقد جمع منهم الأموال، ثم أختفى فجأة في يوم مغبر، كفص ملح ذاب في الماء.

لقد كان نصاباً محترفاً، بارعاً في التمثيل، استطاع أن يعمي بصائر الناس ببذخه الظاهري، في المقاهي والمطاعم، مدّعياً الغنى والجاه، حتى ظنوه لا يحتاج لما يدفعونه له. وبعد أن امتلأت جيوبه بالوعود والنقود، اختفى دون أثر، تاركاً خلفه ضحاياه يتساءلون عن مصير أموالهم، وعن تلك الشخصية المحبوبة التي أصبحت مضرب مثل في المقاهي.

كـان ضـياء نتاجـاً لـزمن السـيادة والنظـام المتشـدد، فمـاذا نقـول عـن الـذين ظهـروا بعـد الاحـتلال، فـي زمـن الفوضـى والانحـلال؟ أولئـك الـذين انتشـروا فـي بغـداد كغبـار العاصـفة، يبيعـون الـوهم بلطافـة، ويتشـبهون بضـياء، مسـتغلين سـذاجة النـاس. كـم مـن جـزار أصـبح ضـابطاً، وميكـانيكي صـار محافظـاً، وجنـدي تحـول إلـى قائـد، ومضـمد جلس على كرسي الوزارة، وقاتل نُصّب قاضياً وشريفاً.

هكـذا تـتكلم الفوضـى، لا تسـكت عـن جلجلتهـا، تفـرز لنـا وجوهـاً تـتقن التمثيـل، وتلـبس العمـائم، وتـدّعي المسـؤولية، بينمـا الحقيقـة غائبـة، والناس في غفلة.

حصـل ذلـك وسـاد فـي المجتمـع مـن بعـد الاحـتلال مباشـرة، صـرنا كأرجوحـة مخرومـة نعـاني مـن حـالات التغييـر التـي تـنط علينـا أو التـي نـنط عليهـا بأنفسـنا مـرغمين.. لـم نشـعر بـالتغيير سـوى بسـرعة انحـدارنا نحـو الـدرك الأسـفل، سـوى تعقبنـا الـزمن نحـو الأسـوأ. لـم نلـتمس تغييـرا جـذريا سـوى فـي الأشـكال والوجـوه المتنفـذة والصـور البراقة المزيفة.

5

لم تمضِ سوى أشهر قليلة على استشهاد حسن على يد قوات الاحتلال في مدينة الثورة (مدينة صدام)، حتى اغتيل السيد صفاء غدرًا، وبذات الأيادي الآثمة. وفي غضون ثلاثة أشهر فقط، حلت فاجعة أخرى، حين استشهد عامر صفاء، ابن هدى، أخت قاسم، على يد قوات المارينز الأمريكية، حين اشترك في عملية مداهمة بحي اليرموك والمنصور برفقة مجموعة من شباب المقاومين الأبرار، ضمن فصيل "أبو علي الأشاوس" الذي كان والده صفاء أحد أفرادها.

لم يحتمل عامر فقدان والده، وهو في ريعان شبابه، فغاص في نفق مظلم من الحزن والانتقام، مدفوعًا بوجع الفقد وحرقة الفؤاد. انتمى للمقاومة في عهد أبيه، وحين غاب الأب، غابت معه ملامح الحياة من وجهه، فشذ عن طبعه، وتبدلت نفسيته، صار كتومًا، قاسي الطباع، كذئب يتربص بجنود الاحتلال، لا يرويه دم ولا يهدأ له قلب.

ألقى بنفسه في كل مهمة، توكل على الله، وسار مع رفاقه في طريق الثأر، حتى صار يُعرف بين المقاومين بـ"الأسد". كان يتعقب فلول العدو بشراسة، يقتفي أثرهم في النهار والليل، يزرع العبوات، ويقنص، ويشتبك، حتى نال الشهادة في حي المنصور، بعد أن دمّر ثكنة للعدو، وأحرق عجلتي همر، إلى جانب رفيقه غسان الذي قضى نحبه في ذات الواقعة.

عامر لم يكن مجرد مقاوم، بل ظلَّ يلاحق جنود الاحتلال، يتسلل خلفهم دون أن يشعروا، يختفي في العتمة، ويظهر في وضح

النهـار، مشـاركًا فـي معظـم عمليـات "أبـو علـي"، كأنـه جـنٌّ لا يُـرى، لكنه يُرعب.

بموتـه، تجـددت المآسـي علـى قاسـم وهـدى، تفشـى الحـزن كغمـام لا ينقشـع، باتـت مطرقـة الأسـى تـدك أبـواب السـعادة مـرة بعـد أخـرى، وكـأن المصـائب لا تـأتي فـرادى، بـل تصـب جـام غضـبها دفعـة واحـدة، كطوفان يهلك النفس والبدن.

صـار الاسـتياء والاكتئـاب براويـز معلقـة فـي ذهـن قاسـم، لهـا لمعـة فـي ملامحـه، وسـرٌ فـي صـمته، تتجـدد دون موعـد، وتنفجـر دون إذن. غـدت الأيـام كعقـد مسـبحة بـين يديـه، يسـبح بهـا، لا يعلـم الـدور القـادم علـى مـن سـيكون. لـم يعـد يحسـن التفكيـر فـي غـده، وهـو مكلـوم، مجـروح، مهمـوم بأختـه هـدى، الثكلـى التـي فقـدت فلـذة كبـدها بعـد أن ثُيِّبـت، مصـطفة ضـمن قائمـة المنكوبـات، المنكسـرات، اللـواتي ذقـن مرارة الفقد والخذلان.

فـي أمـس القريـب شـيع حسـن ثـم والدتـه ثـم صـفاء، واليـوم يـودع عـامر، الوقـائع مسـتمرة فـي طـابور لـن ينتهـي، طالمـا المحتـل موجـود يـتهكم بالمسـاكين مـن أبنـاء الشـعب، الـدائرة لـن تقـف عنـد حـد معـين وتلـك الأزمة صار لها أذرع وأقدام عديدة ونفوس متشعبة تتبع الثأر.

بـدأت أم محمد تفكـر بـأمر زوجهـا وأبنهـا، بـات الوجـل يعتصـر قلبهـا خوفـا عليهـا وعلـى أبنهـا وزوجهـا مـن غـدر الأيـام، مـا انفكـت صـارت تحـذر أبنهـا مـن الخـروج وتحـذر زوجهـا مـن التـأخير فـي أوقـات المسـاء. كأنهـا قـد أصـيبت برعشـة الـوجس والتحسـس بالحاسـة السادسـة أو السـابعة أو الثامنـة ومـا إلـى ذلـك مـن ظـن مخيـب مريـب أخـتلط عليهـا وراغ بهواجسـها؛ بحيـث تحولـت صـيغة مشـاعرها مـن وهـدة الفـرح والتفكيـر والتفـاؤل بالمسـتقبل لوهـدة التحسـب والمجانـة والخـوف، لكثـر مـا باتـت تسـمعه مـن قصـص قتـل وتنكيـل هنـا وهنـاك

وما لحق بهم من جزل وعناء وقدر. صار العنف لن يقف عند حد معين، قد يشمل جميع الطوائف والقوميات دون تمييز، ناهيك عن أخبار الخطف والقنص والملاحقة وطوفان الجثث المجهولة في الأزقة والطرق والتنكيل اليومي بالمجتمع العراقي من قبل أطراف مجهولة الهوية عبر السطو المسلح العلني والمخفي...الخ.

الوضع بئس كثيرا، أضحى البلد مفتوح بلا حدود، دخل الموت زاحفا بكل الاتجاهات، عمّ الجميع، لا فرق بين أسود وأبيض إلا بالتمحيص والتدسيس.

بعد أن وجد المحتل مقاومة شرسة من قبل الطائفة السنة، مال إلى جانب الطائفة الشيعية وبالذات لهؤلاء المحسوبين على زرع الفتن وتوسيع الهوة بين أطياف المجتمع العراقي لنيل المناصب، نتيجة اشتداد المقاومة الجسورة في المناطق السنية، إلا أن انخراط بعض عناصر الشيعة الوطنية ضمن المقاومة السنية وخاصة في الناصرية والبصرة، أضاعت عليهم حسبة خرز المسبحته.

وكما أجتمع الجميع في تأبين حسن؛ اشترك الجميع في تأبين عامر أبن الثامنة عشرة سنة، سند أمه الوحيد، حيث ودع لمثواه الأخير على ديدن والده.

خلال تواجد ابو عادل في المأتم؛ دار حديث عن الأوضاع بينه وبين قاسم متأسفا على ما جرى له وهو يقدم عزائه له.

- الله يستر يا أبو محمد من هذا الكابوس الذي حل على العراق، لا أظن ستنجلي هذه الغمامة قريبا، ولا أظن ستسلم جرة عائلة منا من المصائب الدائرة في البلد. الدور آتٍ على الجميع، والله أعلم على من يكون الدور القادم، دور من سيكون الأقرب وخاصة تكاثرت فرق الموت والميليشيات المدعومة من الخارج.

- ذلك ما كنا ناقشناه بعد سقوط التمثال، ذلك ما كنت أخاف منه وأناقشك به، ها قد انحدرنا سريعا في هذا الركب..
- نعم كنت على حق؛ باتت العناصر الغريبة تتجمع على الحلوى كالذباب، كل من هب ودب ولبس عمامة أنشأ له عصابة وصار يهدد بها صفوف المجتمع، الكل في إطاره الخارجي يدعي الوطنية وفي قرارة نفسه يخطط للعدوان والسرقة، والنهب، والتطرف، واعتلاء المناصب. الكل على يقين بما يجري من تخطيط وتنكيل مدروس من قبل أجندات خارجية.
- وأين نحن من ذلك يا أبو عادل؟ الأمور تعقدت، أصبحنا في تيه نترجى الأمن والأمان من انفسنا وجيراننا... سابقا قالوا أن ضاق بك الدهر ودعتك الحاجة إلى المعونة فأستعن بجارك. وقال الرسول ﷺ " جارك ثم جارك ثم جارك ". ولكن في هذه المحنة صار الجار يخاف من ظل جاره. أنها النكاية، أنها الكارثة، الظرف توشح بالوحشية، صار يكشر عن أنيابه، ما أن تغفل عنه؛ حتى يفتك بقامتك وينهبك.

كأنه بكلامه لسع أبو عادل على جريرته في سرقة خروفه، كأنه رماه بحجر فأصابه وأن لم يظهر ذلك على محياه.

- صدقت؛ تغيروا الناس كثيرا، ولابد لأصحاب العقول والمشايخ ورؤساء العشائر من إيجاد وسطا يشد أزرنا ويعينوننا على وحدتنا. التحلي بالصبر والتشاور في أساسيات القضايا وإعطاء كل ذي حق حقه، وعدم تهميش الأقليات كفيل بإعادة الثقة بأنفسنا.
- الله يعين الشعب المسكين، كنا نتأمل تغييرا ينقلنا إلى الأمام وينتشلنا من عصر الدكتاتورية، إلا أنه أعادنا لعصر

الظلمات والجاهلية، صرنا نتأمل عودة الدكتاتور على قرف التغيير الحاصل.

- الله يستر...الله يستر...أنا يجب أن أذهب للورشة، أستأذنك مع السلامة.
- مع السلامة.

بدأت المقاومة تتسع رقعتها، اشتد عودها، حتى باتت قوات الاحتلال تتذوق مرارة الهزيمة على يديها، وتترنح تحت ضرباتها الموجعة. ذلك "النصر" الذي أعلنه المجرم جورج بوش الابن رئيس امريكا يوم سقوط التمثال، بدأ يتلاشى في نظره ونظر العالم. لم يكن سوى رشفة عسل في كأس من العلقم، خدعة بصرية، سراب أغشت بصره وبصيرته وسط صحراء العراق القاسية.

صبر العراقيون على الجور والفقر، لكنهم لم يصبروا على الذل والهوان والعبودية التي سممت أرواحهم. لم يكن نصر المحتل سوى صورة انتقاها رئيسهم من بين صور العراق التي لم ينتبه عليها والتي لن تنتهي في تجديد سحرها، صور تمثل عمق التاريخ وواقع النزال في المراحل المتتالية، صورة واحدة حمضها وطبعها الاحتلال، بينما الصور الأخرى كان قد حمضها العراقيون بأنفسهم، بإرادتهم وعزيمتهم، لتروي عمق التاريخ وواقع النزال في مراحله المتعاقبة. ومع مرور الوقت، بدأ جنود العدو يدركون زيف الصورة التي اختارها رئيسهم بعد سقوط التمثال.

بدأت الخسائر الأمريكية تطفو على السطح كفقاعات المستنقع الذي غصوا فيه، رغم محاولات الإعلام طمسها. لكن الأصوات بدأت تعلو من داخل أمريكا نفسها، بعدما تحولت طائراتهم إلى نعوش طائرة تنقل جثامين قتلاهم إلى كنائسهم، فخيم الظلام على حياة الجنود وعائلاتهم، وعلى الشعب الأمريكي المغيب عن الحقيقة.

6

لقد تصرف قاسم بحسن نية حين اشترى بيتًا مرموقًا وسيارة جديدة، وغيّر واجهة دكانه، مطوّرًا عمله من بيع الأسمال وأطمار البالات إلى تجارة الملابس الجاهزة. جاء ذلك انسجامًا مع ارتفاع قيمة الدينار، وانفراج السوق أمام الدولار، والثورة الحاصلة في أسعار العقارات والسيارات بعد إلغاء شرط النظام السابق بشأن السكن في بغداد. لقد واكب قاسم هذه التحولات السريعة، مستثمرًا ما رزقه الله به من خير.

لكن هذا التغير المفاجئ أثار فضول المحيطين به. الكل صار يسأل نفسه: من أين له هذا؟ قسم من الناس وصفوه بالداهية، مستشهدين بالمثل الشائع: "ياما تحت السواهي دواهي"، أي أن هناك من يبدو ساكنًا بينما يخفي في داخله دهاءً لا يُستهان به. هؤلاء رأوا في قاسم أحد دهاة عصره. قسم آخر نظر إليه نظرة دونية، واعتبره من زمرة اللصوص أو المتحزبين. فالفقير إذا اغتنى، يشعّ، يلفت الأنظار، ويثير الريبة. وفي زمن مضطرب، لا يُتصور أن يحقق أحدهم ثراءً إلا إذا انتمى لجهة متنفذة أو تورط في أعمال مشبوهة.

التغييرات التي طرأت على قاسم جذبت الأنظار، وأثارت الحسد في قلوب كثيرين، من جيرانه كأبي عادل وأبي عصام، إلى معارفه وأقاربه، وحتى أصدقائه المقربين. جميعهم اصطفوا في طابور التساؤل خلف عبارة واحدة: "من أين له هذا؟" دون أن ينصفوه أو يمنحوه حق التقدير.

بعضهم اتهمه بالسرقة، زاعمًا أنه من الذين سطوا على البنوك. لكن طيبته المعروفة، وسنوات عمره التي قضاها باستقامة، تدحض هذه الادعاءات. فالناس يعرفونه جيدًا، ويعلمون أنه لا يمكن أن ينزلق إلى دروب الخسة والنذالة. الإنسان لا يبدل جلده في ليلة وضحاها،

حتى لو اضطربت أفكاره بفعل ظرف قاهر. تلك التهم الجائرة لا تليق به، ولا يقبلها عقل سوي.

آخرون ادعوا انتماءه لأحد الأحزاب المستحدثة، لكنهم أنفسهم لم يقتنعوا بذلك. فقاسم لم يكن يومًا مهتمًا بالأحزاب أو المناصب. لم يحمل السلاح، ولم ينخرط في أي فصيل. كان دائمًا يسير إلى جانب ظله، وقد نبذ حزب البعث القوي وتنكر لمبادئه، فكيف له أن يندس في ظل أحزاب مهلهلة؟

وهكذا، أصبح قاسم لغزًا محيرًا لكل من حوله. أكثرهم استغرابًا كان جاره أبو عصام، الذي يعرفه معرفة عميقة، كما يعرف أخاه جاسم وعائلته وأهل زوجته في مدينة الثورة. لطول العشرة، تلاشت الأسرار، وأصبحت مكشوفة للآخر كخط وهمي لا يخفى على أحد. ومع ذلك، ظل قاسم عصيًا على الفهم، كأنما يحمل في داخله أحجية لا تُفك.

في ظل ذاك الظرف أصبح ثراء قاسم لغزا محيرا للجميع، وبالذات لأبو عصام وأبو عادل ولأخيه جاسم الذي ناء خلف تسلق الأخبار التي يستقصيها من أعداء قاسم أو التي تصله بلسان شيطان أخرس دون أن يخطل ذاته في سلوكه وتصرفه.

لشدة حسد أبو عصام صار لا يركن على حجر، لا يخجل أن يسأل قاسم بصورة مباشرة عن أصل التغيير الذي طرأ عليه، مما صار يسلك طرق أخرى ملتوية للتحري عن أصل غناه. وتلك هي الطريقة التي ود بها كشف لغز قاسم واسراره.

طبعه الغلس جعله لا يستكين، حاول غز أخوه جاسم عسى أن يكشف له أسراره على قدر معرفته، أن يكشف له المستور والمخفي. لذا ران إلى تحريضه بشكل مباشر، عسى أن يستلهم من عبثه فكره تدله عن أصل الحقيقة، عسى أن ينوس بفُتاة أسراره

ليدرك نفسه وغايته. إذا ما توصل للغز قاسم؛ قد يعين ذاته ويلحق بركبه........

يا ترى كم يملك؟.

بعض الناس لا تستطيع كتم الغيظ في قلبها، فالشر يبان في الوجوه، يجري في العروق ككريات الدم الحمراء، حيث أن كتم غيظه قد يجن أو يمرض...

ذات يوم وهو يتجول في أسواق الشورجة، التقى صدفة بـ أخوه جاسم، ألتصق به التصاق اللُبان في أدمة الساق، قائلا له بغل وغيظ ونية فجة:......

- أيعقل أنت تدفع عربة في سوق الشورجة لتعيش بفُتاة ما تجنيه والذي لا يسمن ولا يغني من جوع، متحملا قسوة الظروف بهذا الشكل المتعب، الجسد مرهق والفكرٍ منهك وأخوك أضحى أحد أغنياء الحي، صار يملك من الثراء يعجز الأثرياء أنفسهم؟..... أخوك الذي لا يسأل عنك وهو يعيش عيشة المترفين المرفهين.. لا أدرِ كيف أغتنى على حين غفلة؟ تمكن من أن يقتني عجلة نقل وبيت مرموق في منطقة السيدية، كما غير أثاث المحل واستبدل تجارته القديمة ببيع الألبسة الجاهزة؟... يا ترى؛ هل عثر على كنز سليمان دون أن يخبرك؟ هل ورث مال قارون ولم يشركك فيه؟ لقد أصبح غنيا بيوم وليلة؟ بل أصبح أغنى رجلا بين معارفي.
- ماذا تقصد ؟ وكيف تغير حال أخي؟
- أذهب و أسأله عسى أن نفهم ونغير أحوالنا نحن أيضا.. هههههه (نائم ورجليك بالشمس) ههههه، تغير حال أخوك، لم يعد يبيع البالات، بل أصبح يتاجر بالألبسة الجاهزة الجديدة. كما سمعت وبل تأكدت بأنه قد أقتنى قصرا ذو طابقين في

منطقة السيدية بـ 150 ألف دولار، وأقتنى سيارة فارهة، والله أعلم ماذا بعد ذلك لا أعلمه في الخفاء؟. وأنا لا أصدق زعمه من أن مسؤولا في أمن الدولة طلب منه تشغيل أمواله وشراء عقار له باسمه ليبقى بعيدا عن الانظار في الخفاء.

كان لأبو عصام أبن عم يشتغل دلال عقارات في منطقة السيدية، وقد ذكر لأبو عصام قصة جاره الذي أقتنى قصرا في الدورة دون أن يكون قاسم على دراية بصلة القرابة بين ذلك الدلال وأبو عصام. هذا ما أكده أبو عصام لجاسم على حقيقة امتلاك قاسم لعقار وعجلة.

- لا أدري عن ماذا تتكلم؟ أنا لم أزر أخي منذ فترة طويلة، ومن قال لك عن تلك الأخبار.
- الدلال الذي باعه القصر أبن عمي، هو الذي أخبرني بتفاصيل عملية الشراء، أتريد أكثر من ذلك دليلا.

وكأنه لم يهتم لحديثه، لذا ترك أبو عصام يثرب ذاته وهمَّ يتحرى عن رزقه بين زحمة الفوضى الدائرة في شوارع الشورجة، يدفع عربته دون أن يبالي بحديث أبو عصام، وكانه لم يسمع شيئا منه، كأنه لم يتأثر بحديثه ولم يعر لثرثرته ولغطه أية أهمية، ولا لغنى أخيه ولا لأمور الدنيا. تركه وسار في طريقه دون أيَّ اهتمام تاركا أبو عصام يحتار بأمره.

كما أن أبو عصام بات لا يجرؤ أن يسأل قاسم بعد أن أخبره بأن الأموال تعود لمسؤول ثري يعمل في أمن الدولة وممثلا لأحد الاحزاب المستحدثة، فهو لم يكن سوى وسيط يتصرف بأموال ذاك السياسي، وبأذن منه ولغاية في نفسه كي لا يفتضح أمره.

جاسم وأن لم يبدي اهتماما ظاهريا لما سمع من أبو عصام؛ إلا أنه في قرارة نفسه أمتعض عما سمع عن أخيه، أصابته الدهشة مما

يجـري فــي الخفـاء، أدرك أن مســألة بيــع العقـد التــي أدعـت بــه أم محمد؛ مـا كانـت إلا محاولـة ذر الرمـاد فـي العيـون، لـدرء الحسـد وأبعـاده عـن معرفـة الحقيقـة. فـي الوقـت الـذي أكرمـه أخـوه بــ 100 دولار ليشـتت ذهنــه ويبعـده عـن الملحــة اللجوجــة. لـذا قـرر أن يراقـب أخـوه عـن كثب، وليعرف أصل الحقيقة، وأصل غناه.

صار يكلم نفسه ويلوم أخيه وهو يتساءل مع نفسه:-.....

" فعـلا أنَّ أخـي قاسـم نـذل إن كـان قد عثـر علـى كنـز ولـم يشـركني بـه؟ قد يكـون أشـترك مـع عصـابة سـراق البنـوك!!؟؟... ولكـن هـذا هـو أخـي أعرفـه حـق المعرفـة، أنـه جبـان، لـن يجـرء علـى فعـل ذلـك، فهـو لـم يـذبح دجاجـة فـي حياتــه، أيمكنــه أن يرفـع سـلاحا بوجـه منـافس حـر شرس؟ إن لمْ تمنعه نفسه فأنَّ صلاته تمنعه.

لكنه بات يلعب بالدولارات!...

المســألة معقـدة، فيهــا ألـف أنَّ، فيهــا لغـز محيـر، أنــه بحـق أنــاني، أن كـان عنـده كـل تلـك الأمـوال ولا يعطـف بنـزر يسـير علـى أخيـه، لِـمَ لا يـرحمنِ مـن الـذل الـذي أنـا فيـه، هـذا العنـاء الـذي أتحسسـه فـي اليـوم الـف مـرة، مـن اجـل الظفـر بلقمـة عـيش كريمـة، لِـمَ لا يتصـدق علـيَّ ولا راع أمه قبل وفاتها...

.. يبقى يدور في خلدي سؤال المحير؛ يا ترى:...

من أين له كل هذا؟

لِمَ لا يرفع عن كاهلي ثقل الزمن؟

لمــاذا كـل هـذا التجنـي وهـو يـدرك اساسـي الهـش؟... ألـم يـر أشـحت بروحـي وجسـدي فـي الشـوارع مـن أجـل لقمـة عـيش كريمـة، هـل لأنـي أعتبــر غيــر ســوي الســلوك فــي نظــره، هــل لأنـــي اتعقــب الحانــات

والبارات؟ هل لأني تعودت أن أسكر من حين لآخر لأنسى همومي؟......

ماذا أفعل؟...

ما أفعله بنفسي؛ أفعله نتيجة الهم والغم الجاثم على صدري، لولا سقم الحياة والفقر المدقع الذي يأويني وأويه ما تجاوزت القواعد التي يؤمن بها، ما تمسكت بهذه الوحدة التي جزلت مشاعري وقوضت ذاتي؛ ما تتبعت الموبقات التي عبثت بحالي....

يا ترى؛....هل يعَتبر هذا إسراف أم تفريط أم فتور أم إنصاف وعدل من وجهة نظره؟ أم قدر مكتوب من وجهة نظر الدين والشرع والقانون وعدالة المجتمع بأن يغتني أخي ولا يود تجنيبي هاوية الفقر؟.....

لماذا أخي يقصر معي؟ لماذا يغيظني ويكرهني؟ أنه في طبعه إنسان طيب، سلس، إلا معي، لا يعترف بي أخ له، يشمئز من وجودي في حياته، لمْ يفكر بي قط...

دعني أتحرى أولا عن مصدر رزقه وعسى أن يكون لنا منه نصيب، دعني أكون بعيدا عن الحدث وعن الواجهة، لأني لو تقربت من حدوده شبرا؛ لأبتعد عني الف متر. باقترابي منه سأبتعد عن الحقيقة تماما، مثلما مثل عليَّ وأبعداني فيما سبق. ربما الحقيقية هيَّ التي ستتماهى أمام عيني لتضيع في ثرى الأوهام والعراقيل التي يحرثها أمامي، حينها لن أدرك ما رمى إليه أبو عصام ولربما سيبتعد قاسم عني اميالا لينبذني. أنا أشم رائحة نفسي الكريهة، فلا أحد يستسيغ وجودي، لا أحد يحب لي طرفا في هذه الدنيا، ولا أحدا يبغي لي خيرا فيها؛ حتى هذا المعتوه أبو عصام - لم يخبرني الحقيقية إلا لغاية في نفسه."

صار يحلل الوضع كما يشاء ويرى من وجهة نظره الأحداث بمخيلته ليغوص في تلك المتاهة بين اشواك الحقيقة وأكمة الشك، بات يمضي مع الصوت الذي يقرع في داخله ويجلجل كيانه، بات يزجل أسبابا ويرجئ قراءات يقتنع بها ولا يقتنع!.. هكذا شغل نفسه في ذلك اليوم بعيدا عن ساحة الأخوة والرضا، بعيدا عن أفق ما يجمعه مع أخيه، حيث نغزة أبو عصام لا تنفك عن ذاكرته قط.

في تلك الفترة شاعت مسألة الاختطاف والتنكيل والقتل على الهوية، وملاحقة شلة الأغنياء والتجار وأصحاب الملايين منهم، كما طفحت عقدة الطائفية بعد المداهمات والاعتقالات التي تعرضت له شرائح المجتمع من قبل القوات المحتلة والمليشيا الساندة لها على مساحة الوطن، بحجة قمع عناصر مقاومة المحتل الغاصب.

كثرة الأحزاب والميليشيات والشعوذة الدائرة في المجتمع؛ نخرت جسد العراق، كل صار يشد الخرقة من جانبه، هكذا تمطت خريطة العراق بين الايادي العابثة حتى تهتكت وتمزقت كحالة فكرية وكقيمة وطنية، شُطت بين أيدي المتطرفين والطائفيين والقوميين والعابثين واللصوص، كلٍ صار يعد ذاته لأجل غاية في نفسه وعلى حساب حقوق الآخرين والوطن الموحد، تلك المنغصات أججت نار الفوضى، لتبسط تلك القوى هيمنتها فوق كل المجالات، وليمتد الاحتلال دون رادع في كل الزوايا، حتى تسلل لداخل الأسر.

في تلك الحقبة بالذات؛ بات جاسم يفكر بمراقبة أخيه ومحاولة استنزافه بشيء من تلك الشعوذة المراءة للجميع، بالاعتماد على طرف ثالث يدخل أجواء اللعبة، ليتمكن من تقصي أسرار أخيه. وعسى أن يجد له مقعدا في مركبة التغيير الجاري لتغيير مجرى حياته.....

الفصل الرابع

1

منذ أن علم جاسم بأن أخاه قاسم قد أصبح ثرياً فجأة، بدأ يتتبّع أثره بصمت، يبحث عن سرّ هذا التحول الغامض، متخفياً خلف صداقته بجعفر ورشيد، دون أن يترك لهما ما يدل على صلة القرابة التي تربطه بقاسم. كان يتقصّى، يراقب، ويجمع الخيوط، دون أن يشعر أحد بأن الشخص المراقَب هو أخوه من أمه وأبيه.

خطط جاسم بحرفية عالية، مستغلاً الفوضى التي تعمّ البلاد كستار لمخططه. لم يكن لقاسم دراية بأصدقاء أخيه، لذا حين شرع في تجديد دكانه وتحديث ديكوره وتجديد بضاعته، استعان بعدد من العمال، كان من بينهم جعفر ورشيد. أسند إليهما مهمة نقل الملابس والأحذية من الشورجة، فاطّلعا على حجم الإنفاق وكميات البضائع، دون أن يدركا أن صاحب الدكان هو أخو صديقهما جاسم، ودون أن يعلم قاسم أنهما من أقرب أصدقاء أخيه.

كل تلك المعلومات وصلت إلى جاسم، الذي طلب منهما مراقبة قاسم عن بعد، دون أن يبوح لهما بغايته. حين بدأت الحقائق تتكشف، أصيب جاسم بالذهول، وبدأ يصدق كل ما يقوله أبو عصام عن قاسم وتحولاته.

لكن السؤال ظلّ يؤرقه: ما سر هذا التحول؟ كيف انتقل قاسم من الفقر إلى الثراء؟ من شخصية مهزوزة إلى رجل له هيبة وكيان؟ من أطمار البالات إلى ملابس البرادا والبربري؟ .... من يقف خلف هذا التغيير؟ ولماذا لم يشركه في هذا التحول؟ هل هناك ممول مجهول؟ وهل هذا الممول شخصية نافذة؟ وزير؟ رئيس وزراء؟ أم مجرد لص من لصوص المرحلة؟ كل هذه الأسئلة كانت تتلاطم في

ذهن جاسم تغذي شكوكه وهواجسه، وتزيدها روايات أبو عصام الذي أشار إلى أن الممول ينتمي لمدينة الثورة، وربما للتيار الصدري أو أحد الأحزاب الجديدة التي تسنّمت المناصب بعد سقوط النظام.

جاسم، الذي يعرف أصل أهل زوجته وجذورهم الفقيرة، استبعد أن يكون الغنى قد جاء من تلك الجهة. فهؤلاء لا يملكون سوى الفاقة، ولا يرتقون إلى مستوى الثراء إلا إذا كانوا جزءاً من عصابات سرقة البنوك، وهو أمر لا يصدقه.

الإشاعات كانت تشير إلى أن سراق البنوك غرباء، دخلوا من خارج الحدود أو نزحوا من الشمال أو من تركيا والأردن، أو من أحياء شعبية مسحوقة في بغداد. وجوه غريبة، خلقتها الفوضى، واستغلت انهيار النظام لتنهب وتزرع الرعب. بعضهم مدعوم من قوى داخلية وخارجية، وآخرون من عناصر الأحزاب الجديدة التي بدأت من الصفر، واستندت إلى أبناء الفقراء الذين شلحتهم الظروف مبادئهم.

ربما قاسم مستند إلى جدار قوي، يحميه من عبث المجرمين، ومن غايات المحتل، وربما هو جزء من منظومة أكبر، تحركه وتوجهه من خلف الستار. لكن جاسم، رغم كل هذه التحليلات، ظلّ يتأرجح بين الحقيقة والخيال، بين الشك واليقين، دون أن يصل إلى جواب قاطع. ظلّ يردد في نفسه:.....

من أين لقاسم كل هذا الثبات والثقة؟ كيف لصعلوك أن يتحول إلى شخصية مرموقة؟.

حينها فكّر جاسم أن يجرّب أخاه بعملية صغيرة، لكنها عميقة الأثر، تهز كيانه من الداخل، وتكشف له ما خفي من أسراره، وتفضح أصل غناه، وتزيل الغبار عن وجه الحقيقة. أراد أن يقرأ دفاتره

المغلقة، أن يعرف الشخصية التي تسنده، واليد التي تضع المال في جيبه، والقوة التي تحميه وتسنده، وكل ما يحيط به من غموض.

كان يرى أن قاسم هو من جنى على نفسه، يتساءل في نفسه: لماذا لا يفشي سره لأخيه؟ لماذا لا يرفع من شأنه؟ لماذا يتركه يتخبط في فقره بينما هو يرفل في النعيم؟ هكذا ظل يفكر، بين أن ينساه أو أن يتجرأ عليه، بين أن يصفح أو أن ينتقم. لكن الظرف لوى فكره، جعله أشبه ببرميل نفايات، ممتلئ بأفكار القبح والقدح، نتيجة القيح والسموم التي لقّحه بها أبو عصام من جهة، والغيض المتراكم في صدره من أخبار رشيد وجعفر من جهة أخرى.

هكذا جنحت نفسه نحو فكرة الابتزاز، وبدأ يناقش أمر خطف عزيز قلبه، ابنه محمد، مع صديقيه جعفر ورشيد، دون أن يكشف لهما عن صلة القرابة. أراد أن تكون تلك العملية هي الشوكة التي يغز بها بلونة أخيه، غزّة واحدة تفشّي أسراره، وتكشف المستور، وتفضح ما خفي، لأنه يعرف جيدًا ضعف أخيه وهشاشة الوسط الذي يعيش فيه، ويؤمن أن هذه الضربة ستجعل كل شيء ينكشف.

حين يتغير لون الجو داخل البيت من فاتح إلى قاتم، من براق إلى رمادي أعتم، ستبرق الشرارة وسط تلك الظلمة، وتفضح جريرته، وتفصح عن الحقيقة المخفية التي لا يعرفها أحد. سيتبيّن على سجيته، مع دخان اللغز المنبعث عاليًا في فضاء سمائه، حينها سيرفع القناع عن وجهه، وتنكشف أسراره دون أن يبذل جاسم جهدًا يُذكر. إنها لعبة الأذكياء، لعبة لم يجربها من قبل، لكنه قرر أن يلعبها مع أخيه حتى يستنزف أمواله، ويكشف عن كل ما يملك.

رأى في العملية تجربة كيميائية صرفة تبين نوع المواد المتفاعلة مع أخيه، أشبه بورقة كشاف تكشف قاعدية أو حامضية العناصر،

أراد أن يعرف طبيعة التفاعل داخل البيت وخارجه، ولونه، ودرجة حرارته النفسية. وقد اتفق مع صديقيه سرًا على موعد تنفيذ العملية.

كانت المدارس قد أعادت فتح أبوابها لبداية سنة دراسية جديدة، رغم التأخر الكبير عن موعدها بسبب ضبابية الأجواء، وضعف الأمن، والاحتلال الذي حلّ بالبلاد. وعلى الرغم من أن الدوام كان مهلهلًا، والحرائق مستمرة، والمقاومة تشتد، إلا أن الطلبة كانوا يتمسكون بكرسي المستقبل، لا يريدون أن تضيع سنة من أعمارهم الدراسية، رغم تنامي فوضى الطائفة في البلاد.

كان محمد لا يزال طالبًا في المرحلة المتوسطة، لم يكمل الصف التاسع بعد. وفي ظهيرة أحد أيام تشرين من عام 2004، وبينما كان عائدًا من المدرسة، وقبل أن يلج دهليز زقاق محلتهم، تمكن رشيد وجعفر من استقطابه، كتفاه بسرعة، ودفعاه إلى جوف تاكسي أُعد مسبقًا للعملية. دلقاه للداخل، ثم أردفا الباب بقوة، مشهرين في وجهه شفرة سكين حادة.

- اسكت وإلا تقتل، لا تخف لن نؤذيك.
- من أنتم وماذا تبغون مني؟
- ليس لنا معك حاجة، أنما أبوك قد غشنا وعليه استرداد أموالنا، لا تخف.

اشترك معهم في عملية الخطف المدعو سجاد، صاحب التاكسي، وهو ابن عم جعفر. تم نقل محمد بعجلة سجاد إلى بؤرة الجريمة المجهولة في الحسينية، شمال بغداد، في منطقة نائية يصعب التحري فيها، لما لها من عشوائية وتداخلات يصعب فك شيفتها.

عُصبت عيناه بقطعة قماش سوداء، بعد أن عُقص داخل العجلة، ثم نقل إلى سرداب بيت جانبي معزول، مفروش بالحصير، وبطانية قديمة، ومخدة بالية. هناك، في ذلك السرداب، بدأت فصول اللعبة،

لعبة الظلال، لعبة كشف الأسرار، لعبة جاسم الذي قرر أن يفضح أخاه، لا ليعرف فقط مصدر غناه، بل لينتقم منه.

ما أن أدخل إلى السرداب، حتى صفعه احدهم بكف على وجهه ثم سأله..

- قل لي وإلا قتلتك الآن، كم يملك أبوك من مال؟ ومن أين حصل على أمواله؟ كم يملك ذهبا؟ من الرجل الذي قدم له المساعدة؟

أثرت به الصفعة بعد أن طرحته ارضا، صار يبكي ويولول مجيبا....

- عن أي مال تتحدث؟ أنا لا أعرف شيء عما يملك أبي وعن ما تدعيه؟.

تركه يأن ثم اتصل رشيد بالسيد قاسم هاتفيا بعد أن أخذ رقمه من محمد، ليخبره بأنه تم اختطاف أبنك محمد، وأمامك فرصة إنقاذه مقابل ثلاثة دفاتر، أي (30000) الف دولار...ترسل بيد جاسم إلى شارع السعدون، أمام صيدلة المنارة. ومن ثم نحن نتصرف معه بمعرفتنا. أعلم المدة أمامك أسبوع واحد فقط على تدبير المبلغ، أو ستذهب لمشفى العدل لتستلم جثة أبنك من هناك.

بعد أن أخبره أغلق الهاتف بوجهه، جعله يعيش حالة هذيان ويأس وقلق مر، حالة لم يمر بها من قبل قط، حالة سقم وغيض درأت صحته بوعكة كادت أن تقتله وتنهي وجوده.

أخيرا دارت الرحة ووصل الخطر لرجليه، بعد أن نال حسن وصفاء وعامر وسعيد وجواد ووو.... الخ نصيبهم. أخيرا التف

حبل المشنقة على عنقه، خيوط من قنب تعشقت بقدميه، دحرجتها رياح التغيير بصيغة ما، جردته من قيافته، دجنته بمتاهاتها..

بات قاسم يدور في دوامة الفوضى، مثقل الرأس، لا يهدأ له قرار، يتنقل كمن يبحث عن طوق نجاة وسط بحر هائج. بلغ به اليأس حدّ أن يستنجد بالشيطان ذاته لإنقاذ ولده من مأزقٍ غامض، فراح يفتش عن أخيه جاسم بين دهاليز الزمن وظلمة الظرف، غافلًا عن أن الخاطف الحقيقي لم يكن سوى جاسم نفسه.

بحث عنه في أسواق الشورجة المزدحمة، وفي زوايا داره، كمن ينقب عن إبرة ضائعة في كومة قش. اختفى جاسم كظلٍ تلاشى في صرة الغروب، تلك التي ابتلعته في عتمتها.

ظل قاسم يتأمل قمر أخيه بعيدًا عن البيت، كما لو أن الظرف الذي أظله قد أظل جاسم أيضًا في سباته. وسط الزحام الذي بات يعوق سعيه، لقد اختفى جاسم في مسكن جعفر، بعيدًا عن الشورجة وبيته، لثلاثة أيام متواصلة.

لم يستطع قاسم العثور عليه خلال الأيام الثلاثة الأولى. كان جاسم قد تعمد إخفاء نفسه، متقنًا دور البراءة والعفة ليخدع أخاه. لم يجد له أثرًا في بيته، ولا في أسواق الشورجة التي ظل يجوبها صباحًا ومساءً. كثيرًا ما كان يبيت خارج المنزل مع صديقيه جعفر ورشيد، أو يتسكع في الحانات ودور المباغي والدعارة، أو في النوادي الليلية التي باتت تعمل في الخفاء، والتي يجهل قاسم مواقعها تمامًا.

قبل حادثة الخطف بشهرين، تعرف جاسم على نرجس وسعاد، فتاتين أنهكهما الفقر، فدفعهما الظرف القاسي إلى الانخراط مع شلة الفسق في دور المباغي، بحثًا عن لقمة العيش. كنّ جميلات الطلة، يسكنّ حي الكمالية في أطراف بغداد. تعلّق جاسم بنرجس، الجميلة

ذات العينين الزرقاوين، والوجه المشرق، والشفتين المنتفختين المتدفقتين أنوثة، والقامة الرشيقة. بلغ به التعلق حدّ أن طلب يدها للزواج، لكنها رفضت، ساخرة من فقره، قائلة:

- تريث يا بغلي، عسى أن يغيّر الله من وضعك وشكلك المقرف، لأكون خالصة لك...

ضحكت باستهزاء، فهي فتاة لماحة، ذكية، تعرف كيف تثير من حولها. كانت قد دفعتها رياح الزمن إلى أحضان الدعارة بعد أن فقدت زوجها، ضابط الدروع، في معارك الاحتلال على حدود البصرة. باتت تعيش مع صغيرتها على فتات الذل والهوان، بلا معيل ولا تقاعد، حيث جرفها التغيير بعيدًا عن حقيقتها، نحو واقع الزنا، إلى جانب صديقتها سعاد، المطلقة وأم لطفلة في عامها الثاني، والتي لا يختلف حالها عن حال نرجس.

وفي اليوم الرابع، تمكن قاسم أخيرًا من العثور على جاسم، أو بالأحرى، خرج جاسم من مخبئه ليقابله عن قصد. حينها، أخبره بالفاجعة: اختطاف ابنه محمد، والمبلغ المطلوب لفك أسره. أبدى استعداده لتسديد المبلغ، مدّعيًا الحرص على إنقاذ الطفل، بينما الحقيقة كانت أعمق وأشد ظلمة مما بدا على السطح. عندها قال جاسم لأخيه:...

- لكن يا أخي أنا أعرفك حق المعرفة، أنت حافي القدمين. من أين لك ذلك؟ كيف ستدبر المبلغ؟ من أين لك كل هذا، أن كنت تستطع تدبير ذلك المبلغ، لم لا تساعدني أن أعمل معك؟ لم لا تفتح لي مشروع أرتزق منه لنعمل به معا، عسى أن أنزع عن جلدي لبد الفاقة؟.
- أي مشروع وأنت لست داري بحالك غارقا بكأس الخمر، منقاد خلف الهوس وأشكال العبث مع الغانيات والمومسات

مـن النسـاء دون أن تعيـر اهميـة لـذاتك. منزلـق بكـل شـؤونك فـي وهـدة الموبقـات.. ثـم المبلـغ الـذي تحـت يـدي لـيس ملكـا لـي أنـا، أنمـا ملـك شـخص مسـؤول فـي أمـن الدولـة، يخـاف أن يظهـر نفسـه أمـام المـلأ، لكـي لا تتشـبث باسـمه الـتهم، أسـتغلني وحاول تشغيل ماله معي ومع غيري.

- إلا تهـاب مـن أن يسـألك عـن أموالـه أيـن ذهبـت؟ وكيـف صـرفتها؟ ووووو...ثـم لمـاذا لا تسـتنجد بـه لينقـذ محمد مـن الخطف؟؟

- إلـى حيـث، وهـل هـو داري بنفسـه كـم سـرق!!! دعـه يقتلنـي، المهـم محمد يكـون فـي سـلام ويرجـع للبيـت. أم محمد بعـد أن فقـدت أخوهـا حسـن ومقتـل عـامر أبـن هـدى، قلقـة جـدا علـى مصـير أبنهـا، وأنـي أخـاف أن تصـاب بجلطـة، فهـي لا تكـف عـن الولولة والبكاء عليه ليل نهار.

ثـم أنـي أن اسـتنجدت بـه، لـن يسـتطيع مسـاعدتي، الأمـر خـارج إرادته، نحن نعيش في غابة فوضى.

- طيب وما هو المطلوب مني أن أفعله؟
- أن توصل الأموال للخاطفين.
- لم لا توصلها أنت بنفسك؟
- لأنـك شـخص معتـوه فـي نظـرهم، كسـيب، تعبـان، مهتـوك، لا تجلـب الأنظـار إذا مـا حملـت المبلـغ بيـديك، كـل الـذي يـراك سـوف لـن يشـك بـأمرك، سـيتوقعها اسـمالا مـن عهـدتك.... ثـم هـم طلبـوا منـي ذلـك، وكـأنهم علـى معرفـة بنـا، مـا عليـك سـوى الوقـف أمـام صـيدلية المنـارة فـي شـارع السـعدون، هـم سـيتعرفون عليـك، وأكيـد هـم يعرفونـك مثلمـا يعرفـونني، الموعد غدا الساعة الرابعة عصرا.
- وهل تثق بي أن أوصل المبلغ؟

- لا .... ولكن هم يريدون ذلك، ولا حل سحري تحت يديَّ!... ماذا تريد أن افعل؟ أأجرع السم وأسكت؟ ثم أن المختطف هو محمد، ولا أظنك تخلي بي وتتخلى عن محمد.
- أطمأن يا أخي أطمأن، غدا بإذنه تعالى آمر عليكم وقت الغداء لأوصل المبلغ إليهم مثلما ترغب. أطمأن؛ حتما سيعود محمد سالما معافى.

وفي اليوم التالي حظر جاسم لبيت أخيه، استقبلته أم محمد استقبالا مشرفا لأجل عين أبنها الغائب الحاضر، غائب عن العين وحاضر في القلب والروح، المثل يقول "تُكَرّمْ الدواب لأجل أصحابها".

كانت قد خلعت القلادة عن جيدها الناصع خوفا من لجلجة جاسم المقرفة، استقبلته استقبالا منيفا وبرقة وتوسل، شعر بالفارق الشاسع بين استقبال اليوم واستقبال أمس، أصبح ذا أهمية، هم من يبحثون عنه ويتوسلون به، الدموع تترقرق في محاجر الأعين، الآه تكاد لا تهدِئ من الهم وشفط الأنفاس، من الشجن المسيل في الوجوه والرعب اللائذ في النفوس، يكاد الهوس يتبع سجدة الروح الحائرة بذات شؤم نعيب الغداف..

بعد أن تغدى وقرب موعد التسليم، قال جاسم لأم محمد ...

- والله لن أسلمهم المبلغ إلا ومحمد في يدي، أطماني، هؤلاء الأنجاس لابد لهم من قصاص، لابد أن تنكشف أساليبهم الخبيثة، مجرمون، لا يعرفون حدود الله، أين سيذهبون من عقابه، حتما سيعريهم الله يوما ما، ستنكشف أوراقهم وأساليبهم الخبيثة، حسبي الله ونعم الوكيل.

خرج من البيت وكأنه بريء لا صلة له باختطاف محمد، ولا علاقة له في تأجيج القضية، خرج بنفس المنتصر وهو يحمل كيسا أسودا (كيس نفايات) لف به المبلغ ليدرأ عنه الأعين، ليسلم من لغز الشك

والمعاينــة القبيحــة، متجهــا لشــارع الســعدون للقــاء الخــاطفين أمــام صيدلية المنارة حسب المخطط الذي كان قد أعده ورسمه.

لـم تمـضِ سـوى دقـائق حتـى وقفـت أمامـه عجلـة تكسـي صـعد بهـا ومـن ثـم توجـه إلـى الكـرادة... وبعـد سـاعة الخامسـة مسـاءً تـم أطـلاق سـراح أبـنهم محمد، بعـد أن عصـبت عينـاه بقطعـة قمـاش سـوداء ومـن ثـم وضـع فـي جيبـه مبلغـا قـدره عشـرة آلاف دينـار أجـرة طريـق، كـي يسـتدل بهـا طريقه ويعود للبيت بسلام.

تــم أنزالــه فــي منطقــة نائيــة جنــوب مــرأب النهضــة، والتــي لا تبعــد كثيـرا عـن سـكناهم، ليسـتطيع العـودة بيسـر للبيـت، ولتكلـل عـين والديـه بالفرح المنغص.

2

أضحى الحسد طابعًا ولونًا وهوية لأبي عصام، حتى غدا صيت السيد قاسم طبلة تُقرع في كل مكان، يتردد صداه في المجالس والأسواق، جعله علكة يمضغها في حديثه، يتسلى بها في كل محفل، حتى صار شغله الشاغل، يؤرقه ليلًا ونهارًا. لا ينفك يسأل عنه من هبّ ودبّ، يستفسر عن أصل غناه من كل من له صلة أو معرفة بقاسم، يطرق أبواب المعارف والجيران، يسأل أخاه، أصدقاءه، الناس، الولدان... ولو أتيح له أن يسأل الشيطان لفعل، فقط ليُرضي ذاته المتعطشة للوصول إلى مبتغاها.

غدا همه الأول معرفة سر غناه، أن يفك أحجية لغزه المحير، ذرب لسانه بمفردات الحيرة والعجب، ودّ أن يضع حدًا لحيرته، أن يعلم مصدر علاقاته وسر رزقه ومكانته. صار يسأل ذاته ويجيب:

" كيف استطاع أن يصبح غنيًا في ليلة وضحاها؟ كيف انتقل من قنفذ يعيش في الكور إلى بعبع تهابه الناس ولا يجاريه أحد؟ إنها مسألة محيرة.

كيف بدّل أجواء ترحه المتوشحة بالغم إلى أجواء فرح وسرور؟ كيف طوّر دكانه من خبب وأسمال إلى أناقة وذوق وكرستال؟ كيف تجاوز مستنقع الشح ليرتقي سلم الرفاهية؟ من ذا الذي أغشي فيه ومد له يد العون؟ كيف تحول بهذه السرعة من رجل محنط بائس إلى رجل مترف، شريف، ميسور الحال، يحسد الناس طلته، ويستمع القاصي والداني لعلعة صوته؟"...

ساخت أهواؤه، جنّ جنونه، اغضنت عيناه، بات يردد مع نفسه كلامًا بين الحين والحين، والحقد يدور في رأسه:

" هـل يمكـن أن يكـون قـد عثـر علـى كنـز سـليمان؟ هـل توصـل فعـلًا إلـى لغـز السـلطة؟ كيـف تعـرف علـيهم وهـم غربـاء؟ وهـل هـذا زمـن يـؤتمن فيـه أحـد؟ ليـأتي شـخص مرمـوق، مسـؤول، ميسـور الحـال، سياسـي مقتـدر كمـا يـدّعي قاسـم، مـتحكم بضـلع مـن أضـلاع السـلطة، ويـؤمن مالـه عنـد شـخص تافـه، رذيـل، صـعلوك مجهـول كهـذا؟ هـل هذا معقول؟ هل يدخل في مجال العقل والنقاش؟"...

هكـذا جـره الهـوس إلـى دروب الخيـال. فلـولا الفـارق الزمنـي بـين الأمـس واليـوم لصـدقه وكـذب نفسـه! ولكـن لا بـد مـن سـر غـامض انتشـل هـذا المعتـوه مـن واقعـه المـذل، ورفعـه إلـى روابـي القـيم، حـاك بساط قدره برواق، جعله يتربع على كرسي الرفعة مرفوع الرأس.

فكـر كثيـرًا فـي ادعـاء قاسم، دون أن يصـل إلـى نتفـة تقنعـه بمـا تفـوّه بـه. تأكـد مـع ذاتـه أن قاسـم ودّ تظليلـه. عـاد يفكـر فـي طـرق غنـى قاسـم، وأصبح شغله الشاغل الذي لا يمل منه:

"هـل مـا يدعيـه قاسـم مـن أن رجـلًا مسـؤولًا فـي أمـن الدولـة مولـه بالمـال صـحيح؟ هـل المسـألة تـدخل فـي مجـال العقـل مـن حيـث قيمـة الفائـدة التـي سيجنيها مـن هـذا الصـعلوك؟ هـل قاسـم رجـل منـزه كـي أصـدق مـا يدعيـه؟ وهـل كـل مـا ذكـره يصـب فـي مجـال الحقيقـة؟ ربمـا موّه كلامه لغرض إبعادي عن طريقه.

وهـل يمكـن أن يتجـرأ شـخص مرمـوق، بمركـز حسـاس، أن يسـتند إلـى بـــائس مهتـــوك لتنميـــة ثروتـــه دون أن ينفضـــح؟ دون أن تفضـــحه الأهـواء يومًـا مـا علـى المـلأ؟ كيـف وضـع ثقتـه ومالـه بعنـق بـائس لا يسـتطيع الـدفاع عـن نفسـه؟ وإن كـان مقتـدرًا كمـا يـدّعي قاسـم، لمـاذا ينتشـل شخصًـا تعيسًـا مـن واقعـه المـريض؟ إن كـان هـو بذاتـه لصًـا وموارِبًـا، يسـتطيع سـرقة أمـوال الدولـة، فمـن أيـن جاءتـه النزاهـة

ونزلت عليه الرحمة؟ لا بد في العقدة ألف "إنَّ" و"لكنَّ"."....ثم هل يحتاج اللص أن يشغل ماله ليزيد غناه؟ هههههه... إنها نكتة.

المسألة محيرة، فيها الكثير من اللغط واللبس والنفس الشيطاني، والقليل القليل من صبغة الرحمن. ورغم كل ذلك، يبقى قاسم هو الشخص الوحيد المستفيد من المعضلة الدائرة حوله، الوحيد الذي حافظ على اتزانه بين معارفي، رغم أنه اختل بسلوكه في تعامله معي، إلا أنه بقي بذات العهن، يستمد صبره من ضعفه وشكمه."

هكذا أخذته الظنون، ظل يطرح الأسئلة، يحاول أن يستسيغ منها فكرة توصله للحقيقة، فكرة تبين له مسلك تأمين ذاته، ليغتني كما اغتنى قاسم، حتى لو تنازل قليلًا عن كرامته. استمر يحرث ذهنه في كل المجالات، ثم ردد قائلا:......

"هذا الشخص إطلاقًا غير مناسب لأن يُصَفْ مع شلة الأغنياء، تنقصه أمور جمّة، تنقصه الهيبة والنظارة وبعد النظر. ألا يمكن أن أكون أنا ذلك الشخص المناسب لذلك المترف الغبي؟ دعني أقلب المعادلة قليلًا لأيسر فهمها: ألا يمكن أن يكون قدر تلك الشلة التعيسة التي اقترنت بقاسم أن تقترن بحظي؟ أن تختارني أمينًا لها بدلًا من هذا المعتوه الذي لا يفقه شيئًا من أمور الحياة المستقيمة؟ أن نعمل معًا على سبيل التعاون المشترك وتبادل المنفعة التي أجيدها أفضل منه بكثير؟ فأنا أكثر شطارة ودراية وحركة منه في الأسواق، أكثر نباهة وحنكة وفكرًا في التعامل، حتى أكثر منه باعًا وعلاقات وخفة دم وشطارة.

قد تكون الاستقامة التي يجيدها قربته من أهل السلطة، ولكن كيف إن لم يكونوا هم بذاتهم مستقيمين؟ لا أدري إن كنت قد يسّرت الأمر أم عقدته، فالمسألة محيرة بالنسبة لي. لا أدري إن كانت العقدة

تكمن في عقلي أنا، أم في سلوكي ونمط معيشتي، أم في عقل ذلك المترف الغبي.

أرى هؤلاء الأغنياء، أو بالأحرى العميان، أغبياء جدًا إذا صح كلام قاسم، ضعيفي البصر والبصيرة. ألم يجدوا شخصًا أرقى وأفضل من هذا البليد، البارد، الذي لا يكش ولا ينش، ليكون أمينًا على أموالهم؟

ألا يمكن أن نستبدل الحظوظ قليلًا بيني وبينه ولو لفترة وجيزة، حتى أستطيع أن أجاري عسرة الظرف المحيطة بي بيقين أكثر جدارة مما أنا فيه؟

أراني أتسكع هنا وهناك، كي أخيط فتق جيوب الفاقة التي خلفتها الأنظمة السالفة فينا، والتي ما عادت تُغلق لتفي أفكاري وشطط بصيرتي، لأعيد إلى نفسي شيئًا من التوازن المفقود مع عجلة الزمن السريعة التي ما عدت ألحق بها.

ترى، أيمكن للحظ أن يستيقظ بلحظة غفلة، يلاطفني، يكلمني، أعاتبه برفق، ليشفق عليّ بجزء من كنز سليمان مثلما أسعف قاسم؟ أم أن الجيوب المفلجة كجيبي تخاف لسعة الغنى، فلا توطدها الحظوظ أبدًا، تهجس بها جيوب مخرومة تأويها العقارب؟ جيوب كريمة، تأبى أن تمتلئ بفتات الفضلات، تأبى أن تمسك بزمام الأمور وبثنايا الحظ.

ترى، من أين آتي بمصباح علاء الدين السحري ليكشف لي سر غنى قاسم؟ أين أجد ذلك المارد ليرفق بي بنصف ما أرفق به قاسم؟ الحكمة تقول: من بقي ساكنًا في محله، بقي متلحفًا بلحافه، بقي متخلفًا عن الركب، كما قالها قاسم بوجهي.... وها أنا لازلت في محلي القديم، خائف من الأجواء الباردة والحارة، أقف على ذات الحجر السليط، أنتعل ذات النعل القديم، أتأمل أن يغمرني الحلم

بـرذاذ المطـر، رغـم أنـــي أرى النـــاس تـركض مــن حــولي، تجــاوزت حـدودي، سـبقتني أذرعًـا وأميـالًا، وأنـا ذاك العبـد العنيـد، أتبـع أنفـاس هذا وذاك"...

صار يندب حظه، يلوم نفسه...

" كـــأني لــم أتعلــم الـــدرس ممـــا دار ويـــدور حـــولي. الوضـــع تغيـــر، والنــاس تبـدلت أســاليبها، وأنــا لــم أزل راكبًــا راحلتــي القديمــة، محافظــا علــى مســاري دون تغييــر، ازلــت علــى ماكنــت عليــه أرتجــي عطــف الســماء وتحقيــق المــراد، هــذا الأوضـــاع لا ترجـــي الخنـــوع. الآفـــاق متهيئــة للتغيــر بســبب ضــياع مفــاتيح الســلطة، بســبب احتــراق المبــادئ والقـــانون والعدالـــة بلظـــى المـــدفع، البلـــد يغلـــي تحـــت حكـــم الغـــاب دون شـــرائع وقـــوانين، حاويـــا الوحـــوش والتماســـيح والكـــلاب إلـــى جانـــب الأرانـــب والفئـــران.. لا أريـــد أن أبقـــى أرنبـــا أو فـــأرا بـــين أنيـــاب تلـــك الوحــوش. أن لــم تكــن وحشــا افترســتك الــذئاب. التمنــي واتأمــل ممكــن فــي وضــع الاســتقرار والســلام، أمــا فــي ظــرف العــراق فــأن الــرزق لا يـــأتي إلا ببـــذل جهـــد مضـــني، إلا بالقتـــل أو بالســـرقة أو بالنصـــب والاحتيال، أو أن تكون محظوظا كحظ قاسم.

هــذه هــي المعادلــة، ولــيس لهــا حــل وســط، الأمــور معقــدة أمــامي، تــود أنســـانا مـــن نـــوع آخـــر، جبـــارا، أنســـانا فضـــا، فضـــائيا، أكثـــر جـــرأة، وأكثــر صــبرا وصــلابة، أكثــر قســاوة وتجربــة وشراســة. تحتــاج لنــوع آخـرٍ مـن البشـر منـزوع العاطفـة والرأفـة، يحمـل القسـوة كسـيف بيـده.. أنـا لـم أقتـل حيوانـا فيمـا سـبق، كيـف بـي أقتـل أنسـانا؟ الأحـرى أن أنتمـي للمقاومة في قتل أعداء الوطن المحتلين على أن أقتل أبن بلدي.

لكــن فــي محاربــة المحتــل ســأضــع نفســي فــي بــين الفرضــة والشــعيرة، أضــعها فــي مرصــاد هــؤلاء المتنفــذين، ســألاحق مــن قبــل الجــن الأزرق والشــيطان الأحمــر، تلــك الميليشــيا الســائدة والتــي صــار عــددها لا

يحصى وعناصرها تجيش في الأرض كالدبيب هي يد المحتل الطويلة. لان المحتل لا يستطيع أن يصل لكل نقطة يريدها إلا بتضحية، أما الخونة تجدهم يجيشون في الأرض، تدافع عن المحتل لترتقي بأنفسها، بفرض هيمنتها.. فوجودها مرهون بوجود المحتل الغاصب. والاحتلال أيضا مرهون بوجودها.. كلاب سائبة تحمي بعضها البعض، تتجول في البلد هنا وهناك، تبحث عن ضالتها بين العيون الناعسة والنائمة، تلاحق المقاومين ومنتسبي الحكم السابق، كما تلاحق عناصر ضباط الجيش والمحاربين القدامى وكل قامة لها تأثير في الوطن، وهيَّ بذلك تنفذ أوامر أجندات وقوى خارجية لها مآرب في العراق....

إذا دعنا من المقاومة الغير مجدية مع الكم الهائل من معارضيها..... لا العمر ينفع ولا الجيب يقنع. كما أن عملية النصب والاحتيال تحتاج لشخص فطن وذو بصيرة ولباقة وشجاعة وقلب راكز وذا خبرة في المجال، وأهم نقطة في ذلك الخفة التي لا أجيدها والخبرة التي أفتقدهما، فالنظام السابق كان حاذقا وحادا مع هؤلاء الدجالين، ليست فيَّ صفة من صفاتهم.

أظن باب السرقة هو الأقرب إلي والأفضل والأسلم والأسرع والآمن على المدى القريب والبعيد"....

هكذا فكر وقرر أن ينفذ قراره حيث في قرارة نفسه حلل كل شيء لصالحه..فقال لذاته:......

" هناك من يحلل القتل، دعني أحلل السرقة لمرة واحدة في حياتي ومن بعدها أتوب، وعسى أن يعدل ميزان الحياة المائل بي منذ الصغر. عسى أن أعيش مرموقا بقية عمري، عسى أن أهيء مستقبل معطاء لي ولأولادي. نعم أنها أسهل الطرق وأقلها ضررا بحياة المتضررين وأقلها تأثيرا فيهم....

ثم يا أبو عصام؛ ماذا سينقص من رجل يملك الملايين إذا فقد ألفا أو ألفين؟.. لا شيء، أكيد لا شيء، أنها نقطة من بحر ... الغني سيبقى غنيا كما كان وقد لا ينتبه على مقدار ماله المفقود، بنفس الوقت أكون قد غيرت من وضعي البائس نحو الأحسن، أغير من وضعي من حال لحال أفضل. أما عرف المجتمع دعني اتخطاه لمرة واحدة.

أليس هذا تبريرا معقولا يا أبو عصام؟ ثم هؤلاء الأغنياء لشدة الجشع لا يتصدقون على الفقراء، دعني أعتبر ما أسرقه منهم هو صدقة من قبلهم، كلهم بخلاء...

وهل توجد عدالة في المجتمع كي أمنع نفسي عن الخطأ؟ أهجس بكل هؤلاء الاغنياء هم لصوص بطريقة ما، البعض يسرق الناس دون أن تدري، والآخر يسرق البنوك ويتاجر بالممنوع وينهب ما يغفل عنه الشعب...الخ".

"الخطأ صار سمة يتمثل بها الكل على الأطلاق، كل منا يرى المقابل على خطأ....هناك من هم أصحاب شهادات وعقول نيرة يسيرون في آخر الركب، خلف الرعاع، خلف العمامة أو خلف نصاب ومحتال ينير لهم دروبهم. هناك من لا يستحق الحياة وصار يلعب بمقدرات الناس وبالأموال كيفما يشاء.

ناس تدهن جلدها بالنعم، وناس تهرش جلدها من طفح الجذم.

لِمَ أمور الحياة تجري بطرق متعاكسة مع أُناس ومتوافقة مع أناس أخرين؟ البعض تعاندهم دنياهم، وآخرون تضحك بوجوههم أقدارهم..

دائما ما ترى هؤلاء مكللين بالزهو والغنى الفاحش في مقابل الذين يشحتون في الطرق، على الرغم من أنهم قد ابتدأوا حياتهم معا من

الصفر، من لا شيء، لكنهم تخطوا واقعهم، وخطوا حدود مستقبلهم بخطوط براقة لامعة.

أليست المفارقة واضحة؟ ترى هل لعدالة السماء وجود بين هؤلاء وهؤلاء؟ هل عدالة السماء لها موضع قدم بين البشر في ظل الفوضى الدائرة كفوضى العراق؟

سبحان الله لا أتدخل في حكمته، ولكن تجاوز ظلم البشر على عدالة السماء فأنسانا سره..

إذا يجب أن أكون جزء من هذه الفوضى، يجب أن أنتمي إليها كي أتجاوز أزمتي وأعيش مترفا بين البشر. يجب أن نلتف عليها قبل أن تلتف علينا وتضيق الخناق على أعناقنا، قبل أن نضيع تحت مداس أقدام الغرباء...

يجب أن أمسك بالعصا من منتصفها، بحيث لا استكين ولا أتهور، شيئا فشيئا اتجاوز قدري وأغير من مصيري، على أن أكون كتوما وأستر نفسي بالمحظورات...

يجب أن أتحرك عن موضعي كما قال لي قاسم، عليَّ أن أبدأ بأقرب نقطة لي.. دعني أجرب حظي بسرقة دكان صاحبي وغريمي السيد قاسم!، لقد أحرق قلبي دون أن يخبرني بالحقيقة، أنه أناني، لم يفكر بي كجار وصديق عمر حين أغتنى.. أنه لم يدلنِ على طرق السعد، دعني اكتشف الحقيقة أن كان صادقا معي في ادعائه أم هناك سرا ما يخفيه عني؟. لربما يحتفظ بالكنز في داخل دكانه، دعني أسرقه ودع الغني الذي يستند عليه يعوضه خسارته."

... بات يهيئ نفسه ويمهد الطريق أمام ولده عصام البالغ من العمر عشرين عاما، يقنعه بصفقة العمر. لذا أتفق مع سائق بيك آب يعمل بالأجرة على نقل بضاعة تخصه من منطقة الميدان لمنطقة

السيدية، علـى أن يحضـر لحمـل البضـاعة فجـر الأحـد فـي تمـام السـاعة السادسـة صـباحا أمـام محلـه لنقلهـا. كـون سـاعة الفجـر المبكـرة أكثـر أمانـا مـن التـي تليهـا، حيث بمعيـة لسعة البـرد الصـباحية تتجنـب النـاس الخـروج للشـارع، إضـافة لتخـوفهم مـن غـدر المـارقين والمجـرمين ومـن دهـم اللصـوص أو تـربص المـاجورين بهـم، مـن أن تكيـل بهـم عصابة ما فتحيل أملاكهم لخبر كان.

كما أن قاسم فـي تلك السـاعة يكـون متـدثرا بفراشـه، حيث أنـه تعـود أن يفتح محلـه بعد التاسعة صـباحا مـن كـل يـوم، هـذا سـيجعل العمليـة فـي مـأمن، وسـأحرق قلبـه عنـدما يـأتي صـباحا ويـرى دكانـه خـال مـن البضاعة والكنز الذي لا اعرف سره.

3

أتفق أبو عصام مع أبنه عصام على سرقة دكان قاسم فجر الأحد، على أن يحضرا إلى مكان الجريمة قبل ساعة الصفر - الساعة السادسة - بنصف ساعة على أقل تقدير، للاستحكام بالوقت ولكسر أقفال دكان قاسم قبل أن يحضر سائق البيك آب للنقطة المحددة المرادة، ليوهموه بأنهما ينقلا بضاعة دكانهما.

فعلا حضرا بالوقت المناسب من فجر الأحد، بعد يوم واحد من خروج محمد من شرنقة عمه جاسم الذي أودعه فيها. حينها كان قاسم لازال تحت تأثير صدمة اختطاف أبنه، لازال مجهدا نفسيا، مرهقا فكريا. لذا وجد ذاته بأن لا تستطيع متابعة رزقه في الدكان، في ذلك اليوم بقي جليس البيت، مانحا ذاته إجازة يناقش فيها أبنه عن الوجوه التي خطفته وعددهم وأعمارهم، إن كان قد شك بأحد منهم، إن كان عرف شيئا عن المكان الذي أودع فيه، والسلوك الذي تصرفوا به معه.

في صباح ذلك اليوم المشؤوم تمكن أبو عصام برفقة أبنه عصام من كسر أقفال دكان قاسم بيسر باستخدام منشار حديدي، وبعد دقائق من إكلال عملهم بنجاح؛ حضرت عجلة البيك آب لنقل البضاعة المراد نقلها، كان السائق منضبطا جدا بمواعيده بحيث حضر بالوقت المحدد..

طلب أبو عصام من السائق البقاء في العجلة لترتيب وتسفيط البضاعة في العجلة، فيما هو وأبنه صارا يتبادلان أدوار نقل البضاعة بشكل عبثي وعلى عجالة من أمرهم ودون تنسيق وترتيب ودون ضبها وحزمها في كراتين.

تم نقل معظم البضاعة المخزونة والمعروضة من دكان قاسم إلى العجلة. العبثية ظاهرة بوضوح على عملهم وسلوكهم، قلق بائن على محياهم، ارتباك ملازم لسلوك الأب والأبن نتيجة العجالة من جهة والرعب الكامن في دواخلهم خوفا من تفشي سرهم من جهة أخرى. وكأنَّ خلف هذه السرعة والفوضى التي كانوا عليها كائن شيطاني يحرك ذوائبهما، فيحثهما على الإسراع قبل أن يكتشف سرهم من قبل الجيران أو من قبل قاسم بذاته، عندها ستنطبق المصيدة على أعناقهم كفئران عاثت فسادا في الدكان...

كأنَّ عملهم مبني على استشعار داخلي ينبأ الخائف الفوضوي في عملية نقل البضاعة وما رافقها من عبثية واضحة بسلوكهم المخل.. ذلك ما جعل صاحب عجلة البيك آب يرتاب منهم ويشك بعملهم المختل والغير متزن نتيجة حالة المرج والهرج التي كانا عليها، مستغربا الحالة العشوائية التي تفرز بوضوح مسلمات الغاية المرادة من خلال طريقة نقل البضاعة الفوضوية وعدم ترتيبها. عدم الترتيب المسبق للبضاعة دون ضبها في أكداس وصناديق محكمة لتكون جاهزة وسهلة النقل؛ يدل بأنَّ الحالة غير طبيعية وقريبة من حالة السرقة، ربما هم في حالة سرقة حقيقة، في مهمة خطرة.. ربما يخافون من الحالة الأمنية المنفلتة، صيغة العجلة وحالة الارتباك الواضحة تدل على أنَّ الشخص موارب.

كان عليهم تجهيز البضاعة قبل يوم أو يومين من موعد النقل في كراتين محكمة وأكياس محبوكة لأجل أن لا تتلف خلال الطريق ومن ثم التخزين. لكنَّ العشوائية البائنة في نقل البضاعة توحي بأن البضاعة هي ليست بضاعتهم... ربما هم لصوص يسرقون الغير.

هذا ما طرأ على فكر سائق البيك آب.

ترى لم يورطون الغير إن كانوا لا يحسنون عملهم؟؟؟...

بات الشك يتلاعب في قلبه وفكره، تصرفاتهما توحي بأنهما مُجرِمَين.

لكنه لن يستطع أن يحكم جزافا، لا يستطيع أن يشير إليهما أو ينبس بشفة، لأنَّ ما تعتريه مجرد شكوك لن تصل ليقين مطلق، أضافة لذلك توقع اللصوص يتسلحون خلال عملهم، لذا ود تجنب الاصطدام بهم في تلك الساعة الحرجة، كما تجبب من أن يتهمهم أو يسألهم جزافا عما يفعلون، ولكن لمَ هذه العبثية في نقل البضاعة؟ فإذا ما سألهم؛ قد يفسروا سؤالهم بشكل آخر يدل على اكتشاف سرهم..... لذا فضل التمعن وتحمل الموقف وبيان استخلاص عملهم، وقد يعود في يوم آخر يستفسر عن حقيقة البضاعة.

وقبل أن ينهيا العمل من تفريغ محل قاسم من البضاعة المتبقية، باغتتهم عجلة بيك أب أخرى تابعة لأحدى فصائل المليشيات المسلحة.. وما أن ادركتهم حتى فتحت النار عليهم دون سابق إنذار... جرح السائق في ساعده ورجله... اصيب أبو عصام بإطلاقة في جبهته، على أثرها سقط مضرجا بدمائه أمام دكان قاسم دون أن يرمش له جفن.... فيما تمكن عصام من أن ينسلت من قبضتهم بين أزقة بغداد القديمة هاربا بدهاليز منطقة الميدان المتشعبة قبل أن ينتبهوا عليه، وقبل أن يكون ضحية أبيه هو الآخر.

بتلك العملية أنهى أبو عصام حياته نتيجة حسده وطمعه الغير محدود، كما يقول المثل "حسدهم قتلهم " فدفع عمره ضريبة غيضه وتتبعه لجاره بعد أن شغل فكره طويلا بتغير أحواله، فجنحت نفسه المريضة خلف ثروة قاسم، فتتبع غايته المسمومة حتى جنى عليه هوسه وفعله، كما جنى بدناءته على حياة سائق (البيك آب) المسكين بعد أن أعاقته رصاصة في قدمه.

العصابة التي أجهزت على أبو عصام كانت تجوب الشوارع بحثا عن الفرص المتاحة والمغشية بعتمة الغبش لاقتناصها، وكان من ضمن تلك المجموعة أبو عادل وأبنه..

بعد السيطرة على الموقف؛ تحول أبو عادل من عجلة (البيك آب) المسلحة إلى عجلة (البيك آب) المحملة بالبضاعة، لينطلق بها خلف العجلة المسلحة خلف مآربهم ومرأبهم الخفي.

كان أبو عادل قد تيقن من أنهم لصوص يسرقون بضاعة جاره قاسم، وهو يعرف بأن هذا الدكان هو دكان قاسم، لذا قرر قتل السراق في موضع الجريمة.. لكنه كفرد مستجد ضمن شلة العصابة لا يحق له اتخاذ قرارا لوحده دون أن يكون القرار لأمير الجماعة التي ينتمي إليها. هذا ما جعله يرضخ لقرار الجماعة بسرقة العجلة ببضاعتها دون أن يفصح لهم بأن صاحب الدكان المسروق هو وجاره قاسم.

ففي ساعة القسمة والمصير تحذف من قواميس الشخص العدالة والتعامل بصيغة الرحمة، حيث الرحمة لا يكون لها موضع سكن ضمن رفوف المجرمين، ولا جدوى من مجادلتهم بالأمر، لأنهم بطبعهم لصوص وحرامية وقتله مأجورين، فلن يتراجعوا عن الهبرة التي قدمت لهم...

عملهم هذا يدخل ضمن إطار الفوضى العارمة الدارجة في البلد، وقد سنحت أمامهم فرصة سهلة ومتاحة للاستغلال، فكان عليهم استغلالها استغلال حسن.. لذا حين طُلِبَ منهُ آميره قيادة العجلة المحملة بالبضاعة رضخ عن طيب خاطر، فقادها لمقر ميليشياتهم الكائنة في قاطع الكمالية.

مثلما أستغرب أبو عصام بتبدل أوضاع جاره استغرب أبو عادل أيضا بتبدل وضع قاسم بليلة وضحاها، مثلما كان للاستغراب

علامات مرسومة على وجه أبو عصام، وشمت تلك العلامة جبين أبو عادل، تطابقت العلامات والظنون بذات الوشاح والغرابة....

كانت قد جنحت نفس أبو عصام لسرقة جاره قاسم، كما جنحت نفس أبو عادل بذات الصيغة لسرقة جاره قاسم، الفرصة كانت قد حلت بين الأثنين بذات اللحظة والمسافة، بعد أن تبادلا الأدوار في لعبة تغيير المراكز. لا اختلاف بينهما سوى بالشكل فقط ، حيث أبو عصام بدا كأهبل في سلوكه، بنحافة جسده ونشاز طوله وبياض بشرته بان كأرعن، فيما أبو عادل الجعسوس، بقصر الجسد والبدانة التي يتميز بها وسمرة البشرة تهجس به شيطان أخرس.

الفرصة التي هيئها أبو عصام لنفسه، سطا عليها أبو عادل قبل أن ينفد زمنها، سرقها بذات اللحظة التي ود بها أن يفوز بها لينطلق خلف غايته المسمومة. الفرص كانت سانحة للأثنين معا بذات الحظوة، لكنها كانت أقرب إلى الأجدر. هيئها أبو عصام واستغلها أبو عادل، وفطين من يستغل اللحظة بوقتها بشكل تبعد عنه الالتباس، ونادرا ما تسنح لذات البائس الذي يرتاب من خيوط الشمس ان تكشف أسراره.

لقد وجد أبو عادل اللحظة المناسبة قبل أن يركب مركبها أبو عصام، ربما هذه اللحظة أدرجها الرحمن في طريق الأثنين ليفضح بها غاية ونية أبو عصام الذي خطط لها للنيل من صاحبه قاسم. ويغل ضمير أبو عادل، كونه عرف خسته ومقداره أمام نفسه التي تجاوزت الاخلاق، لم يكن قد جربها في واقعة تحدي سابقة.

الفرصة التي أودت بأبو عصام وعرت أبو عادل؛ كانت قريبة جدا من غاية الأثنين، وكانت أقرب للذي فطن في اللحظة الحرجة المارقة بينهما، لذا جنح إليها أبو عادل قبل أن يمسك بها أبو عصام ويفل طلاسمها. لقد وجد أبو عادل الحدث أمامه يشرح الحقيقة لذاته

دون عنـــاء وتمحـــيص، فـــانحنى لتفســـيرها، فاســـتعان برشاشـــته دون أذونـات وتقـديرات تؤجـل مسـعى قـراره. مـا جعلـه يميـل إلــى الفطنــة الجليــة، ليكــون الأســرع والأقــرب إلــى اللحظــة والفرصــة والبضــاعة مـن صـاحبه الـذي اسـتعان بالشـيطان علـى إتمـام سـرقته دون أن يجـده بقربه.

كـان قـد أبتعـد كثيـرا عـن الفرصـة بسـبب جشـعه وطمعـه الغيـر محـدود بتفريـغ بضـاعة المحـل عـن آخرهـا، ثـم بسـبب العشـوائية فـي سـلوكه المشـين الغيـر مـدروس، والفوضـوية التـي جـاء بهـا فـي تخطيطـه ونقلـه البضـاعة نتيجـة خوفـه جعـل الكـل يشـك فيـه.. لـذا قـرر أبـو عـادل بـأن لا يتخلى عن فرصته، فتمسك بها تمسك الأعمى بعصاه....

كــان حضــور أبــو عــادل فــي تلــك اللحظــة، قبــل أن يــتمم أبــو عصــام عمليــة السـرقة قـدرا إلهيــا.. كأنــه كــان مسـيرا مــن قبـل طاقــة خارجيــة، خارقــة، غيــر معروفــة المصــدر، لينــال أبــو عصــام جزائــه علــى فعلتــه الخسيســة.. طاقــة دفعــت بــه بســرعة تفــوق ســرعة أبــو عصــام، ليصــل الحــدث بالوقــت المناســب، ليكــون جــزء مــن آليــة الحــدث فــي موضــع الجريمــة، ليقــتص مــن أبــو عصــام علــى جريــرة نفســه الأمــارة بالســوء، ليفضـــح دنـــاءة نفســـه مـــن جهـــة و لينهـــي مسلســـل طمعـــه مـــن جهـــة أخرى...

ربمــا الله قــد هــيء لأبــو عــادل وزمرتــه السـبل ليصـلوا المكــان فــي الوقـت المناسـب وفـي اللحظـة الحاسـمة وإلا مـا معنـى وصـولهم المكـان بالوقـت المناسـب، ثـم لـمَ لـمْ ينحرفـوا عـن اتجـاههم الموافـق لاتجـاه ابـو عصــام قبـل أن يفلــت الخسـيس بفعلتـه الخسيسـة دون دليـل يلاحقـه.. لـذا كــان القــرار إلهيــا ليكــون عبــرة لمــن اعتبــر، وليــدرك قاســم مــن هــم أعدائه المحيطين به وإن كانت شكوكه دغدغته.

كمـــا أن بعـــض الأقـــدار لا تؤجـــل، وبعضـــها تؤجـــل حتـــى تكتمـــل فصولها.

"وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ" صدق الله العظيم

تركـت جثـة أبـو عصـام المسـجى مضـرجة بـدمائها، مطروحـة فـي الشـارع أمـام دكـان قاسـم المفلـوج كبنكـه (بابـه) حتـى قـدوم لجنـة التحقيـق، الـدكان الـذي خـلا مـن البضـاعة تمامـا، صـار شـاهد عيـان بنفسـه علـى فعلـة أبـو عصـام الخسيسـة، فيمـا نقـل سـائق البيـك آب مـن قبل أهل الخير إلى المشفى.

كمـا أن نجـاة عصـام مـن شـبح المـوت، هـو الآخـر بـات خيـر دليـل علـى تلطـخ يـده ويـد والـده فـي جريمـة السـرقة، كمـا كـان شـاهدا علـى بـراءة المجنـي عليـه سـائق البيـك آب مـن التهمـة بعـد أن تمكـن والـده مـن إيهامه بنقل بضاعته لمكان آخر.

سـجل بـلاغ السـرقة فـي مراكـز الشـرطة وتـم إسـعاف السـائق المغـدور من عاقبته.

كـان لسـرقة الـدكان وقـع آخـر سـيء أصـاب السـيد قاسـم فـي مقتلـه، وكـأنَّ للمـادة التـي حصـل عليهـا نفـس شـيطان، سـر جلـب لـه المصـائب، وكـأنَّ الأقـدار لا تبتسـم لفقيـر يعتلـي الصـرح إلا وفـي كأسـه تتجسـد مرارة العلقم ليتجرعها على مهل....

كـان قبـل ذلـك مسـتورا، معـافى، مرتـاح البـال، لا أحـد يفكـر بـه ولا هـو يفكـر بأحـد سـوى بتـدبير عِلّاقَـة البيـت. أمـا الآن فـأن القلـق بـات يسـري بفكـره ودمـه أشـبه بالسـرطان. لا يسـتطيع أن يضـع رأسـه علـى الوسـادة وهـو خـال مـن حشـرات التفكيـر والعقـد، إلا وتشـكمه مصـيبة ما تغز ذاته وتشغل باله وتسهد حدقاته.

قلقه ذلك زاد من وتيرة ضغطه النفسي، زاد من ارتفاع مخزون الادرينالين والسكري في الدم، جعله يهتز أمام ضعفه ووضعه المتقلب ومستقبله المبهم، مرتعبا من عمليات الخطف والسرقة والتنكيل الذي تعرض له والتي تكلل بها بشكل مناف لواقع غيره تماما.... ذلك ما استنزف طاقته وحوله لرجل مريض مهموم يسرط حبوب الضغط والسكر التي هرشت جسده بعد أن كان سليما معافى قبل عثوره على الكنز...

ربما ستتعقبه عمليات أخرى دون أن يدرك ذلك. هناك لغز لا يفهمه متعلق به أو بالمال الذي تحت يديه، بحيث اجتمعت عليه المصائب بغتة بعد عثوره على ذلك الكنز، جعلته يقلق من الوقع القادم، حائرا بكيفية المحافظة على ما تبقى من المال تحت يديه، أضحى يشعر بذاته أنه مشروع انتقام متداول بفكر المجرمين، معرض للاغتيال بالسيف أو بالعين الحاسدة، بات يشعر أنه ملاحق من قبل عدو مجهول يحاول أن يفتك به.

تلك الحالة أوصلته لدرجة الانزواء والعقد، خطرت في باله فكرة الهرب لجهة مجهولة، أن يهجر بغداد ليأمن حياته، لقد جلبت المادة عليه عناكب الحسد وعقارب الويلات وثعابين الجزع، لم يستطع مواجهة جيش الاعداء وحيدا.

عقد ومشاكل لم يكن يفكر بها أو ينتظرها، لقد أحتار في معالجة أزماته، تلك التي ترتبت عليه بعشوائية، صارت تجرجره ورائها، منذ أن قتل حسن قبل سنة من الآن تقريبا ولغاية سرقة دكانه لم يشهد راحة بال قط. والله أعلم ما سينتظره غدا. حزم الويلات جاءته بغتة، صبت جام غضبها على رأسه، لاحقته الأقدار في شعب الطرق على الرغم من انه مستكين في محله أغلب الأوقات، منزو في جحره كالفأر، يتأفف من لهب الحسد، مجرد تماما من الحلول، معلول أمام شدة العقد.

كـأنَّ فـي المـال المخـزن فـي بيتـه نفـس صـاحبه أو سـخط الـوطن، ذلـك الشـيطان الخفـي الـذي يوسـوس لـه عـن الحـلال والحـرام لا ينفـك عنـه إلا بجره لواحة المأساة، تلك التي يهابها والتي لا حدود لعذاباتها..

لكـن يـا تـرى!.... هـل يسـتطيع أن يتجـرد مـن المـال ويـتخلص مـن شـره؟ ألـيس المـال هـو الـذي يجلـب السـعادة؟.... وهـو كـذلك يجلـب الـنحس والحسـد، لقـد ضـاعت عليـه الحسـبة تمامـا، حـين كـان فقيـرا كان سعيدا في بيته، وحين أغتنى هجرته السعادة.

كـلا وألـف كـلا، أنـه متعلـق بهـا دون أرادة، قـوة خفيـة تجعلـه يتمسـك بمـا تبقـى، ولـن يتنـازل عـن حقـه بـالوطن مهمـا سـاءت النتـائج، انـه قـدر وعليه تكملة مشواره....

مـاذا لـو كـل النـاس صـاروا أغنيـاء أو صـاروا فقـراء!.... تـرى هـل يكـون للحسـد مـوطئ قـدم بـين النـاس؟ أتكـون للسـرقة غايـة فـي نفوسهم؟ أيكون للجرم والقتل لباس يفصل على أبدانهم؟

أعتقـد سـتختفي كـل تلـك المسـاوئ مقابـل اختفـاء مظـاهر الحيـاة الأخـرى مـن أفـراح وأتـراح وبيـع وتجـارة وأعمـال تخـدم المجتمـع، أي سـتكون الحيـاة رتيبـة لا طعـم فيهـا، سـتكون مكلـة، الملـل هـو الطـابع والسمة الغالبة على حياة البشر.

لـذا حـين ذكـر الله فـي كتابـه العزيـز، قولـه تعـالى: "اللَّهُ يَبْسُـطُ الـرِّزْقَ لِمَـنْ يَشَـاءُ ويقـدر" [الرعـد:26]. صـدق الله العظـيم. أراد فـي حكمتـه أن تكـون الحيـاة متاحـة، والفـرص متاحـة للـذي يعمـل بجـد ودون رتابـة. ود أن تتخلـل الحيـاة الفـوارق بـين النـاس حسـب ارادتهـم وعـزمهم، لتظهـر الـوان الحيـاة للاعيـان بأشـكال قـوس قـزح، ملونـة، مختلفـة بـاختلاف النسـب فـي تصـرفات البشـر فيمـا بيـنهم.. ليبـرز عامـل الحسـد عنـد الـبعض وعامـل الغيـرة فـي مقابـل الإحسـان والمعروف عند آخرين، وهكذا هلم جرى.

لتكون للقيم وسط، وللخسة والنذالة وسط، وللطمع وسط، وللسفالة وسط، وللجرم وسط، وللشرف وسط، لتبرز للعيان قيمة الأشياء على حقيقتها، ليكون للخير قمم تتحرك إليها النفوس العفيفة والقلوب المؤمنة، على ضوء ذلك تتم المفاضلة في تصنيف البشر لمسألة خيارات الجنة والنار.

إذا تدحرج قَدره مرة أخرى واستقر في هوة عميقة، ليخسر هذه المرة محله بمحتواه، لم يبقى من دكانه سوى جدران هامدة. لقد دفع الجاني عمره جراء فعلته الخسيسة، أما الجاني الآخر المجهول والمتخفي تحت ستر الفوضى والأمن المستباح؛ الله سيتولى امره، سيبقى مجهول الهوية حتى يعاقبه الله على جريرته ويكشف خسته...

أي أن الشكوى إذا ما قدمت للشرطة ستكون معلقة على حيطان مراكز الشرطة، تلك الخاوية من دساتير القوانين ومن البأس في ظل فوضى الاحتلال- وبالتالي لن يتمكن من استرداد ما فقد، أضحت بضاعته المسروقة في حالة نصب بالفتحة المقدرة على آخرها، لتكون في يقينه بمحل خبر كان متأخر...

صار يركن ذاته إلى حدود الصفن والتفكير العميق، مراجعا الأحداث التي عطفت عليه ولوت ذراعه واحدة تلو الأخرى، صار يكلم نفسه ويحاسبها على تقصيرها خلال مراحل حياته، كإهماله لأمه لفترات طويلة بعد زواجه، صار يحاسبها على وحدته وقلة أصدقائه ومعارفه، او على ضعف مجاملاته وركاكة علاقاته وشحة زكاته وصدقاته... الخ...

.....أيعقل أن يعيش الأنسان في عالم لا يحتوي على ذرة أمان واطمئنان؟

أيعقل أن يعيش الأنسان تحت ظل كابوس مرعب طوال حياته؟

أصـبحنا نتصـور الخـوف شـبح يعشـعش فـي ذواتنـا كالبكتريـا المتطفلـة علــى اجســادنا، أنـــه أمــر مثيــر للقلــق، يزيــد مــن هرمــون الأدرينــالين الـذي يظهـر مفعولـه مـن خـلال خفقـان القلـب وسـرعة نبضـاته، نتيجـة حجم القلق والخوف المستمر من المجهول..

الخـوف فعـلا موجـود فـي كـل مكـان ككـائن حـي اسـطوري، يتجـول بيننــا كالظــل، مجهــول الهويــة، كــائن يتخلــل أحلامنــا كطــائر العنقــاء، يترقبنــا، دون أن نشــعر بــه، يزورنــا بصــور مختلفــة، بالقتــل والهــدم والتفجيـــر والســـرقة والاختطـــاف والمـــوت والملاحقـــة والمداهمـــة والســـجن، يجعـــل الفـــرد يستســـلم لهاجســـه ســـواء رضـــينا أم أبينـــا، مستسلمين؛ حتى أنه يتهيأ للشخص في أحلامه ككوابيس مزعجة.

..ألـم يـذكر سـبحانه تعـالى بـان الشـيطان كـائن حـي؟ لكـن؛ هـل شـوهد كحقيقـة؟... لا.. لكننـا نستشـعر بوجـوده وهـو يتبـع أهوائنـا ليحيلهـا عـن سراطنا المستقيم....

كـذلك الخـوف أنــه كـائن أسـطوري يتبـع أحلامنـا، كـابوس يعـيش فـي مخـيخ وقلـب كـل عراقـي. نلتمسـه بهيئـة أفـراد ميلشـيا دخيلـة، أو جنـد المـــارينز، أو عصـــابة إجراميـــة، أو قنبلـــة موقوتـــة، أو لغـــم طـــائش، أو رصاصـــة طائشـــة، أو لـــص، أو قاتـــل...الخ، فلـــو تجـــاوزت كـــل تلـــك المطبـات فلـن نتجـاوز فـايروس الحقـد والكراهيـة أو الحسـد والـبغض المـزروع فـي قلـوب الجيـرة والمعـارف والأقـارب والأعـداء ابـدا. أنـه يطفـح فـي عيـون البشـر بمجـرد أن تتعـافى وتظفـر بالسـعد، قـد يلاقينـا علـى هيئـة فـايروس مرضـي ككرونـا اللعـين أو فلاونـزا الطيـور نتيجـة الإهمـال التـام فـي مجـال الصـحة، حيـث شـاعت المزابـل والمجـاري أن تغـزوا الشـوارع والأزقـة مثلمـا انتشـرت تلـك العاهـات بألوانهـا علـى مساحة الوطن.

أضحت السياسة في نظر الناس امرأة عاهرة لا تستحي أن تفلج فخذيها وصدرها دون حياء، هكذا تبدو لي. لقد احتلوا الوطن بحجة الديمقراطية، ثم باتوا يسرقون النفط علنا. نصبوا الحفاة والجياع على سدة الحكم ليكونوا عونا لهم في نشر الفوضى وزعزعة الاستقرار، فصار هاجس الواحد منهم هو البحث عن سبل جديدة ويسيرة للنفوذ والسرقة.

اليوم سمعت حديث أحد شيوخ المتنافسين على السلطة يَدرَأ زميل له من ذات الصنف في الفيس بوك حيث قال وحسب ما يدعيه....

...: بأن وفدا حكوميا ذهب إلى هولندا من أجل شراء دواليب الهواء لتوفير الطاقة الكهربائية والتي دمرتها أمريكا عام 1991 أبان الحرب الأولى التي شنتها على العراق ضمن تحالفها الدولي البغيض بعد دخول العراق للكويت. والتي أصبحت قصتها أشبه بقصة فروة السبع، لقد صرفت على الطاقة الكهربائية عشرات المليارات من الدولارات دون أن يفلحوا في إنارة شارع واحد... معروف بأن الشركات المصنعة معظمها أهلية تنتمي إلى القطاع الخاص، وقد طلب رئيس الوفد العراقي من مدير الشركة الهولندي أن تخصص له نسبة 5% من قيمة العقد كمبالغ تضاف على حسابه الشخصي كي يوافق على إبرام الصفقة مع الشركة. فكان رد الشركة بأن يطرد الوفد المفاوض من هولندا، حيث تبين لها بأنهم مجموعة لصوص يريدون المنفعة الذاتية على حساب تعمير البلد المنكوب، لقد تفننوا في سرقة الشعب، أضحوا أصحاب خبرة. هذا غيض من فيض.

....كأننا قد ابتلينا بالحياة، لا نحن نعيش لحظاتها بسلام ولا نحن ميتون في دهاليزها بقناعة، أضحينا كفقاعات تدحرجها ريح الاحتلال بين شعب وأزقة النقم بين أشواك الغل والحقد، ننتظر أن تفقأ فقاعاتنا عارض ما لننهي تعلقنا بهذه الحياة المعقوفة، التي لا

تحـرك سـاكنا فـي مجـالات أحلامنـا. حيـث لـن نسـتطع تغييـر موضـع مسـمار فـي ألـواح حياتنـا الرتيبـة، وكـأن الظـرف المجحـف قـد جثـى علـى كـل أمـل نتبعـه، فلـن نسـتطع أن نشـترك بسـباق اليـوم ولا أن نعـدل شيء من ميزان الغد.

...صـرنا نحسـد الـدول الآمنـة، وكـأنَّ الـنفط أضـحى وبـالا علينـا، ابتلينـا بـه، نهجـس بـه الشـر بعينـه، جهـنم يصـلينا... لا حكوماتنـا أسـعدتنا بـه ولا المحتـل رأف بحالنـا بعـد سـرقته...... أنهـا البلـوى بعينهـا، وكـأنَّ الله قـد خبـأ الفواجـع تحـت تربتنـا ولـن يصـلح لنـا شـأن؛ إلا أذا تجاوزنـا العبـث فـي ديننـا وأفكارنـا، إلا إذا تجاوزنـا الطائفيـة المقيتة والقومية البغيضة التي باتت تلسع أجسادنا بسموم النار.

هكـذا سـلم قاسـم أمـره للقـدر، لتلتـف عليـه العقـد دون أن يجـد مفتـاح السعد، الـذي أسـره وقيـد مسـاعيه، صـار يفكـر بحلـول بعيـدة عـن الواقـع المسـير، كـالهروب مـن الـوطن ليحـتفظ بمـا تبقـى لـه مـن رصـيد فـي الجيب الزمن.

4

بعد مقتل عامر خلال احتدامه مع جنود الأمريكان وبعد مقتل أبوه صفاء على يد عناصر الغدر من ميليشية طائفية مدعمة من قبل المحتل وقوى خارجية، لم يتبقَ لدى هدى ما هو مهم في حياتها لتعيش من أجله، لم تعد تمسك بالعصب الذي يمد عمرها في الحياة أو ما تستند عليه. بالأحرى لم تجد دافع لديمومة الحياة أو سبب وجيه يفرض عليها التشبث بها وهي مكلومة، حزينة، سوى بقاء أبنتها ريم ذات الخمسة أعوام في حياتها.

تراكمت الأحزان عليها والتفت حبال الفاقة على يديها، الحسرات سلبتها لون البهجة، أشتد العناء وتفاقم العجز في طريقها وتشتت الفكر، بانت أثار الانكسار والهزيمة واضحة على قوامها وملامح وجهها، غدى لون بشرتها أشبه بطفح جلدي أو حساسية ما لكعت وجنتيها ومحاجر عينيها بالعتمة.

القهر والفاقة والظرف اللعين وفقدانها حبيبها وأبنها؛ جرداها من متعة الحياة، جزلت إرادتها عن مواصلة التحدي والبقاء بعد أن أسودت آفاقها، أصابها عجز في المخ وضعفٌ وهزلٌ وضياعٌ وحيرةٌ وتشتتٌ في السلوك، تجمعت عليها العُقد كدبابيس أشواك الفلاة، غزت حسها وتفكيرها وروائها، جعلت الوحدة المقيتة صبغة مشاعرها الراكدة، دعتها تصل في تفكيرها إلى أنهاء هذه الفوضى المحتدة في حياتها بالانتقام من مسببيها.

كانت قد عاشت مكرمة معززة بكنف زوجها، حين افتقدته وجدت هجست كرامتها لا تسمح لها بأن تستجدي لقمتها لتعيش حياة ذل إلى جانب أبنتها، حياة تجبرها على الخنوع، كرامتها تمنعها طلب المعونة من الناس وأصحاب المعروف، أو إذا ما أحتمت تحت ظل أخيها التي لا تعرف عن أخبار غناه شيء. لا تعرف شيء عن

الكنز، كل ظنها مكسور الجناح، متذبذب في معيشته. وهيَّ لا تريد أن تثقل عليه كاهله، لقد عاشت حياة عز وغنى وبحبحة ونعيم تحت ظل زوجها قبل قدوم الاحتلال، فترة دامت عشرين سنة من الزواج دون عقد.

على الرغم من أن قاسم أبدى مساعدتها على فترات متفاوتة بعد فقدانها زوجها، لكنه لم يفضِ ذاته لرعايتها، ولم يجد متنفسا حقيقيا يعينه على التفكير بها، لقد تكبل بالويلات المتعاقبة، جردته من حالة التفكير السوي، المصائب حلت على رأسه تترا، رشقته بوابل من السخط والخوف والعناء، لاحقته الرعناء، راوغته الحماقة التي أبداها خصومه وحساده، اصطادته المطارق في مكامن عدة، صار يرتعب من تواجده بين الوحوش السائبة، فأر لا يجرؤ أن يغادر جحره إلا متخفيا، كلما حاول الهروب لاحقته القطط الجائعة دون أن يتمكن من تخطي حدود عجزه، المصائب طرقت بابه دون أن يفكر بها.

حطت العقد على قياسه وبين يديه كقوالب مغلفة جاهزة، ما أن يفتح شناطة العقدة؛ حتى تتفجر عليه قرؤها، تحرقه سمومها، تبيد أحلامه، تنهي آماله، مشكلة بأثر أخرى طقطقت عظام رأسه، حلقت بجيده كسلسلة عناء طوقت زناقته، شلت قدراته، لأنه الرأس والهرم والشاهد في سلم العائلة.

المشاكل التي تبعته، ركبت قدره. حددت له مصيرا محتوما بين اليأس والاستسلام، جرفته سيول الفوضى إلى وهدتها، غمرت أقدامه وأفكاره، ثم ارتفع منسوبها مع تفاقم الاحداث حتى حزمته ثم حلقته. صار أشبه بالغريق الذي يستنجد بقشة، يرتعد من الهول والحوار الدائر حوله، يهجس بذاته مكبل بقيود الظرف، مهزوم كنعامة لا يجد بدٌ من دفن رأسه في خواء صمته وسكوته، ليبتعد قليلا عن المجتمع وعقده.

تلـك المشـاكل تسـتنبط عقـدها مـن رحـم سـابقاتها، كأنهـا تسـتجد بـروح الــذكرى وبــنمط التحــري، تنمــو بعــرف جديــد مُبتــدع مــع تطــور الاحـداث وتفـاقم الخيبـة، تختلـف عـن سـابقاتها عمـا حملتـه مـن نكـد وغيض وفتن وخواء وهتك تهلكم البدن.

هكـذا تـدحرجت الأيـام فـي مجـراه، حملـت لـه نكـال الفواجـع، صـار يخـاف مـن بـزوغ فجـر يـوم جديـد فيظلـه بمـا لا يتوقـع، لمـا يبطنهـا مـن مفاجـآت قـد لا تسـر قلبـه، لا يسـتطيع ردعهـا أو مقارعتهـا. حـالات جعلتـه لا يرتكـز علـى موضـع قـدم، لا يسـتكين علـى وجـه راحـة أو ظهـر صـبر، أضـحى الـوجس سـمة يقمـص هاجسـه، شـبح مـا لابـدٌ فـي ثنايـا فكـره وثيابـه، انـين يشـك مشـاعره، يبـرز أمامـه مـن حيـث يحتسـب أو لا يحتسب.

كــأنَّ العقـد التــي تبعتــه ترتــدي طاقيــة الإخفــاء، تختفـي بظـل هيئـة صـديق مـا يجاملـه، أو بهيئـة زبـون مـا يرفقـه، أو بصـفة حجـر يتعثـر بـه، أو قـدر يتقصـده...هكـذا صـارت تميط بـه المخـاوف دون أن يـتمكن تجنبها، هكذا صار يمتطي المصائب كراحلة اسفاره.

الهـوس المتـداخل فـي فكـره يتبعـه كضـباب الفجـر، يرهقـه. أضـحى يشـك بـأي طـارئ يصـدفه. صـار يتخيـل شـكل المصـيبة القادمـة فـي مخيلتــه. ود تجنيــب ذاتــه الاهــوال، فحجــر ذاتــه بالحــذر والانــزواء، يتجنب مطالعة الناس ومقابلة البشر إليه، حصن ذاته داخل البيت.

أحيانــا يتوقــع المفاجــأة قابعــة فــي طــرف عينــه، فــي شــعب الطــرق، متخفيـة بـين ثنايـا الأشـجار، فـي حشـائش الحـدائق، أو تحـت رصـيف الانتظـار، بركـان ينفجـر عليـه، أو قـدر يعصـف بـه,,,, أو مـا شـابه ذلـك من لفائف تلتف عليه، بحيث تجرده من راحة البال تماما.

لا أدري أن كـــان يســـتطيع أن يصـــارح النـــوم فتـــرة ســـويعات أم لا؟ لينتـزع راحـة مـن كربـه وعذاباتـه، أضـحى ذلـك الصـدع ملازمـا لـه

يرفع ضغطه، بل صار لا ينفك عنه، تراه بين فترة وأخرى يمص شريحة ليمونة أو يلهم طماطم ليخفف عن ذاته وقع الصداع الذي بات لا ينفك عن رأسه، حيث دائما ما يشعر بوشوشة تغلق منافذ الأذن بطنين ينبئ بالحذر.

بات يشْكلُ بصفاته وهي تتماها أمام عينيه، خائرة بمنعطفات الخوف، بعيدة كل البعد عن شخصيته الحقيقية، بات يراها أشبه بسراب يضمحل أمام شدة العتمة، تنكسر مع غروب الشمس، تنزوي مع ضعفه وعجزه في الدفاع عن نفسه..

أضحى يتشبث بالظل كي لا يربكه النهار، يتحلا بالصمت كي لا يفقد تركيزه، مرتديا الوحدة ثوبا له، هاربا من لسعات العيون التي تترصد ظنه وتتبع عناه.. أضحى يعيش في عزلة تامة لا تزيده سوى عقدٌ على عقد، حيد سلوكه، كأنما الأقدار زرعته كصبير في قفار صبره، أودعته كحنظلة مرة تقتل رغباته، عاجز، مشتت الظن، لا يركن سلوكه إلى ثبات؛ المعضلات بددت تأملاته..

قسى عليه الزمن من لحظة نهوض حظه يوم وجد الكنز، تلك القطة التي غافلت سراقها لتتبع هواجسه، كأنها ودت أن توضح له الفارق بين مأساة الغنى وسعادة الفقر، توضح له طبيعة الحياة المرة أمام شكل واستقرار الذهن، تبين له أهمية القناعة بالكفاف أمام الغيلان والطموح في تتبع وملاحقة مراكز الرقي على سلم الطمع.. على الرغم من أن تلك المسالة لم تكن من أولويات حياته، لكنها فرضت عليه، فتقمص أدوارها وإشكالاتها وبات يمثل أدوارها..

لحقت به المعوقات والمشاكل كآثار أقدامه في الطرق، التقته مصادفة في مشاويره هنا وهناك، أرغمته على تقبل آثامها والتبرك برعونتها عنوة، دون أن ينظر للنتائج والمستقبل...كان من الأجدى به أن يترك بغداد مباشرة بعد عثوره على صرة النقود، كأنها ودت

أن تخبـره بـأن الحيـاة تحتـاج إلـى حركـة وثقـة بـالنفس وتفكيـر متجـدد لمسايرة الاحداث، كي يستطيع مجاراة عقد الحياة والتغلب عليها.

..كلْ تلـك الأمـور جردتـه مـن التفكيـر بأختـه هـدى، كـون زوجهـا صـفاء مـا كـان يسـمح بـذلك لعـزة نفسـه، وذلـك بعـد أن تسـنم مناصـب مرموقـة فـي مواقـع الجـيش علـى أمـد طويـل..... فيمـا باتـت هـدى بعـد وفـاة زوجهـا تحتضـر فـي فكرهـا وتتململ مـن الوضـع السـائد والفاقـة التـي التصـقت بهـا، أو التـي لاحقتهـا فـي بـدنها وفكرهـا ونفسـيتها، حيـث صَـفِرَ جيبهـا، أضـحت تعـيش علـى حافـة الهاويـة بـين لسـعة المـوت وعسرة الحياة.

خـلال تلـك الفتـرة وبعـد أن سـرق دكانـه، أعـاد قاسـم دكانـه لسـابق عهـده فـي بيـع البـالات، إلـى الكـار الـذي تعـود عليـه، الـذي أرتـزق منـه راحـة البـال خـلال سـنين الحصـار، ففيهـا النعمـة والبركـة كمـا يقـال. الكـار الـذي تعرفـه أفضـل مـن الكـار الـذي لا تعرفـه. فمـن صـبر علـى رزقـه فـتح الله لـه أبـواب الفـرج والسـعد، ومـن تـنطط فلـن يجـد غيـر صـرة الفشل تخذله، هذه هي قاعدة الرزق.

كـان قـد تجـرع السـم مـن أقـرب أصـحابه، ومـن العيـون الوقحـة الـدائرة فـي حلقتـه؛ التـي أحرقـت شـكل البـراءة فـي أوكارهـا... جـاره سـرقه وآخـر نكـل بـه، ولا يعلـم بطبيعـة مصـادر الكـوارث الأخـرى التـي حلـت بـه وخاصـة مسـالة اختطـاف محمد وعـدم معرفـة الجـاني الحقيقـي فـي سـرقة دكانـه جعلتـه يـدور فـي حلقـة مفرغـة. صـارت شـكوكه تطـال كل معارفه وأصدقائه، فلا يستثني منهم أحدا.

أمـا جاسـم فأنـه أنتشـى بمـال أخيـه، تحسـنت اوضـاعه، غيـر مـن شـكله وقوامـه أمـام نـرجس، دهـن بلعومـه ويديـه بزفـرة أخيـه، بـابتزاز أخيـه.. مـا جعـل نـرجس تقتـع بـه زوجـا لهـا، تلـك الغانيـة التـي تخطـط لمآربهـا.. كمـا أنـه غيـر مـن شـكل ومـنهج عملـه، فبـدل شـقاء الحِمالـة ودفـع عربـة

النقل ونقل البضائع بين التجار ومرائب السيارات، صار يشتري البضاعة من التجار ويسَوقُها في عربته في زاوية من زوايا سوق الشورجة ضمن معمعة تلك الزحمة، بذلك كف ذاته عن مشقة الحمل والحمالة وأذلال النفس بتربعه على كرسي التجارة.

أستغل زاوية من سوق الشورجة، نصب لعربته أعمدة ترفع غطاء من حصير النايلون كمظلة تقئه اشعة الشمس ورشقات المطر- أي بما يسمى في اللهجة الشعبية بـ (الجمبر) أو (الكشك)- يبيع البضاعة بالمفرد للذين يأوون إلى الشورجة بحثا عن المفرد، وبالجملة وبسعر أعلا من المصدر للذين يطلبونها على عجالة، حيث معروف عن سوق الشورجة أنه سوق جملة بشكل عام.

أحب نرجس حبا جما بعد مراودتها، استغلت حبه وولعه بها، صار كالخاتم في أصبعها، المثل يقول (وافق شن طبق)، الأثنان تلاقيا في مصب واحد، همهما الخمر والبذخ والتسلية، أكثر من أن تكون بينهما علاقة حميمية وبناء أسرة. ولكن الأقدار لا تترك أحدا بسره، لقد سرق أخوه، فسلط الله عليه من يسرقه بإرادته، لقد عرفت بأنه خسيس ونذل وحرامي؛ لذا تماشت مع رغباته لتصل غايتها..

شغلته تلك الغانية عن محيطه، كما دائب في عمله الجديد بشكل يومي، لذا وجد صلته بذويه ذاويه، صلة مقطوعة تماما، فلا أحد يسأل عليه ولا هو يسأل على أحد. فليس له ارتباطات تشغله سوى ارتباطه بعلاقة وثيقة مع صديقيه جعفر ورشيد، كان قد قطع صلته بأقربائه بعد وفاة أمه... كما هو يدرك ذاته جيدا، حيث يعد نفسه من الذين" إذا حضر لا يعد وأن غاب لا يفتقد" قدره بين الناس صنعته الفاقة والظروف المتخلخلة وسلوكه المخل.

كانت نرجس قد جنحت بنفسها خلف المادة فتركت صغيرتها في بيت والديها ليربياها، بعد أن أعلمتهم بأنها ستتزوج من رجل غني

لا يرغب بوجود طفلتها بينهما. لذا باتت تدفع لهم معونة تربيتها كل شهر، في الوقت الذي به تكون قد تطمأنت عليها في مأمن من مخالب الشر. إضافة لذلك أعطت لذاتها مساحة وحرية أوسع لممارسة البغاء بسرية أكبر مع صديقتها سعاد.

كان جاسم قد وضح مسعاه لجعفر ورشيد بنية زواجه من نرجس، فباركا له سعيه وقراره، وتقديرا للموقف الجديد؛ تركا السكن له ولمؤنسته مع استمرار مراجعته والتسامر معه.... بذلك رجع كل منهما لثكنته الأولى، ولا ضيز من معاونته في تصريف البضائع في محل عمله. بذلك استمرت الصحبة والمراجعة والضيافة الدائمة بينهما. لشدة الألفة التي جمعتهما؛ يكاد أحدهما لا يستغني عن الآخر إلا لظرف طارئ او لسبب جسيم.

5

لقساوةِ الظرفِ وثقلِ خطِّ القدرِ الذي التصقَ بها وحطَّ على كاهلِها على حينِ غفلة، صارت هدى تتقدُ كشعلةِ غضبٍ في دارِها، ناقمةً على الظرفِ المجحفِ وما شاقَها من عناءٍ بعد مقتلِ ابنِها وزوجِها على يدِ جنودِ الاحتلال. العاقبةُ التي لحقتْ بها أثقلتْ همومَها وحددتْ مسارَ تفكيرِها، فجعلتْ منها بركانَ غيظٍ متوهج، حانقةً على الزمنِ الأهوج، وعلى جنودِ الاحتلال، وعلى عصاباتِ الميليشيا الرائجةِ في الخفاء، وعلى كلِّ من دنّسَ تربةَ الوطن.

بقيتْ وفيةً لخطِّ زوجِها في مقارعةِ أعداءِ العراق، وظلتْ تلك الشعلةُ التي أوقدَها في نفسِها تضيءُ روحَها وفكرَها بذاتِ المدِّ الذي سارَ عليه. لم تنسَ تعاونَها واشتراكَها معه في ربطِ فصائلِ المقاومةِ ببعضِها، حين كانت تجدُ صعوبةً في التواصلِ بسببِ غيابِ شبكةِ اتصالاتٍ تفي بالغرض، ولحداثةِ دخولِ الموبايل إلى العراق.

صار الزمنُ يرهقُ ظنَّها، يلاحقُ صفوتَها، يخيفُها، يرعبُها كبعبعٍ ماردٍ ينتظرُ أن ينتقمَ منها. وجدتْ الأوضاعَ النفسيةَ والماديةَ والفكريةَ تسوءُ يومًا بعد يوم، في ظلِّ غمامةِ الاحتلالِ التي كبَتْ فوقَ رأسِها، جاثيةً على مساحةِ الوطن. لم تجدْ ما تستندُ عليه لمواجهةِ الظرف، في الوقتِ الذي اشتدتْ فيه قسوةُ الوحدةِ التي باتتْ تفترسُ شبابَها وأحشاءَها من الداخل، مثلما جرشتْ فكرَها.

تلك القساوةُ جرّدتْها من ألوانِ الطيف، ضيّقتْ عليها مصادرَ الرزقِ والتعفف، وجدتْ نفسَها معقوفةً على ذاتِها كصفيحٍ مطعّج، أسيرةَ العقد، خاليةَ الوفاض، صفرتْ تمامًا من الحبِّ والرزقِ والعاطفة، مكبّلةً بسلاسلِ الوحدةِ والحزنِ والكآبة، لا تحتملُ عصفَ الزمن. أضحتْ أسيرةَ الظنِّ والفكرِ المشتّت، لما عانتْ من نكدِ الدنيا

ونكايةِ الظرفِ الذي أرهقَ مساعيَها وكبّلَها بالعُقد. لذا، قررتْ هدى أن تنهي حياتَها بطريقتِها الخاصة.

قرأتْ المشهدَ وأقرتْ بأنها أصبحتْ جزءًا من صيغةِ الحالةِ الميؤوسِ منها، وها هي الأوضاعُ المأساويةُ تلاحقُها من الداخلِ والخارج، تضيقُ عليها الخناقَ يومًا بعد يوم. ومن خلالِ التجربةِ، توقعتْ أن سيلَ الأيامِ القادمةِ سيكونُ أشدَّ وطيسًا وبطشًا وقسوة، سيجرفُ ابنتَها من حضنِها، سيجعلُها أسيرةَ العناءِ والرحمة، أو سيتكفّلُ بها أخوها قاسم أو عمّها فريد من بعدها. قررتْ أن تأخذَ بثأرِ ابنِها وزوجِها من جنودِ الأمريكان، الذين دمّروا سعادتها وأسرتَها، هم من عاثوا خرابًا في البلد، هم من قلبوا موازينَ الوضعِ رأسًا على عقب، لم يرحموا عزيزًا ولا فقيرًا في الوطن.

المسائلُ المعقّدةُ لا تُقاسُ بالمادةِ فحسب، بل تُقاسُ بالطولِ والعرضِ معنويًا واجتماعيًا وأمنيًا... فالمحتلُّ لم يُعوضِ الضباطَ المنصبَ ولا الجاهَ ولا المرتّبَ لمن فقدَ جاهَه ووظيفتَه. "الملوكُ إذا دخلوا قريةً أفسدوها" صدق الله العظيم. فكيف بجيشٍ جلُّ أعضائه لصوصٌ وعصاباتٌ مجرمة؟ الدمارُ أصابَ كلَّ القطاعات، أثقلَ كاهلَ الشعب، لا يُوصفُ لجسامته وهولِ وقعِه. تلك المأساةُ وُزّعتْ كأرزاقِ التموينِ على الشعبِ المسكينِ بالتساوي، لذا يجبُ أن تكونَ هناك ردةُ فعلٍ رادعةٌ ضدَّ القتلةِ المجرمين.

تلك الأوضاعُ لم تُرهقْ هدى فحسب، بل قضتْ على كلِّ معطياتِ الحياة. خسرتْ أعزَّ ما تملكُ في الدنيا: زوجَها، وفلذةَ كبدِها، ومصدرَ رزقِها. آفةُ الفقرِ والذلِّ تبعتْها، أكلتْ حصيفَ فكرِها، ختمتْ وجهَها بوشاحِ الحزن، أعقلَتْها بحزمةِ التيهِ، جرّدتْها من مشاعرِها وأحاسيسِها. هجستْ بالنارِ تجري في عروقِها، تلسعُها دونَ هوادة.

فـي قرارِهـا الـداخلي، كانـت قنوعـةً جدًا، بـأن هـذه الحيـاةَ رغـمَ قصـرِها غـدتْ عقيمـةً، سـوداء، لا تـروقُ لهـا، تجـاوزتْ خـطَّ الأمـان. إذًا لا بـدَّ مـن إيقافِهـا. لا بـدَّ أن يحـينَ موتُهـا، عـاجلًا كـان أم آجـلًا، بسـببِ تقلـبِ الأوضـاع، سـواءٌ بتتبّـعِ المجـرمين لهـا، أو بسـببِ تعاونِهـا مـع المقـاومين، أو بسببِ مـا حـلَّ بهـا مـن قهـرٍ وتـدميرٍ نفسـيٍّ وذهنـيٍّ. حيثُ النميمـةُ والوشـايةُ تحـيطُ بهـا، فلـن تسـتطيعَ أن تفلـتَ مـن العقـاب، لا بـدَّ أن تصـيبَها شـرارةٌ مـن هنـا أو مـن هنـاك. حتمًـا سـتحترقُ وتـتفحّمُ حياتُهـا مهمـا اسـتكانتْ أو انـزوتْ بعيـدًا عـن الأنظـار، خاصـةً وقـد غـدتْ بمصـابِها معروفـةً للجميـعِ بفقـدانِها زوجَهـا الضـابطَ وابنَهـا المقاوم.

هـذا الخـيطُ يمكـنُ أن يسـتدلَّ بـه الواشـونَ للنيـلِ منهـا، حتمًـا سيصـلونَ إليها في وقتٍ ما، ولن يطولَ ذلك الوقت.

بعـد دخـولِ المحتـل، انتمـتْ وزوجُهـا لفصـائلِ المقاومـة، أو بـالأحرى كانـت تعمـلُ كطيـرٍ مرسـالٍ بـين شُـعبِ الفصـائل، بسـببِ ضـعفِ شـبكاتِ التواصـلِ بـين المقـاومين، لعـدمِ وجـودِ خطـوطٍ سـلكيةٍ ولاسـلكيةٍ فعّالـةٍ لمراكـزِ الهواتـفِ التـي دمّرتهـا الحـرب، وبسـببِ نـدرةِ الهواتـفِ المحمولـةِ وضـعفِ شـبكاتِها. مـن خـلالِ عملِهـا، تمكّنـتْ مـن كسـبِ ثقـةِ المقـاومين والتعـرّفِ علـى قـادةِ الفصـائلِ ومعرفـةِ أوكـارِهم، فهـي كانـت أهـلًا للثقـةِ فيمـا سـبق. اسـتمرَّ هـذا التعـاونُ مـدةَ عـامٍ تقريبًـا، وها هي تدخلُ في أواخرِ شهرِ شباط من عام 2005.

لـم تمنعْهـا الظـروفُ طـوالَ تلـك الفتـرةِ مـن اتخـاذِ قـرارٍ شـجاعٍ كالانتحـار، إلا وضـعُ ابنتِهـا ريـم مـن بعـدها. وقـد فكّـرتْ فيهـا وفـي مصـيرِها جليًـا قبـل أن تقـرّرَ نهايـةَ مسلسـلِ حياتِهـا. وجـدتْ مـن خـلالِ التحليـلِ أن بقاءَهـا فـي الحيـاةِ يعنـي مـوتَ ابنتِهـا جوعًـا وتشـردًا، ولـو تركتْهـا بيـدِ القـدر، حتمًـا سـيعتني بهـا عمُّهـا أو خالُهـا، واللـذان حالتُهمـا الماديـةُ أكثـرُ اسـتقرارًا مـن حالِهـا. وبـذلك سـتعيشُ عيشـةً كريمـةً لا

تستطيعُ توفيرَها لها لو بقيتْ أسيرةَ حجرِ أمِّها، فهي لا تملكُ من اليقينِ ذرةَ أملٍ في أن تُسعفَ ابنتَها بسعادةٍ أو حياةٍ كريمة.

كما أنه، ومن خلال قراءتها للوضع العام والمهيمن على مجريات الأحداث، أدركت أنه إن لم تمت ميتة عز وشرف، فستُلاحق وتُسحق في دياجير السجون كثائرة. ستطاردها الوشاية، وتنهشها أيدي العصابات العميلة المتعاونة مع قوات المارينز. أما ابنتها، إن بقيت في حجرها، فلن تقاوم الفاقة، وستُصاب حتمًا بشتى الأمراض النفسية والمزمنة، عاجلًا أم آجلًا، وستذبل أمام عينيها في ظل انعدام الرعاية الصحية في زنازين السجون.

لذا، وفي خطوة جريئة، قررت في قرارة نفسها أن تأخذ بثأر ابنها وزوجها من جنود الاحتلال الغاشم، علّها تمنح لابنتها فرصة عيش كريمة تحت رعاية عمّها أو خالها، أو أحد الخيرين من أبناء الوطن، وعسى أن تحظى بمستقبل مشرف ومشرق من بعدها.

اتصلت بأبي علي، قائد إحدى مجموعات الفصائل المقاومة، وشرحت له رغبتها في تنفيذ عملية استشهادية. طلبت منه تدريبها على استخدام الحزام الناسف لمدة يومين. وفي اليوم الثالث، احتضنت ابنتها ريم، حتى كادت أن تُدخلها في جوف صدرها، أغدقتها بعاطفة حميمة منقطعة النظير، كادت أن تثني عزمها لولا شدة المأساة التي أثقلت متنها وفؤادها، وأرّقتها، وحشرتها في زاوية ضيقة من الأمل.

احتارت في اختيار المكان الذي يمكن أن تترك فيه ريم أثناء تنفيذ العملية، فلم تجد فسحة أأمن من جارتها أم عائشة. وفي يوم التنفيذ، تمكنت من إقناع ابنتها بالبقاء عند الجارة، وأوهمتها بأنها ذاهبة إلى السوق لشراء بعض الحاجيات، وأنها لن تصطحبها خشية عليها من العاصفة الهائجة خارج المنزل، ومن مفاجآت الطريق.

أخذت بيد ريم، تلك الطفلة المطيعة التي اعتادت الإصغاء لكلام أمها، وقادتها إلى دار أم عائشة، وهي تنظر إلى براءتها بعين العاطفة والحنان، بعد أن افتقدت والدها وأخيها. قبلتها قبلة طويلة، وترقرق الدمع في محجر عينيها، ثم طرقت باب جارتها وهي تكاد تنهار من الداخل، نتيجة عصف الشوق ولحظة الفراق الأخير.

فتحت أم عائشة الباب، وما إن رأت هدى بشحوبها، حتى أصابها اندهاش تام من منظرها الذي فضح هواجسها، وعكس حجم الصراع والتناقضات المدفونة في جوفها، إلى جانب عزيمتها وإصرارها. كانت تكاد تصرخ في داخلها من شدة الهم والألم المخزون في أعماقها، تعيش اللحظة الحرجة، تدور في رحاها، تصطلي في جوارحها بين قدحة البرق وهدير الرعد المنفلت منها.

كانت لحظة مشحونة بالخوف، معبّأة بالرعب، بالانتقام، محمّلة بعبء الشجن ولوعة الآهات أمام ظرف جلاد لا يرحم. إنها القمة التي ليس من بعدها قمم، تلك التي تقف عليها الروح شامخة، تنتظر لحظة العدم، تنظر إلى الفضاء الممتد وكأنه ساحة وغى، تمهد لذاتها طريقًا مستقيمًا كخط وصل بين الدنيا والآخرة، حيث تجد في رحابها زوجها وابنها فرحين بها وبقرارها.

قالت لأم عائشة بصوت مرتجف، تخالطه خيفة خفية:

– السلام عليكم...

– وعليكم السلام، خيرًا يا هدى؟ أراكِ لستِ على ما يرام، تفضلي، ادخلي للدار...

– لا، لا، ليس وقت ضيافة، إن شاء الله بعد عودتي من مشواري سأجلس معكِ. لا تقلقي، إنه مجرد ضيق يعتري صدري باستمرار... حبيبتي أم عائشة، أود ترك ريم عندكِ حتى أعود من

السوق. ترين الجو عاصفًا، ولا أريد أن أحتار بها وهي برفقتي، وقد أنشغل بالبضاعة.

– على الرحب والسعة... تعالي حبيبتي ريم، ادخلي، العبي مع عائشة.

– خذي هذا الرقم، رقم أخي قاسم، لربما يمنعني القدر من العودة. الحياة أصبحت غير آمنة، وإذا ما تأخرت، اتصلي به. الوضع لا يسر، والناس باتت تخاف من المفاجآت المدفونة في الطرق.

– لا تقولي ذلك، إن شاء الله تعودين بالسلامة. أدعي الله ألا يصيبكِ مكروه، يكفي ما أصابكِ. اقرئي آية الكرسي، تحفظكِ من شر الأشرار.

– شكرًا لكِ، الأوضاع مقلقة، والحذر واجب...

ثم أخذت جارتها بالأحضان، وودعتها والدمع يترقرق في محجريها.

– مع السلامة...

– مع السلامة، قالت لها ريم:

– ماما، لا تتأخري...

– لا، ماما لن تتأخر، كوني عاقلة، ولا تزعجي عائشة، لا تعملي فوضى أو مشكلة، سأعود حال إنجاز شغلي.

– صار، ماما...

خرجت من البيت في يوم عاصفٍ هفيفٍ، يتخلله رذاذ مطر ينبئ بيوم غير عادي. خرجت وهي في قمة عزمها، لكن بقي صوت

ريم عالقًا كأقراط في أذنيها، ذلك الصوت النغام جلجل صوان أذنيها بإيقاعه.

كانت لقرقعة القوارير وصفير الريح المجتمع في ذلك المكان رهبة في النفس، حيث لم يهدأ ضجيجها طوال الليل، إلى جانب الشجر المجنّة بحفيفها. ارتجاج درف النوافذ وصك مصاريع الأبواب كان له وقع على النفس كأنها في زفة عرس، صرّت وزمجرت وهي تمازح عبث الريح ووقع صخبه، لتزيد طقطقة الرعب في القلوب الضعيفة، ولتشد من عزم هدى تجاه هدفها.

شمسٌ ناحلةٌ في الأفق، منزويةٌ خلف غيومٍ سوداءَ عابرة، خجلةٌ من إطلالة هدى وعزمها، تكاد لا تُرى إلا وهي مغشّاةٌ بمظلةِ السحبِ الكامنة، مجترّةٌ وقعَ ذلك اليومِ الأخيرِ من حياةِ هدى، كأنها تعزُّ عليها ألّا تراها ثانيةً، فتنكبُّ حزينةً خلفَ هالاتِ الغمام. لا يزال الوقتُ مبكرًا في ذلك الصباحِ الأخيرِ من شهرِ شباط، والرياحُ الشتويةُ المقلقةُ تصفرُ في أبواقِ النفير، معلنةً حالةَ الوجلِ العامِ ليومٍ ملبّدٍ بالمفاجآت. الأشجارُ توافقُ الريحَ في عزفِ حفيفها، تنذرُ العصافيرَ والطيورَ التي لم نعد نسمعُ لها زقزقةً ولا هديلًا في ظلِّ طقسٍ قمطريرٍ، محتبسٍ، عبوسٍ.

كأنَّ الطيورَ قد تهيأت هي الأخرى لتنزوي خلفَ المدى، مرعوبةً من مواجهةِ غلِّ شتاءٍ أجوف، قانطةً في أعشاشِها الهشّة، لا يُشعرُ بوجودِها، ولا تُرى ترفرفُ في سماءِ بغداد كما اعتادت. كأنها هجرت المكانَ والزمانَ إلى أماكنَ أكثرَ أمانًا وسحرًا وهدوءًا، تبحثُ عن السكونِ الذي ظلَّ طريقَها في متاهاتِ دروبِ الاحتلال.

هكذا شعرت هي الأخرى بتغيّرِ الأجواءِ من حولها، فلم تعد تروقُ لها الفوضى والأمكنةُ القديمة، بعد أن خلخلَ أجواءَها وهزَّ حصونَها عصفُ البنادقِ والمدافعِ المغتاظةِ التي حطّت على بغداد،

وبالــذات فــي ذلــك الحــيِّ المشــبوهِ المســمّى بالأعظميــة، إحــدى بــؤرِ المقاومـةِ السـنيةِ الشرسـةِ فـي بغـداد، حيـث تحوّلـت أزقّتُـه إلـى كـورِ نـارٍ مشـتعلة، لبـراكينَ غضـبٍ عنيـفٍ تلفـظُ حممَهـا فـي وجـهِ الغاصـبِ المحتل.

شـعرتْ بـالزمنِ المعلـولِ يعـاكسُ سـراطَها، يسـرجُ شـعرَها الأصـهبَ بأسـنانِ مشـاطِ الخـوف، يُلبسُـها جلبابًـا أبـيضَ لزفّتِهـا الأخيـرة. الوجـوهُ مـن حولهـا معفّـرةٌ بـالألم، كـلٌّ غـارقٌ فـي همِّـه، وهـي غارقـةٌ فـي همِّهـا، ونجـاحِ عزمِهـا، وثأرِهـا القـادم. النـاسُ منشـغلةٌ بظلـفِ العـيشِ وأمـورِ الــدنيا، تــركضُ خلــفَ هــاجسِ تــدبيرِ الــرزقِ اليــوميِّ فــي تلــك الصـباحاتِ الرتيبـةِ، المتكـرّرةِ، بعيـدًا عـن همجيـةِ القـدر، متمنّيـةً عـودةَ الأمـانِ مـن رحلتِـه الطويلـة. كـلُّ صـباحٍ تخـرجُ مـن البيـتِ ولا تضـمنُ عودتَها سالمةً، معتمدةً في سعيِها على إيمانِها بالقدرِ والنصيب.

رجـلٌ مسـنٌّ يـدفعُ عربـةً تحتـوي علـى بضـعةِ أنـواعٍ مـن الخضـارِ والطمــاطمِ وكــيسٍ باذنجــانٍ وقليــلٍ مــن خضــرةِ الكــرفسِ والرشــادِ والفجلِ والبصل. آخرُ يحملُ على ظهرِه كيسًا من الخيار، يبدو ثقيلًا علــى عمــرِه الخمســينيّ وجســدِه النحيــل، ولا بــديلَ آخــرَ يقنعُــه. أولادٌ بعمــرِ الزهــورِ، علــى قلــتِهم، يلعبــون فــي جانــبٍ مــن الزقــاقِ قــربَ بيوتــاتِهم. النـــاسُ بشـــكلٍ عـــامٍّ زائغـــةٌ فـــي جحورِهـــا، مغشّـــاةٌ بجلـــدِ الخـوف، محتـارةٌ بـين تجنّـبِ الرعـبِ ورتابـةِ تـدبيرِ لقمـةِ العـيش. وجـوهٌ بائسـةٌ، تهجـسُ بفقاعـةٍ طافحـةٍ عليهـا، مفتقـدةٌ نضـارتَها، أشـياءُ مبهمـةٌ غيـرُ ملموسـةٍ تكمـلُ إدراكَهـا. الكـلُّ يستفسـرُ، يبحـثُ عـن سـمةٍ مفقـودةٍ بــين ســلوكياتِ البشــر، جــرّاءَ غــلِّ فوضــى الاحــتلالِ الــذي جــاشَ بــين النــاس، ملتمسـةً جـامَ حقـدِه وكراهيتِـه وغضـبِه. نفـوسٌ متـذمّرةٌ تبحـثُ عـن الكرامـةِ والأمـانِ بـين أقـدامِ المحتـلِّ المشـبعةِ بالمساميرِ الخادشـة، كــأنهم تعــوّدوا علــى تحمّــلِ جهــمِ اليــأسِ بســببِ الكبــتِ الــذي مُــورس ضـدّهم مـن قبـلِ السـلطاتِ الآنفـةِ فيمـا سـبق. باتـت تشـعرُ بـاليومِ التـالي

الذي سيكونُ أسوأَ من سابقِه، هكذا ظلَّ يعاني الشعبُ وهو يتنفّسُ الصبرَ المرَّ عبرَ العقودِ والحقبِ دونَ علاج.

بعضُ الدكاكينِ بدأت تفتحُ أبوابَها لترتزق، أكياسُ النايلونِ الملوّنةِ متطايرةٌ في الأفقِ هنا وهناك، وكأنَّ اليومَ مهرجانُ فرحٍ ستشرعُ بطقوسِه هدى. ستشرعُ الاحتفالاتُ من موقعِ جنودِ المارينز، ليكونوا هم أوّلَ من يبتهجُ باليومِ الجديدِ على طريقةِ هدى. سيكونُ مهرجانَ نصرٍ وزهوٍ حين تأخذُ بثأرِ حبيبِها وفلذةِ كبدِها، يجبُ ألّا تذهبَ دماؤهم سُدى.

خَرَتَتْ الطرقُ بيقينٍ وهي تحفُّ الخطواتِ خلفَ مصيرِها المجهول، كلُّها أملٌ أن تلحقَ ذاتَها بركبِ عزيزيها، تراهم في مخيّلتِها يسايرونَها جنبًا إلى جنب، يؤازرونَها، يحثّونَها على المضيّ قدمًا، يشجّعانِها على المبادرةِ والوصولِ إلى الحياةِ الجديدةِ الأجملِ والأوسعِ ملاذًا ممّا تملك. تهجسُ بهما ينتظرانِها خلفَ حاجزِ الذاكرة، لا يفصلُها عنهما سوى هالةٍ ضبابيةٍ تغشّي عينيها، عليها أن تقتحمَها بعزمٍ لتلتقيَ بهما، إنّها الجنّةُ التي تشتاق.

القلبُ مطمئنٌّ، القرارُ صائبٌ من وجهةِ نظرِها، لم تعد تملكُ قيدَ شكٍّ في ذلك، لم تعد تنظرُ إلى الدنيا وما يدعوها أن تعيشَ لأجلِه. ثمّ إنَّ الجهادَ ضدَّ المحتلِّ فرضٌ وواجبٌ وسنّةٌ لا بدَّ منه، وهو من مسلّماتِ المسلمِ المذكورةِ في القرآن الكريم: {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ} – الحج 78، صدق الله العظيم. وكما قال تعالى: {ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ} – صدق الله العظيم.

إذاً، فهو شرع الله في الأرض، ليعز الإنسان كرامته، ويطرد المحتل، ويرفع راية "الله أكبر" خفاقة في السماء. هذا يعني أنها

ستـرافق زوجهـا وابنهـا إلـى ريـاض الفـردوس، حيـث لا ظلـم ولا قهـر، بل طمأنينة وسكينة أبدية.

كانـت تقـرأ الآيـات بصـوت خافـت، يخـتلط بنـبض قلبهـا، وهـي تجتـاز الشـوارع متجهـة نحـو نقطـة عبـور قريبـة مـن جسـر الأئمـة، حيـث يتجمـع جنـود المـارينز الأمـريكيين، فـي موقـع اسـتراتيجي يـربط بـين الأعظميـة والكاظميـة، ويسـهّل علـيهم السـيطرة علـى المـدينتين والمنطقـة بأسـرها. جسـر الأئمـة، ذلـك المعبـر الرئيسـي الـذي يصـل ضـفتي بغـداد، الكـرخ والرصـافة، صـار الآن بوابـة عبورهـا إلـى مصيرها المحتوم.

فـي تلـك اللحظـة، لـم تعـد تـرى شيئًا أمامهـا سـوى هالـة سـوداء ترشـدها إلـى مكـان التنفيـذ. إنهـا اللحظـات الأخيـرة مـن حياتهـا، وذهنهـا منصـبٌ نحـو الهـدف القريـب، البـائن أمامهـا، ذلـك الـذي صـار شـراع مركبهـا يلـوّح فـي الأفـق. عيناهـا مبيضـتان، لا تـرى فيهمـا سـوى طريـق مسـتقيم، معبّـد إلـى قبـة الهـدف. سـيقانها مبرمجتـان علـى تناسـق الحركـة، تتحركـان كآلـة ميكانيكيـة، تتسـابقان الخطـوة بترنيمـة ثابتـة، لا تشـعرها بالكلـل أو الملـل، ولا بالجهـد المبـذول، كأنهـا مغـذّاة بشـحنة طاقة إيجابية من الإصرار والتحدي.

كانـت ممسـكة بقرارهـا بيـدها وبقلبهـا، يكـاد الخـوف يرتعـد منهـا، لا يردعهـا رادع عـن تنفيـذ خطتهـا. حاضـرة بكامـل كيانهـا، بعـزم لا يلين، كجبلٍ أشمّ لا تهزه ريح، ولا تفتّ من عضده العواصف.

فـي طريقهـا، اقتنـت مـن بقالـة ثلاثـة كيلوغرامـات مـن البرتقـال، عبّأتهـا فـي كـيس شـفاف، ومضـت خلـف سـعيها الـذي يسـبقها بخطـوات عديـدة. اقتربـت مـن حـدود خـط النـار، حينهـا تـراءى لهـا الهـدف عـن بعـد، أشـبه بتفاحـة ترنـو إلـى قضـمها قبـل أن تتـدحرج فـي منحـدر الفشـل. وضـعت يـدها اليسـرى علـى زنـاد الحـزام الناسـف تحـت عباءتهـا، بينمـا تحمـل

باليمنى كيس البرتقال، متجهة بشكل مباشر ومستقيم نحو أقرب سيارة همر جاثمة في زاوية مدخل الجسر.

ما إن رآها جندي المارينز حتى صرخ بها بصوت زعيق أجش، مصوّبًا سلاحه نحوها:

– Stop!

تحجّرت في مكانها، رفعت حاجبها كإشارة ودّ منها، وأطلقت ابتسامة شفافة مشرقة طفحت على ثغرها الجذاب. بان وجهها الجميل مشرقًا بنوره، كالبدر في ليلة الزبرقان. كان ذلك النور كاشفًا لبراءتها، ومثيرًا لغبار الرغبة المكبوتة في نفوسهم الجانحة، أولئك الذين غطّى الظلام الجنسي على أيامهم، وأثار غبرة الشهوة في يومهم الكالح. فمنذ أن وطأت أقدامهم أرض العراق، وهم في حالة صيام تام عن الرفث والفسوق، يلهثون خلف أي ومضة أنثوية تذكّرهم بما فقدوه.

حينها، تركت كيس البرتقال على الأرض، ثم دارت وجهها عائدة أدراجها، ممسكة بمسار عودتها، كأنها تراجع خطواتها الأخيرة في الحياة، أو كأنها تمنحهم فرصة أخيرة لفهم ما لم يُفهم.

نادى عليها ذات الجندي مرة أخرى...

- Stop. come back

جعت إليهم بخطوات بطيئة، والغبطة أغشت قلبها بنسيم الفرح. كانت قد غرست تلك الغبطة بابتسامة مشرقة، ما دعا الجندي إلى استيقافها؛ شكه وارتعاده من المفاجأة، وما دعاه إلى العدول عن قراره، غريزته الجنسية وتلك الابتسامة الشفافة التي لسعته بها، وما أزاح شكه تركها لكيس البرتقال في محل وقوفها... ذلك ما

عـدّل مــن وجهــة نظــره للموقــف. اســتلذ بإشــراقة وجههــا ولطافــة ابتسامتها، فطلب منها العدول والعودة إليهم.

فـي الوهلـة الأولـى، كانـت ترتعـب مـن الغـدر، وكـانوا هـم يرتعبـون مـن الغـدر، كـلٌّ هـوى فكـره نحـو غـدر الآخـر. بعـد أن وجـدوا أنهـا تركـت لهـم كـيس البرتقــال، توقعــوا منهــا حســن نيــة، وبعــد أن تراجــع فــي قــراره، طلــب ودهــا والعــودة إليــه. حينهــا توقعــت منــه خســة ونذالــة ونــزوة غريزيــة أرهقــت مشــاعره. كانــت قــد اســتعدت لــذلك بعطرهــا ومكياجهـا وإشـراقة وجههـا... الفراسـة حاضـرة، ومـن خلالهـا قـرأت المشــهد، قــدّرت شــكل الغايــة المدفونــة فــي جعــبهم، ولــون مــآربهم الخاوية.

كانـت للابتسـامة دور فـي كشـط هالـة الشـك عـن الأذهـان، كـان لهـا وقـع قدحــة زنــاد الغريــزة فــي حطــب الفــؤاد، أوقــدت ذبالــة خســتهم، فبــاتوا يتــأملون لظــى نــور وجههــا المشــرق. أضــحت الابتســامة إشــارة ود ورضــا، كلغـم بعثرتـه فـي أحضــانهم، وهـي تـدرك جيـدًا أن المتواجـدين هـم مـن فئـة الشـباب، ممـن يعشـقون النسـاء والخمـر والجـنس واللهـو، كمـا أنهـم متعطشـون فعـلاً لـذوات الجـنس اللطيـف، لتـرويح الـذات بعـد فترة صيام جزلت قواهم وشغلت تفكيرهم في عملهم المكلفين به.

إنهـا بكيانهـا فرصـة مواتيـة أتيحـت لهـم، أتـت براحـل قـدميها تبحـث عـنهم دون أن يكلفـوا أنفسـهم عنـاء البحـث عنهـا. هـم يـدركون جيـدًا أنهــم لا يســتطيعون المجازفــة فــي ممارســة البغــاء أو البحــث عــن الجــنس فــي دوامــة الخــوف التــي باتــت تحــيط بهــم وتلاحقهــم فــي أوكارهم، حيث الأماكن كلها ملغّمة.

كـيس البرتقـال طمـأنهم، والغمـزة حرّكـت هواجسـهم، والوجـه المشـرق أغـراهم وحـرث أفكـارهم وحـرك عـواطفهم، وكأنهـا دعـتهم للتراخـي والتــأني والعــدول إلــى ملاطفتهــا. وقــد انصــب تفكيــرهم إلــى إتمــام

جريمة خستهم داخل عجلة الهمر المتهيئة لمجموعة من الجنود، أو جرّها إلى نقطة استقرار فصيلهم التي لا تبعد كثيرًا عن موقع حراستهم.

أقبلت عليهم بوجه باسم، ضاحك، منشرح، لتقابل به ربها وزوجها وابنها. عندها أدركت غايتها، ها هي تقترب من تحقيق مأربها، ما هي سوى ثوانٍ معدودة والأمر سينتهي، ستصبح في عداد خبر كان، بعدها لن تشعر سوى بصفاء الضمير.

ما أن وصلت على بعد خطوة قريبة من المجموعة، وهي ترى بسمة فرح طرأت في وجوههم بعد أن تجمعوا حولها خمسة شبان لاستقبالها، في الوقت الذي طرأ على وجهها ابتسامة شفافة بنجاح مهمتها؛ حتى تلاقت الابتسامات على وقع تفجير عاصف شرشر أجسادهم إلى أشلاء متناثرة، تحولت مع العصف إلى نثار غطّى مساحة الحدث، اختلطت الدماء الزكية بالفاسدة، في بقعة ارتفعت بها النار بعد أن جرفت عجلة الهمر بما فيها إلى واقعها.

كانوا أربعة جنود وسائقهم، أصبحوا في لحظة العصف إلى ركام، تطايروا في أرجاء الكون كغبار متناثر، ذراتهم على بقعة واسعة شذر مذر، تقطعت أشلاؤهم لأرب في أرجاء المعمورة، تبخروا مع دخان العصف بلحظة واحدة، لم يُترك في المكان سوى أثر العصف والنار المضرمة بالعجلة، والدخان تسلق عنان السماء ليشهد على انتهاء المهمة. كل شيء تفحّم بلحظة العصف، تهتك، لم يُعثر من بقاياهم سوى على نثار عباءتها السوداء.

أخيرًا، استقر ضميرها، جنحت بنفسها لوهدة الانتقام، ثأرت لابنها وزوجها، ذهبت شهيدة مطمئنة إلى مصيرها الأخير. {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} – آل عمران 169. صدق الله العظيم.

أما أم عائشة، فقد بقيت تنتظر عودتها حتى ساعة الأصيل دون أن تعود. لم تجد لها خبرًا يطمئنها، لكن خبر التفجير سمع به القاصي والداني في الأعظمية، تناقلته الأنباء بسرعة البرق: تفجير عجلة همر ومقتل عدد من جنود المارينز.

لم تجد مناصًا من أن تتصل بقاسم. كان قاسم قد سمع بالخبر عن طريق مكالمة مجهولة في تمام العاشرة صباحًا، مع ساعة الانفجار. كان وقع الخبر عليه كالصاعقة، جعله يدور في دوامة حيرته، وكان الخبر مختصرًا جدًا في عنوانه ومفاده:

{مبروك شهادة أختك هدى}

الصدمة هزّته، أيقظته من غفلته. كيف استشهدت؟ أين تركت ابنتها ريم؟ الخبر يقول "مبروك"، فمن اتصل به؟ إذاً في الخبر تكمن أسرار. ربما لم تُقتل مطلقًا، بل قامت بعملية استشهادية خالصة، ربما ثأرت لابنها وزوجها. كيف يتحرّى عن الخبر؟ كيف يذهب للمنطقة ويسأل عن أخبارها؟ ربما بيتها مراقب من قبل الأمريكان، بذلك سيعرض نفسه للمساءلة والملاحقة والسجن.

بقي أسير نفسه، ينتظر الفرج وهو يتابع الأخبار عبر المذياع. لم يستطع أن يبوح بالخبر، كتمه عن زوجته، خشية أن تثار بردة فعل تفضح نفسها وتفضحه. صار يكلم نفسه وهو في ذهول تام: دعني أهيئ فرصة لذلك. لا يستطيع أن يسأل عنها في منطقة سكناها، لا يستطيع أن يسأل عنها من جيرانها، الخوف من المجهول والحذر باتا واجبين، بل صار لزامًا عليه أن يتخفّى عن الأنظار، أن يتحفّى بالحذر، أن يبتعد عن الناس.

وفي تمام الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم، كلمته أم عائشة، أخبرته عن تأخر هدى، قائلة له:

– أخ قاسم، السلام عليكم. أختك هدى ذهبت للسوق وتركت ابنتها ريم عندي، وهي منذ الصباح الباكر وحتى هذه الساعة لم تعد. وقد أخبرتني أنه إذا ما أعاقها قدر أو تأخرت لسبب ما، أتصل بك وأخبرك. الوضع غير مطمئن وقلبي يخفق عليها. نسيت أن أخبرك، أنا جارتها أم عائشة.

– شكرًا لك يا أم عائشة. هي... هي في المشفى. حبذا لو استطعتِ أن تجلبي ريم معكِ غدًا صباحًا إلى مشفى النعمان، لقد تعرضت لحادث مؤسف وهي في غيبوبة. سأنتظركِ عند باب المشفى في العاشرة صباحًا.

– لا إله إلا الله، وكيف حالها الآن؟

لم يستطع أن يذكر لها الحقيقة، فللحيطان آذان كما يقول المثل.

– كما قلت لكِ، هي في غيبوبة، فاقدة الوعي.

صارت تدعو الله بشفائها، وهي تقول:

– هذه المرأة المسكينة، كأنها ملاك طاهر، كأنها كانت تعلم علم الغيب المسبق بمصيرها.

وفي صباح اليوم التالي، انتظرها قاسم عند باب المشفى في سيارته. لم تتأخر عليه أم عائشة، حيث تعرف عليها من خلال ريم، ابنة هدى. حينئذ ناداها باسم الدلع:

– ريّمه، ريّمه...

التفتت إليه ريم:

– عمه، عمه، هذا خالو قاسم.

فتح باب سيارته وأجلس ريم في داخلها، ثم تحدث مع أم عائشة التي يلتقيها أول مرة قائلا لها:.....

- السلام عليكم. شكرا لوفائك وإيصالك ريم لهنا.
- أخبرني عن هدى كيف هي الآن، وهل أستطع زيارتها؟
- لا لا - لن تستطيعِي رؤيتها، أرجوا منك أن تمسكِي أعصابكِ وتخفضِي من صوتكِ، كي لا يشك بنا الأمريكان والجواسيس الذين يراقبون الناس، والذين يشمون الأخبار عن بعد، فكلابهم البوليسية منتشرة في كل مكان. هدى تشكرك وتبلغ السلام، أرجوا أن تكونِي صبورة على وفاءك اتجاهها، لأنك لن تتمكنِي من رؤيتها مرة أخرى، لقت انتقلت لجوار ربها...
- لا لا تقول ذلك.. نزلت دمعة من عينيها.
- يوم أمس هي من فجرت نفسها في مجموعة من جنود الأمريكان، هي من أوقعت بهم خمسة قتلى وأحرقت عجلة الهمر. أرجوكِ لا تتصلِي بي مرة أخرى، لا تتكلمِي بالموضوع نهائيا، فلوا عرفوا بأن ريم كانت مختبئة في داركم أو شموا خبرا من هذا القبيل، سيشملك الاتهام، سيسجنونك، أي اشاعة تطلق ستجرك لمعترك السين الجيم، ربما سينتقمون منكِ ومن زوجكِ وأولادكِ! أرجوكِ أكتمِ السر وأدعِي لها بالجنة، هي الآن بأمس الحاجة للدعاء، لقد حددت مصيرها واتخذت قرارها.
- حاضر أخي، أنك فاجأتني بالخبر(صارت تعيد شريط الأمس وما دار بينها وبين هدى)، كانت فرحة مبتهجة، مسحة من الحمرة الشفيفة تغطي وجنتيها وشفتيها، استغربت من سلوكها، كانت جميلة، أرادت أن تقابل ربها بأحسن وجه، الله يرحمها. لا تهتم هي أختي وعزيزة عليَّ، فهي جارتي منذ خمسة عشرة سنة.

مسـحت بـأتراف كفيهـا دمعـة انحـدرت علـى خـدها الناصـع البيـاض، وكأنهـا قطـرات نـدى انحـدرت علـى نضـارة ورق شـجر غـض، حينهـا ودعتـــه والحـــزن يكـــاد يتقطـــر مـــن صـــحن وجههـــا، وفـــي صـــدرها حشــرجة آهــات محصــورة، تكــاد تختــرق جــدار الصــمت المغشــي بالحزن لولا مخافة الفضيحة.

الفصل الخامس

1

.

لَـمْ يَكُـنْ جَاسِـمُ يَعْلَـمُ بِكُـلِّ مَـا أُحِـيطَ بِـهِ أَخُـوهُ قَاسِـمٌ مِـنْ عِـبْءٍ وَزَنْقَـةٍ وَمُطَبَّـاتٍ أَرْعَبَتْـهُ، أَرْدَمَـتْ حُلْمَـهُ، قَوَّضَـتْ صَـبْرَهُ. ذَلِـكَ الْمَنْسِـيُّ لَـمْ يَعْلَـمْ حَتَّـى بِاسْتِشْـهَادِ أُخْتِـهِ هُـدَى، وَلَـمْ يُخْبِـرْهُ قَاسِمٌ بِـذَلِكَ خَوْفًـا مِـنْ أَنْ يُفْشِيَ سِرَّهَا لِزُمَلَائِهِ بِهَذَيَانٍ يَجُرُّهُ بِهَا لِعُقَدٍ جَدِيدَةٍ هُوَ فِي غِنًى عَنْهَا.

فِـي الْحَقِيقَـةِ، هُنَـاكَ بَـوْنٌ شَاسِـعٌ بَـيْنَ الْأَخَـوَيْنِ كَـانَ قَـدْ فَرَضَـهُ جَاسِـمٌ عَلَـى أَخِيـهِ قَاسِـمِ دُونَ قَصْـدٍ مِنْـهُ، سُـلُوكُهُ الْعَبَثِـيُّ الْمُشِـينُ غَيْـرُ الْمَسْـؤُولِ وَعَـدَمُ الْتِزَامِـهِ وَاحْتِرَامِـهِ لِلْقِـيَمِ بِشَـكْلٍ عَـامٍّ؛ جَعَـلَ قَاسِـمًا يَضَـعُ جَاسِـمَ فِـي إِطَـارٍ خَـاصٍّ خَـارِجَ فِكْـرِهِ، ضِـمْنَ دَائِـرَةِ الْفَشَـلِ. فِـي كُـلِّ مَـا مَضَـى لَـمْ يَنْتَبِـهْ إِلَـى سُـلُوكِ جَاسِـمِ الْعُـدْوَانِيِّ، إِنَّمَـا انْتَبَـهَ عَلَـى غَبَائِهِ الْعَبَثِيِّ الْعَشْوَائِيِّ.

كُلٌّ مِنْهُمَا عَـاشَ فِـي عَـالَمٍ مُنْفَصِـلٍ عَـنِ الثَّـانِي، كُـلٌّ لَـهُ أَهْـوَاؤُهُ وَتَهَيُّؤَاتُـهُ الْمُخْتَلِفَـةُ عَـنْ شَـقِيقِهِ، هَـذَا غَـارِقٌ فِـي فِـتَنِ نَـرْجِسَ، مَهْـوُوسٌ بِعَبَقِهَـا وَطَرَاوَةِ جَسَدِهَا وَحُلْمِ السَّعَادَةِ، وَذَاكَ مَلْتَهٍ بِالْعُقَدِ الدَّائِرَةِ حَوْلَهُ...

وَبَيْنَمَـا نَـرْجِسُ كَانَـتْ كَبَعُوضَـةِ الْأَنُـوفِلِسْ بِالنِّسْـبَةِ لِجَاسِـمَ، تَمْـتَصُّ دَمَـهُ دُونَ أَنْ يُـدْرِكَ الْهُـوَّةَ الَّتِـي سَـقَطَ فِيهَـا. دُونَ أَنْ يَشْـعُرَ بِنَـوْعِ وَعُمْـقِ الْكَارِثَـةِ الَّتِـي أَحَاطَـتْ بِـهِ وَقَرَّحَـتْ قَدَمَيْـهِ بِسَـوَادِ مِلْـحِ الـدُّنْيَا، دُونَ أَنْ يَشْـعُرَ بِسَـعَادَةٍ تُحَـرِّكُ مِيَـاهَ صَـبْرِهِ. كُـلُّ ذَلِـكَ نَتِيجَـةُ الْحِرْمَـانِ الَّـذِي عَاشَهُ.

صَـحِيحٌ أَنَّـهُ هَـشٌّ وَفَـارِغٌ وَابْـنُ هَـوَى، لَكِنَّـهُ فِـي الْآخِـرِ هُـوَ إِنْسَـانٌ، يَحْمِـلُ فِـي ثَنَايَـاهُ أَحْلَامًـا وَرْدِيَّـةً وَمَشَـاعِرَ جَيَّاشَـةً، وَدَّ أَنْ يَعِـيشَ فِـي ظِلَالِهَـا كَبَـاقِي الْبَشَـرِ، وَدَّ أَنْ تَكُـونَ لَـهُ أُسْـرَةٌ وَكِيَـانٌ خَـاصٌّ بِـهِ، يُـدَافِعُ عَنْهَـا وَيَتَغَنَّـى بِهَـا. وَضْـعٌ يَتَحَسَّسُـهُ، يَشْـعُرُ بِوُجُـودِهِ كَطَـرَفٍ فَعَّـالٍ فِـي

الْمُجْتَمَـعِ، كَحَقِيقَـةٍ تَحْتَمِـلُ الْأَضْـوَاءَ، وَلَـيْسَ كَظِـلٍّ زَائِـلٍ مَـعَ غُـرُوبِ الشَّمْسِ.

مَـا كَـانَ يَنْقُصُـهُ وَأَثَّـرَ فِيـهِ؛ هُـوَ بِئْـرُ الْحِرْمَـانِ الَّـذِي شَـرِبَ مِنْـهُ وَمِـنْ ثَـمَّ سَقَطَ فِيـهِ كَحَجَـرِ صَـوَّانٍ، لَـمْ يَرْتَـوِ مِـنْ شَـغَفِهِ، لَـمْ يَرْتَشِـفْ سِـوَى غُرْفَـةٍ أَوْ غُـرْفَتَيْنِ وَبَـيْنَ الْأَحَـايِينِ... ذَلِـكَ الَّـذِي سَـعَى خَلْفَـهُ لَـمْ يَكُـنْ شَـهْدًا؛ إِنَّمَـا دَبِقَ الشَّـهْوَةِ، تِلْـكَ الَّتِـي ظَـلَّ يَلْعَـقُ بِهَـا وَيَتْبَـعُ أَثَرَهَـا حَتَّـى أَنَّهَكَـتْ جَيْبَـهُ، فَصَارَ السُّمُّ يَجْرِي بِدَمِهِ، يَغُزُّ فُؤَادَهُ.

بَقِيَـتْ غَوَايَتُـهُ تَنْحَـدِرُ بِـهِ نَحْـوَ الـدَّرَكِ كَكَـابُوسٍ مُـزْعِجٍ يُـؤَرِّقُ ذَاتَـهُ وَيَعْصِـبُ عَيْنَيْـهِ، مُتَّبِعًـا أَنْفَاسَـهُ الْعَطْشَـى، جَانِحًـا خَلْـفَ مَلَـذَّاتِ الْهَـوَى بِـذَاتِ الْإِرَادَةِ وَالْهَلْوَسَـةِ. مُـتَحَمِّلًا نَـزْفَ صَـبْرِهِ الْمُـرَاقِ فِـي سِـرِّهِ، وَالَّذِي لَا يُعِينُـهُ عَلَـى الْجَلَـدِ، سِوَى أَنْ يُلَامِسَ جَسَـدَهُ ضَـوْءَ أُنْثَـى فَاتِنَـةٍ، كَفَيْضِ نَرْجِسَ أَوْ سُعَادَ.

أَضْـحَى بِكِيَانِـهِ لَوْحَـةً عَبَثِيَّـةً غَيْـرَ مُتَجَانِسَـةٍ، خَلِيطَ وَهْـمٍ وَشَـبَقٍ وَنَـزْفٍ وَرَجَـاءٍ وَإِغْـوَاءٍ وَعَنَـاءٍ، كُلُّهَـا تَصُـبُّ فِـي كَـأْسِ نَرْجِسَ..لِـذَا تَجِـدُهُ مَهْـزُوزًا بِوَاقِـعِ ذَاتِ، مهـزوم فـي داخـل نفسـه، مزكـوم برائحـة انثـى، محـزوز النيـة بمفاتنهـا، كقـط يتحايـل الفـرص مشـبقٌ بهـا حـد العنـاء، قنـع بحَجـر لطفهـا، قـانط بـين لتعـة الشـوق وجمـوح الرغبـة، شـغوف بأنوثتها وجاذبيتها، ضالع بحسنها، تائه في فلاتها.

بِـذَا خَـرَّتْ صَـنَابِيرُ جُـودِهِ وَكَرَمِـهِ عَلَيْهَـا كَسَـيْلِ عَطْـفٍ، حُـبٍّ، وَمَـادَّةٍ، وَرَغْبَـةٍ، وَثَنَـاءٍ، وَاشْـتِيَاقٍ، أَرْتَمَـى فِـي حَضَـانَتِهَا كَطِفْـلٍ أَرْعَـنَ، انْحَـدَرَ لِشَـوَاطِئِ بَحْرِهَـا الطَّـامِي دُونَ يَقِـينٍ، كَقَـارِبٍ يَخِـقُّ فِـي مَوْجِهَـا الْعَالِي...

جَذَبَتْـهُ الْمَفَـاتِنُ فَغَـرِقَ فِـي سِـحْرِ عَيْنَيْهَـا الْمُسْـتَفْحِلِ، صَـاعَ فِـي قَامَـةِ الْجَسَـدِ الْـبَضِّ، بَـلْ إِنَّـهُ دَفَـنَ قَامَتَـهُ وَشَخْصِـيَّتَهُ وَمَالَـهُ بَـيْنَ سَـلِيطِ فَخِـذَيْهَا،

كَـيْلَا تَمَلَّـهُ، كَـيْلَا تَهْجُـرَ مُعَاشَـرَتَهُ، كَـيْ تَبْقَـى سَـلِيلَةَ صَـبْرِهِ وَصَـمْتِهِ وَعِصْمَتِهِ وَوَلَهِهِ...

كَانَـتِ الْمَـادَّةُ الَّتِـي يُبَـذِّرُهَا عَلَيْهَـا تَزِيـدُ مُـدَاهَنَتَهَا لَـهُ، تُجْعِلُـهُ يَشْـعُرُ بِذَاتِـهِ سُلْطَانَ زَمَانِـهِ عَبْـرَ لَحَظَـاتِ الشَّـوْقِ الْعَـابِرَةِ. تَلْسَـعُهُ، تَغُـزُّهُ، تَتَلَـوَّى بَـيْنَ يَدَيْـهِ كَـأَفْعَى نَاقِمَـةٍ، تَسِمُ بَدَنَـهُ بِأُنُوثَتِهَـا، تَمْـتَصُّ دَمَـهُ، تُرَاوِغُـهُ، تُؤَرِّقُـهُ، تُغَازِلُـهُ، تَسْـتَبِيحُ صَـبْرَهُ وَأَحْلَامَـهُ؛ حَتَّـى يَسْتَسْـلِمَ لَهَـا بِكُـلِّ مَـا فِيـهِ مِـنْ جَبَرُوتٍ وَبَأْسٍ وَسُلْطَانٍ، فَيَشْكُمَ أَنْفَاسَهَا بِمَخْزُونِ جَيْبِهِ...

تِلْـكَ الْحَالَـةُ بِـذَاتِهَا نَقَلَتْـهُ مِـنْ وَاقِـعِ التِّيـهِ لِوَاقِـعِ الضَّـيَاعِ وَالنَّشْـوَةِ وَالْغَرِيـزَةِ، آنَـسَ بِهَـا، تَشَـبَّثَ بِهَـا، أَنْسَـتْهُ مَشَـاكِلَ حَيَاتِـهِ، ضَـعَنَ لِمُتَطَلَّبَاتِهَا وَرَغَبَاتِهَا كَمَا تَشَاءُ...

خِـلَالَ صَـوْمِهِ لَـمْ يَتَـذَوَّقِ اللَّحْـمَ الْمُقَـدَّدَ أَبَـدًا، لَـمْ يَـدْهُنْ بُلْعُومَـهُ بِالسَّـمْنِ الْغَرِيـزِيِّ الْحَيَـوَانِيِّ. لَـمْ يَسْتَنْشِـقْ عَبَـقَ النَّشْـوَةِ وَالشَّـهْوَةِ، لَـمْ يُصَـاحِبْ مَثِيلَـةً لَهَا؛ لِذَا أَغْدَقَ عَلَيْهَا كُلَّ مَا يَمْلِكُ، فَلَمْ يَهْتَمَّ لِنَزْفِ النُّقُودِ الْمُرَاقَةِ فِـي حَجْرِهَـا وَعَلَـى جُحْرِهَـا؛ فَتِلْـكَ الْمَبَـالِغُ الَّتِـي حَصَـلَ عَلَيْهَـا عَـنْ طَرِيـقِ ابْتِـزَازِ أَخِيـهِ لَـمْ يَشْـقَ بِهَـا، لَـمْ يَسْتَشْـعِرْ بِقِيمَتِهَـا، لَـمْ يُبْـذِلْ جُهْـدًا جَهِيدًا فِي تَجْمِيعِهَا.

لِـذَا بَـاتَ يُسَـخِّرُهَا بِسَـخَاءٍ أَمَـامَ رَغَبَاتِـهِ وَرَغَبَاتِهَـا، وَبِالتَّـالِي صَـارَ يَخْسَـرُهَا بِسُـرْعَةٍ دُونَ مُبَـرِّرٍ وَدُونَ مَـرْدُودٍ، مُقَابِـلَ أَنْ يَضْـمَنَ بَقَـاءَ فَاتِنَتِـهِ تَعِـيشُ بِقُرْبِـهِ، رَغْبَـةً بِـأَنْ يَلْـتَمِسَ قَنَاعَـةَ ضَـفَائِرِ الْغَـدِ وَهُـوَ مَطْرُوحٌ بِحَجْرِهَا.

لَقَـدْ عَـاشَ فَتْرَتَـهُ دُونَ تَقْيِيمٍ وَدُونَ حِسَـابٍ، فَلَـمْ يُـتَمِّمْ دَوْرَتَـهُ الْفَصْـلِيَّةَ أَوِ الْمَرْحَلِيَّـةَ إِلَّا وَجُـدْرَانُ خَزِينَتِـهِ قَـدْ وُشِـلَتْ مِـنَ الـنِّعَمِ، إِلَّا وَقَـدْ فَرَغَـتْ جُعْبُهُ تَمَامًا مِنْ مَخْزُونِهَا، طُوِيَتْ صَفَحَاتُ الْوِئَامِ...

فَلَـمْ يُـتَمِّمْ سِـوَى بُضْـعَةِ أَشْـهُرٍ مِـنْ زَوَاجِـهِ الشَّـكْلِيِّ، الصُّـورِيِّ، حَتَّـى سَـقَطَتْ شَـحْمُهُ وَلَحْمُـهُ. جَعَلَـتْ أُنُوثَتُهَـا مَـرَّةً، مِـرْآةً تُرْعِنُـهُ بِهَـا، عَصًـا ذُلٍّ تَهُشُّ بِهَا، أَوْقَعَتْهُ فِي شِبَاكِ الْحَيْرَةِ وَالْهَزِيمَةِ...

جَعَلَـتِ الْعَلَاقَـةَ بَيْنَهُمَـا صَـمْغِيَّةً، مَـا أَنْ يُشَـلَّ مَطَـرُهُ؛ حَتَّـى تَشِـفَّ وَتَجِـفَّ رَغْبَتُهَـا بِـهِ. تَلُـوبُ أَمَامَــهُ فِـي سَـكْرَةِ انْفِصَـالٍ وَبُعَـادٍ، تَمَـلُّ وُجُـودَهُ، تُضَـايِقُهُ بِسِـحْرِهَا، حَتَّـى تُوصِـلَهُ لِمَرْحَلَـةِ الْأَنِـينِ وَالتَّوَسُّـلِ، كَالطِّفْـلِ كُسِرَتْ لُعْبَتُهُ...

أدرك أخيـرًا أنهـا لـم تكـن مرتبطـة بـه إلا بقـدر مـا يمـلأ جيبـه مـن مـال. فمـا إن تتبخـر الـنعم مـن صـحنه، حتـى تتبخـر الألفـة والوشـائج، وتغـدو العلاقـة جافـة لا يُقـاوم صـومها. بـات يشـعر أن المسـافة تضـيق عليـه مـن جهـة، وتتسـع مـن جهـة أخـرى، بـين رغبتـه بهـا ورغبتهـا فيـه. وجد الفقر حاجزًا حادًا كحد السيف، إما أن يقطعه أو يقطعها.

كانـت تبتعـد عنـه كلمـا جفّت المـادة، وتـزداد الهـوة اتسـاعًا كلمـا كشـفت يـده عـن مـداهنتها. العلاقـة أضـحت مجروحـة، لا توصـف بالحميميـة إلا حـين يسـتمر البـذخ، متشـحة بـالخوف والظـلام، تـزداد غـلًا مـع مرور الأيام، وتتحول إلى علاقة بغيضة ومذلة حين يغيب الترف.

نـرجس، برعونتهـا وطلباتهـا، جردتـه مـن بريقـه ومـن وجـوده الفعلـي فـي الحيـاة. شـلت عناصـر قوتـه، وتركتـه يسـبح فـي جـرف العلاقـة دون أن تنبـذه، بـل تحثـه علـى جلـب المزيـد. كانـت تشـكمه الوتـاوت، والجشـع الكـامن فـي حـدقات عينيهـا، تلـك التـي نخـرت جسـده وفكـره كسوسـة، تـذكره بهوانـه وضـعفه، ترهقـه وتصـدعه. وفـي قـرارة نفسـه، لم يجد وسيلة لمجابهتها سوى بلغة الاستسلام.

مـا إن فـرغ صـحنه، حتـى بـدأت تحثـه علـى تـوفير المزيـد لاسـتمرار المعاشـرة الزوجيـة. لـم يخبرهـا عـن طـرق تـوفير ثروتـه، لكنهـا بفراسـتها أدركـت أسـراره، وبألاعيبهـا أنهكتـه وفرغـت جيوبـه. وهـو

الآخر، زاد من استهتاره وعبثه مع صديقيه، فهدر ما سلبه من أخيه، ولم يفق إلا وهو خالي الوفاض من المال والعشرة والقدْر.

في أعماقها، كانت نرجس ترسم أهدافًا بعيدة عن حدود جاسم وتفكيره. لم يكن سوى قنطرة صادفتها في طريقها، محطة استراحة، وسيلة رجاء تمتطيها لبلوغ هدفها الأسمى. لم يكن هو الهدف، بل مجرد مرحلة عابرة نحو حلم بعيد المنال، حلم لا تبلغه ضفائر جاسم ولا تلامسه شمس تلك الحقبة العقيمة.

كانت العقدة والاستحالة في ظرف شائك، وهي أنثى فاتنة، جميلة، تهجس بذاتها، محاطة بوحوش دون معين حقيقي. لذا رأت هدفها كأنه لآلئ صدف مكنونة في جوف بحر عميق، عسير المنال.

سرت هواجسها إلى صديقتها سعاد، التي تعيش ذات الشائكة. فاتفقَتا على الهرب خارج العراق، بمجرد أن تمتلئ جيوبهما بمبالغ دسمة، عبر ابتزاز جاسم وأمثاله، ومن خلال أوكار البغاء التي تطرقانها في الخفاء...

ظلت ملتزمة بالمنهج، طالما جاسم يدرّ عليها بما تشتهي النفس. كبلها الطمع بأن تبقى تحت ظله حتى تسفط لحمه وشحمه. لا ضير في أن تعيش معه فترة ضياع أخرى، تحصّن بها ذاتها، وتلملم بها أشلاء فكرها من دروب المنغصات. هكذا رأت الحياة: لعبة شطارة، والشاطر من يصل في نهاية المطاف إلى خط النجاة.

بعد أن حلّ الاحتلال، تغيّر الوضع العام، اهتزّ، جلجل، وخلا من الروائح العطرة، من الابتسامة، من الأمان، ومن الحياة. أضحى وضعًا غامضًا، جديدًا، متقلبًا، لا يروق لأحد من الرعية، خاصة أصحاب الملاهي ودور العهر والبغاة. التغيّر الذي حلّ في العراق جاء بطعم الحنظل، إذ أصبحت الدولة بلا أسوار، لا تحمي ذاتها من همجية الذئاب. فتنت بها شلّة من أصحاب النفوس الضالة،

المتشحين بالحقد والزهد معًا، ذوي العمائم والحفاة، ومجموعات أخرى تحمل نوايا دفينة، أصبحوا مؤثرين في المجتمع وفي صياغة القرار.

قد يستفتون بظلال وجودهن، ثم ينتقمون منهن بحجة البغاء. صار للعمامة شأن وقرار مؤثر، يعبث بمطرقة العدالة كيفما يشاء. حينها، قد تُباح أجسادهن لهؤلاء الجرذان دون مقابل، وقد يُوضعن تحت الإقامة الجبرية، وسخط الأحذية، والاستغلال، والبغاء، والمتاجرة بأجسادهن كأصحاب الرقيق. كما حصل لاحقًا، حين استغل البعض الفوضى الدائرة لمصلحته وهواه.

بل إن البعض شرع في توسيع دور البغاء والملاهي تحت مسميات متعددة، وقد تُسفك دماؤهن بإشارة من أولئك لتفعيل الفوضى. وقد... وقد... سلسلة من احتمالات مجهولة تفرض شؤونها عليهن، دون أن يتمكنّ من إنقاذ أنفسهن من تلك الشباك المحاكة، والمحاكمات المقامة حولهن بلا قواعد تحميهن من الخبث الدارج والواضح في قسائم السلطة.

تلك الأوضاع أوصلتها إلى قناعة تحمي ذاتها من قبضة المجرمين، ألا وهي الزواج الشكلي من جاسم. لم يكن زواجها منه سوى ستر وغطاء من جهة، وفرصة بزنس تغطي بها أعين المارقين والمغازلين والمغليين ولجاجة الظرف من جهة أخرى. كان تفعيلًا لفرصة اغتناء متاحة أمامها من الوجبات السريعة التي تلتهمها، لتتسلق بها سلم الغنى وتطرد أعين الحشرات الدائرة حولها.

وما أن يشلّ جيبه، حتى تطفح المشاكل فوق سطح العلاقة الزوجية كرغوة الصابون. فتجلده بعصا الغريزة الجنسية، تجب نفسها عن معاشرته، تمنع عنه حليب صدرها، تحرق فمه بفتيل المتعة حتى

يستسلم لها. أضحت تفتش عن الثغرات التي تجلده، ترميه بحجر أنوثتها، فتصيب مشاعره بدقة.

ذلك ما أدى إلى اختلال التوازن في العلاقة، حتى أجبرته على مدّ يده عليها، حين صفعها على وجهها بعد أن طفح الكيل. أوجعها، وترك أثر قسوته على جسدها البض. شعرت حينها بلسعة الإهانة المرة، خارت قواها، وتخلّت عنه بعد أن قارنت بين شموخها تحت ظل زوجها المتوفى، وبين قدرها تحت ظله. هجست بانحراف محور الزمن الذي قوض بهجتها، وجعلها تصمت تحت أقدام جاسم وقدرها المرّ السليط. استهجنت الحالة وهي تخلع ثوب العز والكرامة، لترتدي أسمال الذل والمهانة.

تلك الإهانة دفعتها إلى النفور من بيتها، والهروب من بعلها البغل، لتستقر مع صديقتها سعاد. مثّلت دور الخصام بإتقان، متبعة خطة انتقام، وجعلت من هروبها فترة نقاهة لها وإذلال لجاسم.

لم يصبر جاسم على فراقها، حاول إصلاح شأنها واستردادها، وإعادة المياه إلى مجاريها. ركع تحت قدميها متوسلًا، إلا أنها أبت العودة إلا بشروط: أن يحترمها، ويدفع لها مبلغ خمسة آلاف دولار مقدمًا حتى ترضى به. اعتبرتها ضريبة القسوة التي استخدمت ضدها، وثمنًا لاسترداد كرامتها بعد ما لحقها من إهانة وبطش بغيض.

يقال: الحب أعمى، بصير، طفل تائه في دروب العبث. وكان جاسم قد غرق في بحر نرجس الطامي، تأوّه بعد أن لسع شهد منحلها، هام بها كهيام قيس بليلى، صار يتأمل أن ينقذ عجزه من سيل مجراها المدمر. لم يسبق أن شعر بعطفة أنثى حوته، دهنت غريزته، أو نسمة أرخت أنفاسه وخففت عنه شرود ذهنه وشياطين قلبه. لم تشذبه امرأة من واقع عذابه وولعه وغريزته سواها. لم

تنكت هموم عواطفه أنثى غيرها، ولم يأويه ملجأ سوى ملجئها.... لذا وافق على شروطها وطلباتها جملة وتفصيلًا، على أن تعود له حتى تسنح له فرصة ترتيب وضعه وتجهيز المبلغ المطلوب. عادت إليه تحت تلك الشروط، سيدة تُعامل بالحسنى.

وبعد يومين أو ثلاثة من المعاشرة الزوجية، وبعد أن التصقت أقدامه بغراء اللذة والنسيان، وبعد الزنّ الزائد على أذنيه بصوت الشغف والغريزة والرقة، اتصل بصديقيه جعفر ورشيد لترتيب عملية خطف جديدة، دون أن يعلمهما بأن الشخص المقصود هذه المرة هو أخوه الأكبر، قاسم. أدار الدفة نحو عملية اختطاف جديدة، رتب العمل وخطط معهما بدقة، ولم يبخل عليهما ماديًا كما في العملية الأولى. مثلما كان كريمًا معهم إلى حد النخوة، سيكون كذلك وربما أكثر.

خضع لطلبات نرجس التي زاحمت فكره وأرهقته بثقلها، وهان عليه ابتزاز أخيه مرة أخرى، طالما يستطيع دفع المطلوب منه بيسر. جنحت نفسه خلف هلال أخيه المسكين، ففكر بتجربة الغزوة الثانية على أن تكون دسمة وأخيرة.

طلب من جعفر ورشيد عدم حلاقة ذقنيهما مدة أسبوعين، ونصحهما بالتخفي والابتعاد عن الأماكن العامة وميدان العمل، وأوصاهما بعدم الظهور في منطقة الميدان وباب الشرقي نهائيًا، كما شدد على التكتم والاختباء، وعدم مراجعته في بيته بتاتًا.

كانت نرجس، بإحساسها المرهف، تعرف أن جاسم لص أو مجرم، لكنها لم تكن تعلم أنه نذل وحقير إلى درجة ابتزاز أخيه وتجريده من نعمه. لم يكن يهمها من أين يأتي بالمال، المهم أن تملأ جيوبها بما يكفي ويليق بها، لتعد ذاتها للخطوة القادمة. وعسى أن تحين الفرصة قريبًا للهروب من دائرة الفوضى إلى دائرة الضوء خارج

الـوطن، قبـل أن تلفهـا الفوضـى بعباءتهـا وتقضـي علـى هواجسـها ومشاعرها ورغباتها وتأملاتها، وبالتالي على حياتها.

"لـن يهلـك العبـد حتـى يـؤثر شـهوته علـى دينـه." العيـب لـيس فيهـا كـامرأة جشـعة، بـل فـي الأعمـى الـذي يـركض خلـف ملذاتـه العاطفيـة. والشـاطر مـن يسـتغل الفرصـة المتاحـة أمامـه. وقـد أحكمـت اسـتغلال هـذا الأعمـى حتـى تكتمـل عناصـر خطتهـا. باتـت تخـيط قياسـات لباسـها لـيلائم طولهـا وقامتهـا، وعسـى أن ترتـدي حلتهـا قريبًـا بعـد أن تمكنـت من تفصيل الحالة على مقاسها، بحسب ظنها وفكرها ومخططاتها.

كـان الـزمن قد عـرج بهـا إلـى تلـك المنعطفـات، دعس عليهـا مـع أسـباب الفوضـى، حتـى التقـت جاسـم فـي وكـر البغـاة. فقيمتـه بالنسـبة لهـا لا تتعـدى ضرسًـا مسوسًـا قـابلًا للقلـع متـى حـان القـرار، وهـا هـي الأيـام تقترب من نهاية مسلسلها.

انتفضـت علـى واقعهـا المـريض، باتـت تـركض خلـف أحلامهـا النرجسـية دون توقـف، أضـحت قـاب قوسـين أو أدنـى مـن الإمسـاك بقـبس شمسـها، تـرى سـرج الأحـلام تسـطع فـي سـمائها كمـا النجـوم السـابحة فـي الفضـاء. تهجـس بهـا قريبـة منهـا، وشـيكة مـن ظنهـا وهواجسـها، تتـراءى لهـا كفكـرة ملموسـة، أو لعبـة تتقنهـا، أقـرب مـن حبـل الوريـد. هـا هـي تستنشـق قـداح عطـر مرادهـا، رغـم أن هلالهـا لـم يكتمل بعد.

كانـت هـي وصـديقتها سـعاد قـد اسـتخرجتا جـواز سـفر قبـل أشـهر، واتفقـن علـى السفر عبـر أربيـل ثـم تركيـا، ومنهـا يمكـنهن التنقـل لأي بلـد لاحقًـا. هكـذا خططـن وجـنحن بأفكـارهن لانتشـال أنفسـهن مـن المـأزق المجهـول المحـيط بـالوطن، قبـل أن ينـزلقن فـي مسـتنقع التيـه والهاوية.

الفوضـى عارمـة، فـي توسـع دائـم كـالمجرات، تزحـف علـى كـل شـبر مـن الـوطن، ولـن ينجـو منهـا إلا مـن حـافظ علـى روحـه فـي علبـة مغلقـة بإحكـام. وهـنّ أصـحاب كـار مشـترك، يسـتطعن تسـوية أمـورهن فـي عالم الغربة بيسر.

فـي زيـارة خاطفـة لأخيـه فـي الشـورجة، تفاجـأ قاسـم بتبـدل حـال جاسـم، أبهـره تحولـه مـن حمـال إلـى تـاجر صـغير يتـاجر بـالخردوات. أعجـب بجمبـره أو كشـكه، حيـث يقصـده النـاس لشـراء حاجـاتهم الشخصـية بـالمفرد، بينمـا أصـحاب الـدكاكين يبحثـون عـن الحاجـات بالجملـة. الباعـة القـدامى يعرفـون طريـق الجملـة، أمـا الجـدد فتتعثـر أقـدامهم بجمبر جاسم، فيلجؤون إليه لتسليك أمورهم.

فـي هـذه الأكشـاك، يسـهل علـى المتبضـعين العثـور علـى مبتغـاهم، لأن المحـلات الكبيـرة منزويـة فـي متاهـة الأفـرع، ولا تبيـع بـالمفرد، وأسـعارها مرتفعـة. لـذا وجـد جاسـم الفرصـة لفـرش كشـكه بـأدوات خـردة منوعـة، مـن أدوات مطـبخ وصـيانة ونـواعم تمثـل الحاجـات الشخصـية، كـالملاقط والمقـارض والكريمـات والصـابون وغيرهـا. التنـوع يفسـح المجـال للبحـث عـن الضـالة بـين تلـك المعمعـة، إضـافة إلى بعض اللوازم المعروضة بصيغة الجملة لمن يرغب.

علـم قاسـم بـزواج أخيـه، ولاحـظ التغيـر فـي شـكله ولبسـه وسـلوكه. شـكر ربـه علـى هـذا التغييـر، وصـار يـدعو لـه بـالخير، فـالأخ يفـرح لأخيـه ويحـزن لـه. لكنـه عاتبـه علـى عـدم دعوتـه لحفـل الـزواج، وسـأله عن مصدر المال وهو الذي كان لا يجد لقمة يسد بها جوعه.

فرد جاسم بذكاء:...

- تعـاتبني وانـا لـم أفعـل مـا يثيـر بغضـك، لقـد تزوجـت دون احتفـال، دون بهرجـة، كـان زواجـي مجـرد أتفـاق بينـي وبينهـا،

أنهـا أرملـة أرادت أن يـتم الأمـر سـرا.. ثـم الوضـع لا يسـمح بالاحتفال، ولا المكان يشرف ولا الحالة.
أمـا أن كنـت تسـألني عـن الكشـك الـذي تـراه، أنـه مـن أتعـابي، لا تظـن ظـن السـوء بـي، قسـمٌ مـن البضـاعة تعـود لأصـحاب المتـاجر أقـوم بتصـريفها لهـم، أنهـا مجـرد عمليـة سمسـرة، أبيـع البضاعة بسعر المفرد وأسلمهم قيمتها بسعر الجملة.
ثـم ألا يكفـي بـأني عشـت عمـري أركـض خلـف الـرزق والفاقـة تـركض خلفـي؟ إلا يكفـي أنـي خسـرت عمـري بـين البحـث عـن معنـى السـعادة التـي لـم أرَ وجههـا ولـم المـس جلـدها. يكفـي الفاقـة أتعبتنـي، رسـمت الجـوع فـي محجـر عينـي كهالـة سـواد. إلا يكفـي أنـي بقيـت أسـير الصـمت والسـكوت عـن كـل مـا مـر بـي مـن بـؤس وشـقاء؟ ألا يكفـي أنـي منقطـع عـن العـالم الكـائن من حولي والذي لا يكن لي ولوحدتي التعيسة بصلة؟

- ومـن دفعـك إلـى ذلـك غيـر تهـورك، وعـدم اهتمامـك الأولـي بالحيـاة. كنـت طـول عمـرك جاهـل، طـائش، تبحـث عـن المشـاكل هنـا وهنـاك، وأن لـم تكـن هنـاك مشـكلة فأنـت تخلقهـا- - كـم وكـم مـن مصـائب هـزت كيـاني وأنصـبت علـى رأسـي مـن جـراء تهـورك وتصـرفاتك المشـينة فـي العمـل أو مـع الجيـران. كـم لاحقتنـي العقـد كـوني أخـوك الأكبـر.. هـذا مـا كـان بحـد ذاتـه سـببا كافيـا لطـرد الـنعم مـن دروبـك وعـدم تقبـل الآخـرين لـك. الحمـد لله علـى تغيـر أوضـاعك نحـو الاسـتقرار والسـكينة وعساها أن تستمر معك.
- تستمر أنشاء الله.

ثم تركه راجيا له التوفيق في حياته العملية والزوجية.

وبعد يومين من زيارة كشكه؛ خطرت في باله فكرة أن يقوم بزيارة خاطفة لبيته، ليطلع على أحوال زوجته. والبيت بالأساس هو بيت والدته المرحومة، الخرب.

وخلال زيارته فتحت له الباب امرأة جميلة تشع بهاء ونورا، امرأة كعارضات الأزياء، حسناء، يشع منها ملامحها أنوثة سليطة، وجه مشرق وطول ممشوق، ترصع صدرها المتدفق بالبهاء والطراوة والرقة والحيوية قلادة ذهبية متميزة! فيما يتلألأ في أذنيها قرط كبير أشبه بالهلال.. سألها من أنت؟ ردت عليه:..

- ومن تكون أنت لتسأل؟
- أنا قاسم أخو جاسم.
- أخوه.!!!!.. لم يذكر لي بأن له أخ محترم، تفضل أهلا وسهلا ....أنا نرجس زوجته.
- وأخيرا الحظ أبتسم لأخي ... ما شاء الله، جمال ورقة وبهاء وغنى!
- من أين ... يا حسرة! هذا الذي تراه من ميراث زوجي السابق، أخوك حافي لا يملك شيئا.
- أن كان حافيا لا يملك شيئا؛ لِمَ تزوجته؟
- مجرد ستر وغطاء لا أكثر.

لم يقتنع بكلامها، والدليل الذي حيره أثاث البيت الفاخر، والطلاء الجيد المعني للبيت، كل ذلك هزه وجعله يفكر بالتغير الذي طرئ على أخوه في فترة وجيزة. لم يلبث طويلا، خرج ولم ينبس بشفة بعد أن قدم لها هدية زواجها مبلغ من المال... الحيرة عصفت بفكره، جعلت الشك ينط على حجر أمس القريب، زيارته تركت لأخيه رسالة سرية مفادها بأنه صاحٍ في ثكنته، لازال يداعب الغفلة بعصا الطيبة. وأن الزمن كفيل بكشف المستور المغشي تحت

الحقيقــة الضــائعة. الغفلــة التــي بهــا قــد تتحــول لسوســة تأكــل بدنــه، وتقضي على طيبة طبعه.

اليـوم شـك وغـدا قـرار ويقـين والمسـافة بـين الشـك واليقـين قـد تطـول وقــد تقصــر حســب الظــرف والبحــث والمعرفــة. إِنَّمَــا أَشْــكُو بَثِّــي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ، وإن الله لن يترك عبده تائها.

2

بعد أسبوعين من الترقب، انقضت فترة اختفاء جعفر ورشيد، وحان موعد تنفيذ عملية الاختطاف الثانية؛ الجريمة التي ستكشف ملامح جاسم على حقيقتها: شخص واطئ، خسيس، لا يقف أمام نفسه إلا كظلٍ مشوه، ولا أمام من يقرأ المشهد إلا ككائنٍ منزوع الكرامة، مبتزٌ لأخيه الأكبر، بخطف ابنه أولًا، ثم بخطفه لاحقًا.

المسافة بين الذروة والحضيض طويلة، لا تُقطع بغفلة، بل تُجتاز حين ينزع المرء جلباب كرامته، وغيرته، وعزته، وإيمانه بلحظة. حين يسير في طرقٍ تعاكس خط البهجة العام، يدرك ذاته المهزوزة وهي تنزّ خسة ونذالة من خلاصة تفكيره ومنهجه.

ولأن الارتقاء لا يأتي إلا بعد المرور بمنغصات السفالة والحقارة، فإن هذه الحالة لا تولد فجأة، بل هي تراكمات زمن، وعقد طريق، وسلوك منحرف، وتربية سفيهة. فتضفي على صاحبها بريق أكاذيب وسطوع زيف مغشّى بالقدر. حالة الغياب تلك تنقل صاحبها إما إلى العلن والتظاهر والسلطنة، أو تقوده إلى وهدة العناء والهلاك دون إرادة.

لكن؛...

أبت النذالة أن تفارق أهلها

هي في العظام نخرٌ دميم

وصمة عارٍ تسكن جبين صاحبها

وريحٌ تزكم أنف اللئيم

تلك الخسة لا تبدل جلد صاحبها، ولا تقبلها شريعة أو قانون، لكنها حقيقة مغروسة في النفوس الضعيفة كالنخاع. هؤلاء، في خستهم، يجلجلون قوام ذواتهم قبل أن يخترقوا نفوس الآخرين بمجانق الصخب المنبثقة من أعقابهم وسط سكينة ما، فتنعكس عليهم شرر سخط أعمالهم وآثامهم. فشهادة العهر لا تعر إلا أصحابها.

كان جاسم قد رسم لصديقيه خطة الخطف مع صباح الاثنين الأخير من شهر أيار عام 2005، متزامنة مع لحظة خروج أخيه إلى محل رزقه. فقد درسوا جيدًا مسار ذهابه وإيابه، إذ اعتاد المرور بأزقة باب الشرقي الملتوية، متجنبًا الوجوه الغريبة الزاحفة في الشوارع، ثم يعرج على شارع الجمهورية مشيًا حتى ساحة الميدان. كان يرى في هذا الطريق أمانًا وسلامة، ويعتبر المشي رياضةً تقوي عضلات القلب ومفاصل السيقان لمن تجاوز الأربعين.

ما إن دخل شارع الجمهورية في تلك الساعة الصباحية الحرجة، حتى بدأ يسلك الرصيف بخطوات وئيدة، تقرصه نسمة برد الصبح، وتترصده العيون الواجفة. جعفر ورشيد كانا يتبعانه بعجلة التاكسي، بهدوء، دون أن يثيرا انتباهه. هي ذات العجلة التي اختُطف بها ابنه محمد قبل أشهر.

- عند المنعطف الأول، توقفت العجلة بجانبه. ترجّل جعفر وناداه، تبعه رشيد، فتحا له الباب الخلفي، وطلبا منه أن يجلس دون ضجيج... دون مقاومة... دون أن يفسد المشهد الذي خطط له جاسم بدقة، كمن يكتب نهايته بيده
- تفضل أبو محمد أركب العجلة نحن نوصلك لمكان عملك!
- ومن أنتم؟
- ليس وقت جدال هيا أجلس، لنا معك حساب نود أن نصفيه.

ودّ أن يتجنبهم ويبتعد عنهم، لكن رشيد أمسك بذراعه وسحبه، فيما جعفر طوّقه بذراعيه القويتين، مهددًا إياه بمطواة حادة إن هو حاول المقاومة أو رفع صوته. ثم دفعاه داخل سيارة الأجرة التي انطلقت بهم في شوارع بغداد، بعد أن كمّما فمه بشريط لاصق، وألبساه كيسًا أسود على رأسه.

انطلقت السيارة بسرعة البرق بين التواءات الطرق. لم يجرؤ على الحركة، فقد حُصر بين جسدين ضخمين كالثيران، ضغطا صدره، فلم ينبس ببنت شفة. باغتته المفاجأة، هزّته، جردته من التركيز، فذهل وتبلّد، ولم يستطع استعادة وعيه أو ثقته بنفسه. تكدّرت حالته، وكُبِل بالخوف، فاستسلم لأوامرهم دون مقاومة.

شعر أنها النهاية، كما أخبرته هواجسه المرتعشة. لم يسلم من مطبّات الأمس، وكأنها كانت تمهّد الطريق لسقوطه. حان دوره أخيرًا، بعد أن مرّت عجلة الأحداث على الكثيرين من حوله، دعست على أقاربه ومعارفه. سنة ونصف من الكوارث دارت حوله دون أن تمسه، لكنها الآن ابت أن تتركه خارج مركبها.

بين غمضة وأخرى، كانت كارثة تفجعه، وحدث يهزّه. احتفلت به المصائب مرارًا، منذ أن عثر على الكنز قبل عامين، والآن جاء دوره بعد أن انتهت الأدوار الثانوية التي طالت ذويه وأقاربه.

يا ترى، هل يعقل أن تحدث كل تلك المصائب دون تخطيط مسبق؟ هل هي مجرد أحداث اعتباطية خلقتها الظروف؟ أم أن هناك من يحرّكها؟ هل تسللت تلك العقد إليه بعد عثوره على كيس النقود؟ هل هي لعنة المال؟ هل هو مال حرام؟ هل بقيت أرواح أصحابه معلقة به، تنتقم منه؟ صار يشعر أن المال ذاته يثأر منه... لا إله إلا الله، بدأ يشك في نزاهته وعفة أهل بيته.

غرق في متاهة من التفكير، يرتجف من الغدر الذي حلّ به، من المصيبة التي وصلت إليه بعد أن التهمت من حوله. كيف سيتلقى ابنه محمد خبر اختطافه؟ كيف ستكون حالة زوجته رقية؟ ماذا يريد منه خاطفوه، وهو الذي لا ينتمي لحزب أو جهة سياسية، ولا يلوذ بطائفة أو فكر، بل ملتزم بسراطه المستقيم؟

وبعد أن شاقّت نفسه بين جسدي رشيد وجعفر، وصلت السيارة إلى وكر الجريمة في منطقة الحسينية. رموه في ذات السرداب المظلم الذي رموا محمد فيه من قبل، وتركوه يومين دون أن يكلمه أحد. أرادوا أن يستنفدوا طاقته النفسية والفكرية والإيمانية، ليقرّ بعدها بما يملك من ثروة، ويستسلم لمطالبهم طواعية.

أدخلوه القبو وهو منهار من الرعب، يرتجف، لكثرة ما سمع ورأى من قتل وتنكيل يدور على قدم وساق بين صفوف الشعب. تلك العصابات، بعد أن نهبت البنوك، زحفت على جيوب الناس لتجفيفها. أدرك أن نهايته قد أزفت، وأنه كان مراقبًا منذ زمن من قبل الشيطان. زاد يقينه بعد أن اختطفوا ابنه محمد. استسلم تمامًا، دون أن تسعفه فكرة واحدة لحل معضلته.

والحقيقة فترة اليومين التي قضاها داخل القبو كانت كافية لاستعادة وعيه ورباط جأشه، خلالها أطمأن بأن الذين اختطفوه لا يودون قتله. لو كان لهم نية القتل ما تأخروا تلك المدة قط... صار يبحث عن ثغرات تعري المكان والمختطفين، عساه أن يتمكن من أن يفلت من قبضتهم، بات يبحث عن علامات في القبو ليحفظها، يمكن أن تساعده فيما بعد، صار يدقق بمحيطه والجدران وهو يفكر في شكل الشخص الذي كتفه، كأنه قد تعامل معه مسبقا أو ألتقى به في مكان ما، الوجه ليس غريبا عليه، كأنما قُنِّعَ باللحى، فبان أكثر سوادا وغرابة وسوداويا... ترى من يكون ذاك الشخص ذات الأنف المعقوف؟ يا ترى؛ أين ألتقى به؟...

أسـئلة محيـرة أحتـار بهـا، لا تسـعفه الـذاكرة فـي الإجابـة عليهـا، كـأنَّ طيـف خيـال أزف ذهنـه، عـزف علـى أوتـار ذاكرتـه، دون أن يسـتطيع أن يمسك بطرف ذيله.

أحيانـا الأنسـان تـراوده أفكـارا وخيـالا يعتقـد بأنهـا حقيقـة واقعـة ليصدقها. أحيانـا يحلـم بحلـم يهجس بذاتـه قد تكـرر عليـه، أو مـر بـه فـي زمـن مـا ليصـدق الحالـة.. ذلـك مـا صـار يـدور بذهنـه ويتقلـب بمخـه، صار يهز كيانه ويشده إلى حيث الغياب الفكري التام تماما..

يا ترى؛ أين التقيته؟

متى تعاملت معه؟.....

أيـن؟ متـى؟. أيـن متـى؟.........حتـى ضـاع فكـره فـي هالـة النسـيان وغبـرة الـذاكرة التـي صـارت تشـرع نتيجـة غشـاوة اللوحـة الرماديـة المليئـة بخطـوط الأحـداث عبـر العمـر المنصـرم، أحـداث ظـروف وعقد.

تلـك المتاهـة مـن الشـك عصـفت بـه كـ فتالـة ريـح، كإعصـار، جردتـه مـن المبـادرة والتركيـز، فتلتـه بعصـفها، لفتـه فـي ثناياهـا، جعلتـه لا يتـذكر مـن وقـائع أمـس إلا تلـك المصـائب الثقيلـة، تـاه بسـواد الغمـام الـدائر فـوق رأسـه..... تلـك المتاهـة جعلتـه يبحـث عـن الحقيقـة بـين شـعب الماضـي المتعفنـة دون أن يـركن إلـى حجـر عثـرة، دون أن يجـد رأس الخيط المقطوع بين الشعب....

يا ترى؛ من يكون ذلك الشخص؟

من ألذي حثه على اختطافي؟

لابـد أن يكـون أو يكونـوا ذا صـلة بـي بشـكل مـن الاشـكال. مباشـر أو غير مباشر، لابد أنهم يعرفون الكثير عني....

رَاوَدَتْـهُ مَجْمُوعَـةٌ مِـنَ الأَسْـئِلَةِ دُونَ أَنْ يَصِـلَ لِنَتِيجَـةٍ مَـا، لَـمْ تَسْـعَفْهُ ذَاكِرَتُـهُ الهَشَّـةُ المَلِيئَـةُ بِالعُقَـدِ وَالتَّنَاقُضَـاتِ عَلَـى أَنْ يُـدْرِكَ جُـزْءًا مِـنَ الحَقِيقَـةِ، دَخَـلَ فِـي مَتَاهَـةِ الرُّعْـبِ وَالرِّيبَـةِ. تِلْـكَ الَّتِـي مَاهَـتْ بِعَصْـفِ أَلْسِـنَةِ الأَحْـدَاثِ المُـرَّةِ الَّتِـي صَـلَتْهُ خِـلَالَ سَـنَةٍ وَنِصْـفٍ مِـنَ الأَحْـدَاثِ المُشْـحُونَةِ بِالتَّقَلُّبَـاتِ وَالمُفَاجَـآتِ، فَتْـرَةٌ تُعْتَبَـرُ أَمَـرَّ فَتْـرَةٍ مَـرَّتْ عَلَيْـهِ فِـي حَيَاتِهِ.

كَـانَ قَـدْ أَغْبَـرَّ جَـوُّهُ العَـامُّ وَاسْـوَدَّ فِـي أَعْمَاقِـهِ، حَالَـةٌ ضَـبَابِيَّةٌ طَوَّقَتْـهُ، بَـاتَ يَحْتَـاجُ لِفَتْـرَةِ هُـدُوءٍ وَسَـكِينَةٍ وَرَاحَـةِ بَـالٍ لِتَنْقَشِـعَ وَتَـزُولَ تِلْـكَ الغَمَامَــةُ الَّتِــي أَظَلَّتْــهُ، تِلْــكَ الَّتِــي سَــوَّفَتْ فِكْــرَهُ وَذَاكِرَتَــهُ وَأَغْشَــتْ بَصِيرَتَهُ.

فِـي ظِـلِّ ذَلِـكَ الظَّـرْفِ الرَّائِـبِ؛ ظَـلَّ يَتَأَمَّـلُ إِصْـلَاحَ شَـأْنِهِ، عَسَـى أَنْ يَـتَمَكَّنَ مِـنْ قِـرَاءَةِ جُمْلَـةِ الأَلْغَـازِ المُحِيطَـةِ بِـهِ وَهُـوَ غَـاطِسٌ فِـي مُسْـتَنْقَعِ حَيْرَتِهِ، لا بُدَّ مِنْ صَبْرٍ يُكْحِلُ بِهِ جَفْنَيْهِ وَيُعِينُهُ عَلَى الخَلَاصِ.

جَالَـتْ عَيْنَـاهُ فِـي القَبْـوِ الَّـذِي وُضِـعَ فِيـهِ، إِنَّهَـا غُرْفَـةُ سِـرْدَابٍ، لا مَنْفَـذَ لَهَـا سِـوَى شُـبَّاكٍ صَـغِيرٍ مُرْتَفِـعٍ فِـي قِمَّـةِ السَّـقْفِ، يَـدْخُلُ مِنْـهُ خَـيْطٌ رَفِيـعٌ مِـنْ ضَـوْءِ الشَّـمْسِ، يَنْسَـكِبُ عَلَـى الجِـدَارِ المُقَابِـلِ لَـهُ، يُظْهِـرُ الجِـدَارَ مَصْـبُوغًا بِلَـوْنٍ تِبْنِـيٍّ بَاهِـتٍ، يَتَخَلَّلُـهُ تَشَـقُّقٌ عَلَـى شَـكْلِ عَلَامَـةٍ زَائِـدٍ فِـي الوَاجِهَــةِ المُقَابِلَــةِ لِلشُّــبَّاكِ، التَّشَــقُّقُ كَأَنَّــهُ رُمِّــمَ أَوْ لُــبِخَ بِكِلْــسِ الجِــصِّ الأَبْيَضِ أَوْ بِمَادَّةِ البُورْكِ.

فِيمَــا السُّــلَّمُ المُــؤَدِّي إِلَــى السِّــرْدَابِ مُرَكَّــبٌ مِــنْ قَوَالِــبَ إِسْــمَنْتِيَّةٍ، تَسْـتَنِدُ أَطْرَافُهَـا عَلَـى مِحْـوَرٍ مَحْجَـرٍ دُونَ دَرَابْـزِينٍ، أَرْضِـيَّةُ الغُرْفَـةِ مَصْـبُوبَةٌ بِقَوَالِـبَ إِسْـمَنْتِيَّةٍ مُرَبَّعَـةٍ، وَالبَـابُ مِـنَ النِّيكَـلِ، مَصْـبُوغٌ بِصِـبْغَةِ بُوْيَـةٍ رَصَاصِيَّةٍ.

حَفِظَ هَذِهِ الدَّلَالَاتِ فِي ذِهْنِهِ عَسَى أَنْ تَنْفَعَهُ يَوْمًا مَا.

كَانَــتْ أُمُّ مُحَمَّــدٍ قَــدِ انْشَــغَلَتْ كَثِيــرًا بِغِيَــابِ أَبِــي مُحَمَّــدٍ طِــوَالَ فَتْــرَةِ النَّهَـارِ، مِثْلَمَـا انْشَـغَلَ مُحَمَّـدٌ بِـهِ، لَـمْ يَتَعَـوَّدَا عَلَـى تَـأَخُّرِهِ، حَيْـثُ دَائِمًـا مَـا كَـانَ يَعُـودُ فِـي فَتْـرَةِ الظُّهْـرِ، فَتْـرَةِ الغَـدَاءِ لِلْبَيْـتِ، كَـانَ قَـدْ عَـوَّدَهُمْ عَلَـى مَوَاعِيدِهِ الرُّوتِينِيَّةِ...

لِذٰلِكَ قَـرَّرَتْ رُقَيَّـةُ أَنْ تَبْحَـثَ عَنْـهُ، ذَهَبَـتْ مَـعَ ابْنِهَـا وَبِنْتِهَـا (فِيمَـا رِيمَـةُ ابْنَـةُ هُدَى تَكَفَّلَ بِتَرْبِيَتِهَـا عَمُّهَـا فِيمَـا بَعْـدُ) إِلَـى دُكَّانِـهِ يَسْـأَلُونَ عَنْـهُ مِـنْ قِبَـلِ جِيرَانِـهِ. كَـانَ ذٰلِـكَ قَبْـلَ أَنْ يَحِـينَ وَقْـتُ الغُـرُوبِ بِسَـاعَتَيْنِ، قَبْـلَ أَنْ تَتَشَــتَّتَ النَّــاسُ وَتَنْــزَوِيَ فِــي جُحُورِهَــا، حَيْــثُ النَّــاسُ لا تَتَجَــرَّأُ أَنْ تَخْـرُجَ بَعْـدَ أَنْ تَضْـلَعَ الشَّـمْسُ فِـي صُـرَّةِ الغَسَـقِ، الوَضْـعُ لَـمْ يَهْـدَأْ بَعْـدُ، بَـلْ إِنَّــهُ ازْدَادَ سُـوءًا عَـنْ سَـابِقِهِ، أَضْـحَتِ الحَيَـاةُ لَهَـا مَخَالِـبُ تَخْـدِشُ الوُجُوهَ دُونَ سَبَبٍ.

كَـذٰلِكَ فَـإِنَّ خُطُـوطَ الهَوَاتِـفِ مُتَوَقِّفَـةٌ، فَهِـيَ لا تَعْمَـلُ فِـي مُعْظَـمِ مَنَـاطِقِ بَغْـدَادَ مُنْـذُ اشْـتِعَالِ نَـارِ الحَـرْبِ، تَقَطَّعَـتْ أَسْـلَاكُهَا نَتِيجَـةَ شِـدَّةِ القَصْـفِ المَطَـرِيِّ عَلَـى بَغْـدَادَ. ٢٠٪ مِـنَ السُّـكَّانِ فَقَـطْ مِمَّـنْ تَمَكَّنُـوا مِـنِ اقْتِنَـاءِ هَـاتِفِ الموبايـل، حَيْـثُ لَا زَالَ فِـي أَوَّلِ عَهْـدِهِ، لَـمْ تَتَعَـوَّدْ عَلَيْـهِ النَّـاسُ... كَمَـا كَـانَ يُعْتَبَـرُ غَـالِيَ الـثَّمَنِ قِيَاسًـا لِلـدَّخْلِ المَحْـدُودِ الَّـذِي يَتَمَتَّـعُ بِـهِ الفَـرْدُ العِرَاقِــيُّ، الَّــذِي عَــاشَ فَتْــرَةً طَوِيلَــةً تَحْــتَ ظِــلِّ حِصَــارٍ شَــدِيدٍ، فَتْــرَةَ ثَلَاثَــةَ عَشَــرَةَ سَــنَةٍ مِــنَ القَحْــطِ وَالجُــوعِ وَالظُّلْــمِ، مَنَحَتْــهُ شَــهَادَةَ بُــؤْسٍ وَعَوْقٍ فِكْرِيٍّ.

كَـذٰلِكَ فَـإِنَّ هَـاتِفَ قَاسِمِ الخَلَـوِيَّ بَقِـيَ مُغْلَقًـا طِـوَالَ فَتْـرَةِ الخَطْـفِ بَعْـدَ أَنْ جَرَّدَهُ مِنْهُ رَشِيدٌ.

مَـا أَنْ وَصَـلَتْ لِمِنْطَقَـةِ المَيْـدَانِ المُكْتَظَّـةِ بِالمَـارَّةِ؛ اتَّجَهَـتْ مُبَاشَـرَةً إِلَـى دُكَّانِــهِ، وَذٰلِـكَ قَبْـلَ أَنْ تَنْـزَوِيَ النَّــاسُ لِمَخَابِئِهَــا كَــالجِرْذَانِ؛ خَوْفًــا مِــنَ القِطَـطِ السَّــائِبَةِ فِـي فَتْـرَةِ الغُـرُوبِ... كَانَـتْ قَـدْ وَجَـدَتْ دُكَّانَــهُ مُغْلَقًـا، اسْتَفْسَـرَتْ مِـنْ جِيرَانِــهِ (أَبُـو عَلِـي) عَـنْ أَخْبَـارِهِ، لَـمْ تَجِـدْ إِجَابَـةً تُشْـفِي

غَلِيلَهَـا، لا أَحَـدَ يَعْـرِفُ لَـهُ خَبَـرًا مَـا... وَلٰكِـنْ عَبْـدُ القَـادِرِ المُقَابِـلُ لِدُكَّانِـهِ أَرْشَدَهَا؛ حَيْثُ قَالَ لَهَا:

– إِنَّـهُ لَـمْ يَسْـتَفْتِحْ مَحَلَّـهُ هٰذَا اليَـوْمَ، لَـمْ يَـأْتِ دُكَّانَـهُ هٰـذَا الصَّـبَاحَ، عَـادَةً حِينَ يَـأْتِي يُسَلِّمُ عَلَيْنَـا، لَقَدْ شَكَكْتُ فِـي أَمْـرِ صِـحَّتِهِ، اسْـأَلِي عَنْـهُ مَرَاكِـزَ الشُّـرْطَةِ أَوِ المُسْتَشْـفَيَاتِ، رُبَّمَـا حَـدَثَ لَـهُ أَمْـرٌ طَـارِئٌ وَهُـوَ خَـارِجٌ مِـنَ البَيْتِ.

– لَا لَا، مُسْتَحِيلٌ، كَـانَ قَـدِ اتَّصَـلَ بِنَـا!!... لَقَـدْ خَـرَجَ بَـاكِرًا، خَـرَجَ إِلَـى دُكَّانِـهِ بَعْـدَ أَنْ فَطَـرْتُ مَعَـهُ وَهُـوَ بِصِـحَّةٍ جَيِّـدَةٍ، وَدَّعْتُـهُ وَهُـوَ بِكَامِـلِ قُوَاهُ، لَـمْ يَعُـدْ لِلْبَيْـتِ وَلَـمْ يُبَيِّنْ لَنَـا أَيَّـةَ إِشَـارَةٍ عَمَّـا حَـدَثَ لَـهُ، وَلَـمْ نَسْـمَعْ عَنْـهُ خَبَـرًا، تَـرَى مَـا الظَّـرْفُ الَّـذِي جَعَلَـهُ يَغْفُـلُ اتِّصَـالَهُ بِنَـا، لِـمَ لَـمْ يَتَّصِلْ بِنَا... تَرَى أَيْنَ ذَهَبَ؟ يَا رَبِّ أَعِنِّي...

– لَرُبَّمَـا تَعَـرَّضَ لِحَـادِثِ دَهْـسٍ أَوْ خَطْـفٍ، لا سَـامَحَ اللهُ، اذهَبِـي وَاسْـتَعْلِمِي مِـنْ مَشْـفَى مَدِينَـةِ الطِّـبِّ، أَوْ مِـنْ مَرَاكِـزِ الشُّـرْطَةِ. بَغْـدَادُ أَصْبَحَتْ غَابَةً، الإِنْسَانُ لا يَضْمَنُ مَصِيرَهُ.

عَـادَتْ تَجُـرُّ أَذْيَـالَ الخَيْبَـةِ دُونَ أَنْ تَعْـرِفَ شَـيْئًا عَـنْ مَصِـيرِهِ، اسْتَأْجَرَتْ عَجَلَةَ تَكْسِي إِلَى مَشْفَى مَدِينَةِ الطِّبِّ...

كَيْـفَ تَنَـامُ وَزَوْجُهَـا قَاسِمٌ مُكَبَّلٌ فِـي وَرْطَـةٍ مَـا، رُبَّمَـا تَعَـرَّضَ لِجُـرْمٍ أَوْ خَطْـفٍ كَمَـا قَـالَ جـاره الأصـلع، ربمـا قتـل برصاصـة طائشـة، الإنسـان لـيس لـه قيمـة فـي هـذا الـزمن والجثـث المجهولـة بـدأت تطفـح فـي الشـوارع، الظـرف جعـل الإنسـان يُـدعسْ علـى صـاحبه مقابـل ثمـن زهيد كما يدعس على صرصور..

حبسـت دموعهـا فـي محجريهـا، لا تريـد أن تفـزع أطفالهـا. المسـافة ليسـت بعيـدة، لكـن الـزمن توقـف عـن الحركـة، حتـى غـدت الحيـاة مجـرد هـاجس بـلا روح ولا طعـم. تراخـت عضـلات سـاقيها، وتمنـت

لـو أن لهـا جنـاحين تطيـر بهمـا، علّهـا تخـرج مـن حالـة الشـك إلـى يقـين يطمـئن القلـب. بـات الظـن السـيئ يطفـح فـي منسـوب العقـل، واللـون القـاتم يغـازل ذهنهـا، يتلاعـب بهواجسـها، يعقّـف علـى قلقهـا، ويغـوص في أعماق أحاسيسها.

تـرى، إلـى أيـن يمضـي بنـا المصـير؟ أيـن تجـد قاسـم فـي هـذه السـاعة العسيرة؟ أيعقـل أن يكـون هـذا اليـوم يـوم فـراقٍ أبـدي؟ أيمكـن أن يكـون قـد... مـات؟ لا، لا، لا... الطـف بنـا يـا الله، لا تجعـل مصـيرنا رهـين القدر المشؤوم.

دمعـة حفـرت خـدها، وسـقطت فـي صـحن الصـمت، كتمـت أنفاسـها، فمسحتها بأطراف كفيها المرتجفتين.

كـل شـيء جـائز، فـنحن نعـيش فـي غابـة كمـا قـال الأصـلع، كثـرت فيهـا الوحـوش والكـلاب، وقـلّ فيهـا الضـأن والـدواجن. غابـة يأكـل فيهـا القـوي الضـعيف. فيمـا مضـى، قُتـل حسـن بـدمٍ بـارد، تبعـه عـامر، وصــفاء، وهــدى، وفــلان... والكثيــر مــن شــباب المنطقــة. القافلــة تمضي، والجميع مشتت البال في ركبها.

يـا رب، الطـف بنـا، استر حالنـا، لا طاقـة لنـا بفقـده. هـو عمـود البيـت، والأطفال لا يزالون صغارًا.

وصـلت عجلـة التاكسـي إلـى مدينـة الطـب، ودموعهـا تنهمـر بـلا توقـف، لا تسـتطيع كـفّ ينابيعهـا. المسـألة شـائكة، والقلـب مضـطرب لا يحتمـل صـدمات جديـدة. رأف بحالهـا سـائق التاكسـي، ودعـا لهـا بالخير والتوفيق، قائلاً:

ـــ اطمئنـي، إن شـاء الله خيـر. لا تقنطـي مـن رحمـة الله... أتـودين أن أنتظرك؟

ـــ نعم، حبذا ذلك. أنت إنسان تغلب عليك الطيبة.

دخلت إلى الاستعلامات، وعادت بعد دقائق تجر أذيال الخيبة. لم تتأخر كثيرًا، لكن الحزن كان يعتصر وجهها، ووجه ابنها الشارد الذهن مثلها، لا يعرف ماذا يفعل، ولا تعرف كيف تتصرف.

ـــ أبشري يا حاجة... قال السائق.

ـــ لا شيء؛ قالوا لا يوجد اسمه ضمن قوائم حوادث اليوم.

ـــ عظيم، أبشري خيرًا. سيعود، ربما مانع ما منعه. اصبري قليلاً.

ـــ لو كان بخير لاتصل بنا ليطمئننا.

ـــ ربما ظرفٌ منعه... اصبري.

في زمنٍ تتكاثر فيه المتناقضات، بات الإنسان يفضل العاهة على الغموض، والعوق على الصحة، فقط ليبقى في البيت، ليكون مرئيًا، موجودًا، لا تبتلعه دوامة الغياب. أيّ دنيا هذه؟ فيها يغدو الغموض لعنةً أثقل من المرض، والاختفاء أشدّ من الألم.

قال لها ليخفف وطأة القدر: "الحمد لله، لا تقلقي، كل شيء هين، سيعود إن شاء الله سالمًا معافى، طالما أنه بخير." لكنها ردّت، والقلق ينهش قلبها: "خوفي من أن يكون قد خطفه المجرمون، هم لا يدعون الناس تعيش بسلام." فقال لها أخوها، محاولًا تهدئتها: "تأملي خيرًا، التشاؤم يجلب الشر لحد باب البيت. ضعي ثقتك بالله وادعي له بالسلامة." أومأت برأسها، ثم قالت: "والنعم بالله. أخي،

أرفق بنا وخذنا إلى مركز الشرطة، لنسجل بلاغ اختفائه." "وهو كذلك."

وصلت إلى مركز شرطة باب الشرقي، لا يبعد سوى أمتار عن دارها، وسجلت بلاغًا عن اختفائه. عادت إلى البيت مكسورة الخاطر، أسيرة الهواجس، تسحب جسدها المثقل، وحيدة، لا سند لها سوى والدها. الشكوك تحاصرها، والهموم تغزوها، حتى جفّت الشكوى على شفتيها، لا تجد من تصبّ فيها حروفها، ولا سلة تحتضنها.

لم ترغب بإقلاق والدها، فآثرت الصمت، ليبقى الهم كاتمًا على أنفاسها، يعتصرها في صمتٍ موجع. أين تذهب؟ لمن تشكو؟ أين يستقر بها المطاف بعد غياب قاسم؟ أسئلة تنهشها، والحالة محرجة، قلقة، لا تحتمل.

مرت تلك الليلة ثقيلة، لم تغفُ لها عين، ولم يرفّ لها جفن. الحزن كلّل مآقيها، والدمع غمر وسادتها. فكرها يقفز بين الاحتمالات: هل غُدر به؟ هل قُتل؟ من له مصلحة في إيذائه؟ من يكرهه؟ فقد كان رجلًا مسالمًا، لا يشكّ بأحد، ولا يشكوه أحد.

تذكّرت محمد الذي خُطف سابقًا، ربما العصابة ذاتها طمعت بقاسم. القلق ينخر عقلها، يطوف بأشرعة الجنون في رواق صبرها. تعيش في حلقة مفرغة، تدور حول نفسها دون أن ترى بصيص أمل. الآهات تشقّ صدرها، والألم يعتصرها في نفقٍ ضيق، ربما هذه هي الحلقة الأخيرة في مسلسل حياتها مع قاسم، اللقطة الأخيرة من سيناريو المشقة.

الجسد متأثر بالمحيط، يلفظ أنفاسه ككورةٍ تلفظ سعيرها. همومٌ جمة تعيق حركتها، تثقل أطرافها، وتُرهق عضلاتها. فقدت العزيمة، مالت النفس إلى وهدة الكسل، تهجس بشعورٍ يائس، أقرب لنهاية

المشـوار. الإرهـاق عصَـب عينيهـا، أغشـى فكرهـا، كـل شـيء قـتم لونـه، وضـبح صـوته. النيـاح ينبثـق مـن مسـامات وجههـا، يجـيش فـي صحن الأمل، حتى صمتت صمت مالك الحزين أمام مرآة الحقيقة.

فـي ظـل غيـاب قاسـم، البيـت يُصـفر أوانـه، تهجـس بالوحشـة، وقـد حلـت صـرة الـدبابير والعناكـب والخنـافس والثعـابين فـي أرجائـه. باتـت تزحـف خلـف سـعادتها، تعـيش فـي ظـل صـبرٍ مـرّ، يختنـق فيـه صـوت الرجـاء، لابـدةٌ فـي جحيم سـرها، مغشـية بمهـاوي الخـوف والفـزع، مـن عنفوانٍ قادمٍ مجهول، يدور في محيطها

تهجـس بجـدران البيـت تتحـرك، كأنهـا شـياطين تتـربص بهـا، تعيـق خطواتهـا، تقيـدها كقضـبان سـجنٍ لا يُكسـر. ترعبهـا الـذكريات المتجسـدة فـي الهياكـل، أشـباح تتمثـل لهـا بقاسـم، يمازحهـا كمـا كـان يفعل، فتختلط الضحكة بالدمعة، والحنين بالخوف.

البيـت مـأهول بالرعـب والكآبـة، تصـيخ أذنيهـا أبـواق الفـزع، لغـوٌ لا ينقطـع، كـأن الوحـدة نفسـها تتـآمر عليهـا. الـذكريات منثـورة فـي الطرقـات، مبثوثـة فـي الأركـان، تحـيط بهـا مـن كـل جانـب، كـأثرٍ قـديمٍ يفزعها، يبث في داخلها صمتًا وشجنًا رهيبًا.

ريبـة متجـددة تسـري فـي عروقهـا، تجـيش فـي السـكون كعربـة حصـانٍ تـنط بـين العقـد، تتقفـز أمـام ناظريهـا، تميـد بهـا كـأمواجٍ مـن الشـك الـدميم. هنـا ضـحكنا، هنـا نمنـا، هنـا شُـمعت أصـفادنا بالطيـب والحنـان. لا يـزال رنـين كركرتـه يطـرق طبلـة أذنيهـا، لا تـزال تـذكر يـوم قلـدها تلـك القـلادة المشـؤومة، التـي جلبـت علـيهم عناكـب الشـر مـن حيـث لا تدري.

تسـأل نفسـها فـي السـاعة اليتيمـة: أيـن أذهـب؟ أيـن أرمـي تلـك الـذكريات الطويلـة؟ هـل أسـتنجد بـأبو عـادل؟ لا... لا وألـف لا. إنـه أكثـر مـن

ثعلب، يدور حولنا كصيادٍ لا يؤتمن، نعم لا يُؤتمن أنه أبليس. دعني أنتظر حتى الصباح، ثم أخبر والدي.

لم ترف لها عين، والقدر ينعب في سرها. منذ أن خرج صباحًا، ووسوسة الظن لم تهدأ، الشك والقلق ينهشانها، كأن طارئًا ما كبل لسانها، وأغشى فكرها. لم يدرك حيز إحساسها الرهف، لكنها تنعم بحاسةٍ غيبية، تستشعر بها لحظات الحسم واليأس، كأنها من اللاتي يُوحى إليهن. ما شعرت بشيء قط إلا وحلّ وجله، إنها مبروكة، تمتلك الحاسة السادسة... وربما السابعة.

تلك الجلجلة التي ترن كأقراطٍ في أذنيها، ليست إلا هاجس القلق، تهجس بها كلسعة شعلةٍ من علم الباراسايكولوجي، الذي ألهمها الله به. صفةٌ تبهج صفاء الروح والنية، تتشكل كهلامٍ من الخوف السائد، والقلق الزائد على محيط الأسرة. إنها لونٌ من هوس الروح، يبرز نتيجة الفوضى العارمة التي لم تهدأ وتيرتها في داخلها.

تعلقت بالأمل والصبر حتى وجدت روحها تشعرها بلسعة الندم...

لِمَ لَمْ أمنعه من الخروج؟

لِمَ كنت عاجزة على تحذيره؟

..لم أخرس لساني حين خرج؟..

.لِمَ ولم.....الخ.

كتم القدر أنفاسها، جردها من الفطنة، من القدرة على اتخاذ القرار. خاط فمها بخيط الصمت، وجعل السر يختبئ في أعماقها. كانت، حين تحل المعضلات، تزيح المعوقات عن دربها بيسرٍ عجيب،

لكن حين تتعقد الأمور وتشتد، تُلقى في قلب المهاوي والصعاب حتى تنهكها.

لا ينفع الندم الآن. باتت تلوم نفسها، وتزم شفتيها في حسرة. عجزت عن فهم صدى الخمول الذي يدور في جفنيها، لم يشفع لها الظلام الحالك، ولا الجهد المبذول، لترقد قليلاً. شوائب التفكير المتشائم سلبتها كل شيء، فبقيتْ معصوبة العين، تركن ذاتها على جحر القلق، تتأمل المستحيل أن يتكور أمامها، أن يخضع لإرادتها، لتبلغ الذرى. كيف يغمض لها جفن وزوجها يعاني في محنة؟ لذا جفاها سلطان النوم.

الهم أنساها طعم الراحة، رغم شدة الإرهاق والأرق الذي شلّ البدن. غدا الفكر جمرة توقد نار الصبر في فضاء العين، وطرد من الحدق أطياف الكرى. ومع مرور الوقت، استسلمت لافتراضاته، وصارت أتراس الشك تسحق مساعي الظن، تهمل لحظات التأمل العابرة التي كانت تضيء ذهنها. هذا الوضع جردها من حريتها، حتى تجاوزت هالات الحزن حدود الصبر.

شعرت بحرارة محبة قاسم تمس جوارحها، لا تستطيع كبح جماحها، ولا تحمل فراقه. جسدها تعرّق بلهيب الشوق، وارتجفت وهي قابعة في ركن غرفتها، عاجزة عن تجاوز العقدة، عن النياح بصوتٍ عالٍ يزيح الغل عن صدرها، وعن الأطفال المحتمين بها.

غدت حالتها مشروخة في داخلها، كقطعة قماش هتكتها حرارة الشمس، وهف بها ريح الذاكرة، فأصدرت حفيف شجن وأنين، بالكاد تسمعه. شجن داخلي ينفث مع صوت الفزع الكامن في أعماقها. حيرة، وقلق، وبؤس يعبث بفكرها وظنها.

العوائق النفسية تتكوم في حجرتها، في أركان البيت، على الجدران، كالعث يعبث بقدم الذاكرة. صمتٌ مريع قيد سعيها، وفي

قرارة نفسها تود أن تصرخ، أن يصيح صوتها ليصل عنان السماء، لتلفظ بقايا ركام الألم ودخانه الجاثم على صدرها. لكنها مقيدة بصوت الفزع، لا تود أن ترهب الأطفال، ولا أن يشمت بها الجيران. لا تستطيع التحرر من القيود التي عشقتها، ولا أن تجر فلذات كبدها خلف سعير الألم الذي يجتاحها. لا زال في الأمل رمقٌ يحثها على الصبر.

قضت تلك الليلة قابعة على جحر اليأس، تداري صمتها بصمت، وصبرها المرّ بسكينة. حالمة بأن يشرق على جسدها المثلج بالخوف ضياء شمسٍ دافئة، تطمئنها على زوجها، راجية من الله أن يرفق بها، رافعة كفيها بالأدعية، طالبة الرحمة والسلامة لقاسم.

كانت ليلة سوداء، لم تمر بها مثيلة من قبل. كوابيس أرهقتها، وهي تتبع طيف قاسم يدور في رواق البيت دون أن ينقشع ذكره. نوافذ الشك تقصم ظهرها، تزيدها هوانًا فوق هوان، في قامة الصحة والبدن. ومن خلال الملاحظة، هجست بفارق الحس بين حلم الأمس وحلم اليوم الهميم.

لم تنسَ قط حزنها على أخيها حسن، لا زالت ذكراه تعتصر فؤادها، لكن حزن قاسم مختلف. إنه يحمل طابع العشرة، طابع الديمومة. يحمل في طياته أضعاف ما شاقت في حياتها. فقدان قاسم يعني التشرد، الضياع، والجنون. ها هي أخته هدى ختمت حياتها بعد وفاة زوجها، كانت أكبر تجربة وأصدق دليل أمامها. لم تصبر على فراقه عامًا واحدًا، فاختارت الانتحار على الوحدة، على أن تعيش في قالب الذل والهوان.

لم يختلف يومها الثاني عن الأول، جلست قلقة وأن لم يغف لها جفن قط، قامت بتدبير فطور ولديها، فيما استفحل الفكر ينشغل بسر اختفاء قاسم دون أن تعلم سر اختفائه. هاتفت والدها بعد أن شعرت

باليأس قد تجاوز حده، حضر أبوها مذهولا لوقع المفاجأة، حاول أن يهديها لكنه لم يقدم لها حلولا ناجعة، لا يملك عصا موسى ليحل معضلتها، لذا لم يخفف من واطئة قلقها وحزنها، بل ربما زاد من وتيرة قلقها للجمود الذي طرأ عليه، ماذا بإمكانه أن يعمل في ساحة الفوضى، لا حلول سحرية، ولا طفرة تقاوم عسر الظرف المحيط بهم، الظرف لا يفك سره إلا معجزة إلاهية تذيب خيوط العُقد، أنه مثلها تماما مكبل بالحيرة أمام هول المصيبة.

أما قاسم فأنه بقي يعاني من الوحدة والقلق بشأن زوجته وأطفاله، ولكن ما في اليد من حيلة، لن يستطيع تغيير شكل الوضع، الهدهد أختفى من سماء بغداد بسبب الفوضى، ما عاد يبحث عن أمره وشؤونه، ما عاد يأمن سلامة الاجواء لينقل خبر اختطافه لزوجته رقية، لا توجد وسيلة تفي بالغرض إلا الصبر.... ما شغل باله؛ قلقه من أن تصاب زوجته بجلطة ما ومن ثم يتشرد الأطفال. بقي عاجزا، مضربا عن الطعام، أبت نفسه أن تأكل، لكنه لم يحتمل سعير غل عطشه، فبات يقرع الماء لترطيب شفاهه التي يبست نتيجة حرد الخوف وحرد مناوئيه.

في اليوم الثالث جاءه جعفر لآثما فاهه بغترة، كلمه بعنجهية وبسخط، قائلا له...

- أن كنت تود أن تبقى على قيد الحياة وتعود لزوجتك سالما، عليك أن تدفع لنا مبلغا قدره عشرة دفاتر أي ما يعادل (100000دولار)، والمهلة أمامك أسبوعا واحدا فقط!!!...(الدفتر يعادل عشرة آلاف دولار).

قاسم: لكني لا أملك شيء مما تطلب، أنا فقير الحال، متعب، لا أملك سوى دكان البالات.

وقبل أن يكمل حديثه، باغته بصفعة قوية على وجهه، سقط على إثرها أرضًا، ودار به الكون كدوامة لا قرار لها. صرخ في وجهه:

– لا تكذب يا كلب!.. نحن نعرف عنك كل صغيرة وكبيرة.

كانت الضربة قاسية، أفقدته توازنه، تراخت قدماه، فجلس على ركبتيه مستندًا بيديه على البلاط البارد. لم يكن مستعدًا لها، فاجأته، وأشعرته بأن الأمر جاد إلى أقصى حد. تسللت إليه مشاعر الذل والهوان، وانهمرت دمعتان دافئتان على خديه، صار ينظر إليه من خلال ظلمة غشيت بصره، وتراءى له كوحش مفترس، كأسد يوشك أن يلتهمه.

قال بصوت أجش مرتجف:

– لمَ ضربتني؟.. لمَ فعلت ذلك؟

رد عليه بحدة:

– لا تكذب! إن كنت تريد الحفاظ على كرامتك، فلا تكذب. وإن كذبت مرة أخرى، سأقطع رأسك! نحن نعلم كل شيء: بيتك، سيارتك، أموالك، ذهبك... تصرّف كما نريد، والمهلة بيدك. وإلا...

ثم أشهر تهديده أمامه:

– هل فهمت؟

أجاب الرجل بصوت خافت:

– نعم، أملك بيتًا وسيارة قديمة، لكن لا أملك مالًا. لقد اختطفوا ابني قبل ثلاثة أو أربعة أشهر، واضطررت لدفع فدية للإفراج عنه.

قال له:

– ستتصل بزوجتك الآن، وأي كلمة زائدة تعني أنك حكمت على نفسك بنفسك.

اتصل بزوجته عبر رقم قاسم، وما إن سمعت صوته حتى انفجرت بالبكاء، شعر بالألم يعتصر قلبه كما يعتصر قلبها، ترقرقت الدموع في عينيه، وصار يشهق كما تشهق هي، لم يتخيل يومًا أن يفترق عنها بهذه الطريقة. قال لها بصوت يملؤه الحزن:

– يا أم محمد، أنا مخطوف...

ردت عليه بعويل وصراخ، لم تستطع أن تسيطر على نفسها. أخذ الهاتف منه أحدهم وقال لها:

– يا أم محمد، اسمعي المفيد... لا تخافي على أبو محمد، فهو ضيف عزيز عندنا. نطلب فدية قدرها عشرة دفاتر، وعند وصولها سيعود إليك سالمًا.

توسلت إليه:

– فداكم الأموال، فقط لا تؤذوه، إنه كبير في السن، لا يحتمل الإهانة.

قال لها:

– لن نؤذيه، أمامكم أسبوع واحد لتدبير المبلغ.

ثم التفت إلى أبو محمد:

– هل تود أن تقول لها شيئًا؟

أخذ الهاتف وقال:

– اعتني بنفسك وبالأولاد... بيعي البيت ودبّري المبلغ.

ثم قطع الاتصال. عندها، انتهى كل شيء بالنسبة لأم محمد. تبخرت الأحلام التي راودتها، وكرهت الحياة التي سرقت منهم الأمان، خصوصًا منذ لحظة عثوره على كيس النقود. بغضت البلد والجيران والفوضى، وشعرت أن المصائب تعزف لحنًا صاخبًا في حياتها، وأن الدور قد حان على زوجها.

لم تعد كما كانت: ممشوقة القوام، خفيفة الظل والروح. عاد بها الزمن إلى مرحلة الشقاء، تحدّبت قوامها، ونغّصتها الهموم. المصائب تحايلت عليها من كل جهة، أقحمتها في ظلماتها، ودمّرت أحلامها. لم يعد هناك أمل تتشبث به، ينقذها من وحل الهزيمة الذي سيطر على نفسها ونفسية زوجها. صارت تهلوس، تبكي، تئن في وضعها المزري، الإرادة مفقودة، والذات ضائعة في متاهات الأقدار، كل شيء بات مقلوبًا يتحدى وجودها.

صارت تحدث نفسها:

– يا إلهي، لقمة الفقر كانت أرق وأنعم من لقمة الغنى. كنا نعيش براحة بال وأمان، لا أحد يفكر بنا ولا نفكر بأحد. كنا كالحمائم، لابدة في أيكها، نطير فوق الأغصان والجداول بأمان وسعادة. وفجأة، تبدلت أوضاعنا، صرنا نبغض العش الذي يأوينا، نرى كل من حولنا قططًا وكلابًا تود افتراسنا وسلب حياتنا.

أخبرت والدها بما جرى، وطلبت منه أن يرافقها إلى السيد عقيل، صاحب البيت الذي اشتروه منه. فالمعاملة لا تزال معلقة، لم تُحوّل ملكية البيت إلى السيد قاسم بسبب تعقيدات مادية وكتابية لم تُستكمل.

توسلت إلى السيد عقيل، طالبة منه إلغاء البيع وإعادة المبالغ المدفوعة، شارحة له ظرف زوجها المختطف، المعلق بين الحياة والموت، طالبة منه أن يسرع لإنقاذه...

رد عليها صاحب البيت عقيل:...

- لكنه لا يمكن إعادة المبلغ كما هو، وهذا يعني أخلاء بشروط العقد، لذا بات يشرح لها...
أنا استلمت 100 الف دولار فقط من أصل المبلغ البالغ 150 ألف دولار، إذا ما حسبنا ضرائب العقار التي دفعت للدولة، زائدا المبالغ التي دفعت لمكتب العقار، والذي هو مناصفة بيني وبين قاسم، كما أن شرط الجزاء يقع عليه، بذلك لن أستطيع أن أعيد لكم المبلغ كاملا، لن استطيع أن أعيد لكم أكثر من خمسة وسبعين ألف دولار فقط أن رضيتم بذلك.
- لكن العقارات زادت قيمته.
- والقتل والنصب والسرقات أيضا زادت عما كانت في الأمس، باتت الناس تبيع بيوتها لتشرد خارج الوطن، لا توجد في بغداد معنى للحياة قط.
- أجعلها ثمانون ألف نكون راضين بذلك، والمبلغ من يدك ليد المجرمين.
- وهو كذلك، عودي ألي يوم السبت أكون قد جهزت لك كامل المبلغ، هذا فقط لأنكم في ورطة أود فك كربكم.

تم الاتفاق على استعادة ثمانين ألف دولار، وهم لازالوا يحتفظون بحدود ثمانين ألف دولار تقريبا تحت اليد، بذلك يمكنهم تسديد المبلغ المطلوب للجناة... أما باقي المبلغ والذي قيمته يعادل مائتي الف دولار؛ بقي خارج الحسابات، كان قاسم قد وضعها في كيس من النايلون ثم دفنها تحت أحدى بلاطات أرضية البيت بعيدا عن

الأنظار، تلافيا لاحتمال مداهمة البيت أو سرقته لما تعرضوا إليه من نكاية، بحيث بقي ذلك الأمر سرا بينه وبين زوجته رقية، على أن لا يتصرف به أحد مهما كانت المصائب كبيرة، لألا يفتقدوا مستقبلهم.

كانت فكرة بيع البيت من أنضج ما خطر على بال قاسم، بعد أن تيقن أنه مراقب من قبل عصابة تعرف عنه أكثر مما ينبغي. أدرك أن البقاء في بغداد لم يعد خيارًا، فالفوضى التي تعصف بها والمشاكل التي لاحقته جعلت المدينة طاردة للأمان. قرر أن يهرب منها فور انقضاء السنة الدراسية، بعد أن يصرف ما تبقى من بضاعة دكانه، ويُنهي ما يتعلق ببيته من التزامات.

بات يبحث عن الأمان في عيون الفرص القادمة، وبالمبلغ الذي بقي في يده، شعر أنه قادر على استعادة توازنه والعيش برفاهية في مكان آخر، إن وجد الأمن. ربما في أربيل، أو إن اضطر، فالهجرة إلى تركيا أو أي بلد آخر قد تكون المخرج الأخير.

بعد يومين، اتصلوا بها. وعدتهم بأن المبلغ سيكون جاهزًا يوم الأحد. طلبوا منها أن تحضر بنفسها أمام مشفى اليرموك، مرتدية ربطة عنق صفراء وتحمل المبلغ في حقيبة، لتسهيل التعرف عليها.

قال لها ابنها محمد:

– دعينا نخبر الشرطة، ربما يتمكنون من القبض على العصابة.

ردت عليه بحسرة:

– أي شرطة يا بني؟ وهل بقيت حكومة حقيقية تلاحق المجرمين؟ أتجازف بحياة والدك؟ ألا يكفي ما يعانيه؟ ربما ضربوه، وهو لا يحتمل القسوة، قد يصاب بجلطة ونخسره إلى الأبد. لا، لن نخبر

أحـدًا، فلـن ينفعونـا. دعنـا نُنهـي هـذه المأسـاة، ثـم دع الشـرطة تـدافع عـن نفسها من المداهمات والقتل الذي يطالها كل يوم.

كانـت تـذوي عطشًـا وشـوقًا وفراقًـا، ولـم تعـد تشـعر بالنـدم علـى الأحـلام التـي تبخـرت فـي ليلـة واحـدة. مثلمـا ارتقـت قمـة العـز فـي زمـن الهـدوء، هبطـت منهـا بـنفس السـرعة. الوسـط بـات غرينيًـا، زلقًـا، لا يُمكـن الاستقرار فيه، بفعل الفوضى السائدة.

كمـا تسـلقت القمـة، انحـدرت منهـا سـريعًا إلـى سـحيق العنـاء. قطعـت خيـوط الحلـم التـي عقـدتها بشـجرة الزيتـون، تلـك التـي لـم تعـد تـروق لهـا، كعقـدٍ فـاخر لـم ترتـده سـوى مـرة واحـدة. غـدت الرفاهيـة التـي حلمـت بهـا أكذوبـة فـي مسـاء الحيـاة، لا تعنـي لهـا شـيئًا، ولا تقـدح شرارة النجوم في ليالي الحب.

تـم تسـليم المبلـغ بشـهادة والـدها، وتوقيعـه، وبصـمتها. بـذلك، ضـاع الحلـم الأبـيض فـي يـوم أسـود ملبـد بـالغيرة والحسـد. كـان حلمًـا منمقًـا، راودهـا منـذ لحظـة زفافهـا، لكـن الأقـدار دعسـت عليـه، وعرقلـت سعيها.

حـين كانـت طفلـة، كانـت تتمنـى أن تتـزوج ضـابطًا، لمـا لـه مـن هيبـة وتقـدير واحتـرام فـي المجتمـع آنـذاك. لكـن الحـرب طالـت، وجـرت ويلاتهـا علـى الـوطن كلـه، وبالـذات علـى صـنف الضـباط الـذين استُشـهد الكثيـر مـنهم. غـدت معظـم زوجـاتهم أرامـل، وحينهـا شـكرت الله على نصيبها من الدنيا.

الأحـلام تولـد نتيجـة الفقـر المبـاح الـذي أولـده الحصـار، والـذي أصـاب المجتمـع بالسـل والطـاعون والجـرب، لقـد شـلّت حركـة المجتمـع، طفحـت فـي الوسـط امـراض عضـال أصـابت الجميـع بقيحهـا دون تمييـز جـراء الحـروب المتعاقبـة علـى العـراق، مـذ سـنة 1980 ولغايـة

اليوم لم تندمل جراحاتنا، بسبب قصر نظر الساسة من جهة وبغض الحاقدين وأطماع الدول الأخرى بالوطن من جهة أخرى..

أنحدر الوضع بنا دون أن يستقيم، مضى بنا في منحدره من وضع سيء لآخر أسوء. دارت الأيام علينا، صارت تأكل بعضها البعض، تذرف مخلفات القشور في بطون وعيون الشباب، حتى تراكمت وتكومت مزابل العقد والمشاكل في الطرق وعلى الأبدان والنفوس، فانفلقت دماملها وتوسعت جراحاتها. تفاقمت العقد والمشاكل بحيث لم يعد بإمكاننا تنظيف ذواتنا من مخلفات الطائفية والقومية التي التصقت بالنفوس كالتصاق الشعر في الجسد.

وفي يوم الأحد وفي ساعة الاتفاق كانت قد جهزت المبلغ وانتظرت المجرمين قرب باب مشفى اليرموك، بعد أن ارتدت شيلة صفراء وحقيبة قديمة لتوهم المارقين بأنها خارجة من المشفى. خلال توقفها لدقائق توقفت أمامها عجلة تاكسي وفيها ثلاث ملثمين، هم جعفر ورشيد والسائق، نادى عليها جعفر..

- أم محمد! كل شيء جاهز؟ هات المبلغ.
- أين أبو محمد؟
- خلال ساعة سيكون عندك في البيت.

استلموا منها الحقيبة ثم انطلقوا نحو مبتغاهم... بقت عيناها منصبة خلفهم، تراقب عجلتهم حتى زاغت العجلة في متعرجات الطرق، كانت قد لمحت نصف وجه السائق، لكن العجلة كانت غير مرقمة.

فعلا مثلما وعدوها صدقوا وعدهم، خلال ساعة من استلامهم المبلغ وصل أبو محمد البيت بوجه شاحب، ونفسية منهكة، مرتبكة، الدموع محصورة في محجر مقلتيه، أشبه بالذي مسه خيط جنون في رأسه! بات يحتضن زوجته وأطفاله، يشمهم، يقبلهم، يلعن حظه

العـاثر الـذي بـات يتعبـه..... احتفـت بـه زوجتـه، طيبـت نفسـيته بمحبتهـا ووفائها، عبرت له عن شكرها لله بعودته سالما غانما، قالت له:...

- فـداك الفلـوس؛ المهـم عـدت لنـا سـالما، لـم نتعـب بالمـال، أظـن أنــه مــال حـرام، فالمقولـة تقـول: مـال الحـرام للحـرام. لا تهـتم، لا تفكــر بمـــا ذهـــب، أنمـــا أدعـــوا ربـــك أن يعوضـــك الصـــبر وغنى النفس والإيمان.
- علينا أن ندبر أمرنا ونهرب من بغداد......

3

بعد أن استحم وبدل ثيابه، جلس جانبا، شارحا لزوجته وأبنه طريقة خطفه، حينها جذب محمد لجانبه وصار يناقشه في مسالة اختطافه، أن يتذكر وجوه خاطفيه وأين وضع وما هي ملاحظاته داخل القبو، أيكونوا هم ذاتهم من اختطفوه؟

سال أبنه محمد قائلا له:...

- يا بني؛ حين اختطفت أين وضعوك؟ هل لك أن توصف لي المكان بدقة؟
- نعم يا بابا... لقد وضعوني في سرداب مظلم، فيها شباك وحيد صغير في الأعلى.
- نعم وماذا بعد، أوصف لي الدرج.
- الدرج لوائح مصبوبة من السمنت بعرض متر دون درابزين حافظة.
- هم نفسهم، هم.. نفس المكان الذي وضعت به، وهل تتذكر تشقق جدار الحائط الملبوخ بالجص في الجهة المقابلة للشباك.
- نعم يا بابا، أنه على شكل علامة زائد.
- هم ..هم نفسهم الذين خطفوك خطفوني، لابد أن يكونوا من المعارف أو الجيران! لأنهم تعودوا علينا، ويعلموا اسرارنا، يعلموا ما لنا وما نملك وما لا نملك، يا رب أسعفني.
- ماذا تقصد؟ ..سألت ام محمد..
- أقصد الخاطف هو أحدا أقاربك أو من أقاربي...أو احد أفراد الجيرة فعل بنا هذا.
- وكيف تجزم بذلك؟.

- خيال الشخص الذي كتف ذراعي لا يفارق ذهني، كأني أعرفه أو قد تعاملت معه فيما سبق، لا أستطيع أن أحدد شخصه بالضبط، تركيزي مشتت في هذه النقطة. يا رب أسعفني.
- بابا الذين اختطفوني هما شخصين، أحدهم ضخم الجثة طويل، والأخر ضخم لكنه قصير، الشخص الضخم ذات أنف أزور، مقرط، معقوف جانبا.
- هو نفسه، أحسنت الوصف يا بني، هو هذا الوجه ليس غريبا عليّ.

بقي يفكر ليل نهار في صورة الشخص الذي أختطفه، لم يخرج للعمل خلال اليومين التاليين. لكن لابد من العمل، لابد من الحركة، لابد من العودة للحياة الطبيعية.

بقيت الكآبة تلازمه وهو مشغول بالخاطفين له، لم تنفك عن صدره حسرات العقدة، أنها صورة ضبابية مرتبطة بأنفاسه، بشهيقه وزفيره، لم يعد يشعر بالضحكة والفرحة ترتسم على وجهه، فكره ملغم بالحيرة المرة، وبطيف وشكل ذلك الشخص الذي أصبح كابوسا يراود خياله، شبح قانط في دهاليز فكره لا يفارق ظنه.

صار ذاك الشكل يطارده في الأحلام، يطرق أبواب ذهنه كل لحظة، أنه قريب جدا من الإمساك به، وكلما حاول ذلك فلت من نافذة النسيان كشبح يغص في الضياء. أنه قريب من التماس الحقيقة، قريب من أن ينطق اسمه. لازلت الصورة مشوشة وغامضة..

*****

صار يتأخر بالخروج من البيت حتى تدب الحركة في الشوارع، ليتطمأن على نفسه. لذا توجه لمحله في العاشرة صباحا من اليوم

الثالث لفك قيده في الرابع من حزيران 2005. بعد أخلاء سبيله تغيرت نظرته إلى العالم. أضحى أكثر حساسية وشك بكل من يصادفه، لم تعد ثقته تعينه على تفسير الأشياء، كل شيء صار مبهما أمام عينيه، صار ملغما في فكره.

في خروجه من البيت كان قد التقى جاره أبو عادل أمام الدار، قبل أن يستأنف طريقه لمحله، أستفسر منه أبو عادل باستغراب عن تغير وتبدل حالة أخيه جاسم المفاجئة؟ عن تحوله بليلة وضحاها من أجير وحمال إلى تاجر يتاجر بحاجات المفرد والجملة في سوق الشوجة. استفساره كان أشبه بنسخة كاربونية من الأحداث التي دارت رحاها في فكر قاسم، كان استفساره في محله، كشف له عن الجانب المظلم الذي لا يراه إلا بأعين الغير قائلا له:...

- ترى كم يجني من عمله ليرتقي إلى تلك الدرجة، هناك من هو أقدم منه وأكثر ثقة في السوق ولم يتبدل وضعه وموقعه عن قدره كأجير أو كحمال قط. ترى كيف استطاع تبديل وضعه؟..
- ماذا تقصد يا أبو عادل؟
- قبل أيام كنت أتجول في سوق الشورجة، وقد صدمت من تغير حال أخيك!! كنت قد تبضعت منه بعض الحاجات، ما شاء الله عليه تمكن من ترقية حاله، أصبح تاجرا ينافس الآخرين. أصابه وابل خير ونعم، الاموال تجري بين يديه، تدر عليه البركة...

يا ترى هل من الممكن أن يرتقي بعمله لهذه الدرجة من ما كان يجنيه من دفع العربة؟ هل ساعدته بنفسك في تغيير كاره؟

قاسم متعجبا....

- يا أبا عادل؛ عينك شديدة الحرارة، دع الرجل بحاله، الله يرزق من يشاء، بالحقيقة أنا لم أساعده قط.
- ليس حسدا يا أخي، أنما التحول السريع يجلب الأنظار، والتجارة تحتاج لعقل نير ورصيد قوي، كيف أستطاع أن يجمع كل تلك البضاعة في كشكه، من أين أتى بتلك الأموال؟ لا تقول أنها لغيره، فلا أحد يُأتمن في هذا الوقت.
- لا علم لي بذلك، ممكن أن تسأله. ولكنه يقول أنا مجرد سمسار، أتاجر ببضاعة غيري وأستخلص منها الأرباح..
- جميل، ولكن بهذا الظرف الأعرج لا أحد يجازف بماله، ثم لو كان أخوك سوي مثلك لربما أقتنع بادعائه، لكنه طوال حياته دميم وصاحب عقد ومشاكل، لم يكن سويا أبدا، التجار يعرفون طباعه.
- لا علم لي بذلك، ليس عندي ما أقوله، أستأذنك أني مشغول هذه الساعة..
- أبو عادل: إذنك معاك، مع السلامة...

رغم أنه أنزعج من فضول أبو عادل الذي صار يدخل أنفه في الكبيرة والصغيرة، إلا أنه استخلص من حديثه فكرة غَنَاءُه، أعاد شريط لقائه بأبو عادل مرات ومرات وهو يتدحرج في طريقه لدكانه، حتى صار للشك مخالب تخربش ذهنه، تداهمه، تفري فكره، مع بقاء صورة شبح ذلك الرجل الذي أختطفه يدور في خياله، كأنه لابدٌ في ظله.

كان قد أستخلص ملاحظات أبو عادل لربطها بشكل ذلك الشبح القابع في ذهنه، لابد هناك من حلقة مفقودة تكمل سلسلة الجريمة، شيء ما مبهم، غامض، غير واضح، لا يعكس أضواء القضية... كأنَّ أبو عادل قد غزه بإشارة عابرة غير مقصودة منه نحو جاسم، كأنه أوضح له بأن المجرمين هم قريبون منه، يدورون في دائرته،

لكنــه ينقصــه الــدليل والفطنــة لتحديــدهم وغــربلتهم. ابــو عــادل لــيس لــه علم باختطاف محمد ولا باختطاف قاسم...

ذهـب لمحلــه والشــك يتكـور مـع خطـوات قدميــه، يـزاد حجمـا لبلـورة تلـك الفكـرة التـي عجـز علـى هضـمها وتحميصـها وتصـويرها، عجـز عــن بيــان أثــر الغــل الــدائر حولــه. حينهــا قــرر أن يجمــع بعــض المعلومـــات عـــن أخيـــه قبـــل أن يتهمـــه جزافـــا بجريمـــة اختطافـــه واختطاف أبنه.

كمــا أنــه تــذكر حــين اختطــف أبنــه طلبــوا منــه أن يــأتمن أخيــه جاســم ليسلمه المبلـغ، تـرى لمـاذا اختـاروا جاسـم، أيكـون واحـدا مـنهم، أم هـو الرأس المدبر؟؟؟.

ومـا أن وصـل محلـه؛ حتـى فـتح كبنـك دكانـه (بـاب الـدكان) وهـو يفكـر بــالتغير المفــاجئ لحــال أخيــه، وبــذات الوقــت يتبــع بعمــق صــورة شــبح ذلــك الشــخص الــذي كتفــه ذو الأنــف الأزور، والتــي طبعــت صــورته فــي ذهنــه وخيالــه بشــكل جدلــي، حيــث يجــد فــي تلــك العلاقــة المخفيــة ســر العقدة ومشاكلها....

مــا أن جلــس علــى كرســيه ليرتــاح قلــيلا، حتــى أخــذه التيــه لبضــع دقــائق فــي رواق المحــل متبعــا إرهاصــاته وخيالــه، باحثــا عــن عقــدة المشــكلة التــي نغصــت حياتــه. أو بــالأحرى صــار يتتبــع المشــاكل التــي اعترتــه واحـدة تلـو الأخـرى، صـارت تتجـدد فـي مخيلتـه مـن لحظـة سـرقة محلـه واختطــاف أبنــه ومــن ثــم اختطافــه، ولغايــة تحــرره ولقــاءه بــأبو عــادل.. وهو يتمعن في محله وفكره مشغول بالشبح المارد.....

علــى حــين غفلــة نــط مــن مكانــه، انفكــت أحجيــة لغــزه كصــرة فتحــت أمامــه، كأنــه فــي تلــك اللحظــة قــد هــبط عليــه الــوحي ليبعــد عــن عينيــه أوشــحة الغشــاوة.... ودون إرادة منــه صــار يصــرخ ويبكــي والــدموع تنهمر من مآقيه مرددا مع ذاته...

- هـو ... هـو...ذلـك الكلـب جعفـر، هـو حمـل أمتعتـي وحاسـبني هنـا، كأنـه واقـف أمـامي الآن.. هـو ذلـك الحقيـر الحمـال جعفـر، طالمـا أنـه حمـال فأكيـد أنـه صـديق جاسـم، وأكيـد تعـاون معـه فـي اختطـافي واختطـاف محمد، وإلا مـن أيـن لـه كـل ذلـك الغنـى، صـدقت يـا أبـو عـادل، شـكرا علـى تلميحاتـك، ارسـلك الله لـي لتبين الحقيقة التي لا أراها....

صار يرى شبحه يدور في دكانه. فأستدرك الحدث قائلا:..

- هنـا تعاملـت معـه حـين حمـل البـالات، وحـين أنـزل البضـاعة مـن العجلـة (صـناديق الملابـس الجـاهزة) وحـين قـبض منـي أجرتـه متوسـلا أن أزيـده هـو ورشـيد. هـو ذاتـه ذات الأنـف المقـرط المعقوف......شـكرا يـا إلاهـي! شـكرا جعلتنـي أتـذكره، وشـكرا يـا أبـو عـادل، كانـت ملاحظاتـك صـائبة، لقـد أوصـلتني للحلقة المفقودة، نبهتني عليها وعن حالة أخي.

أعـاد غلـق كبنـك دكانـه ورجـع للبيـت مغتبطـا، بشوشـا، مسـرورا، لقـد تعـرف علـى المجـرمين، تمكـن مـن الوصـول الـيهم، جعفـر وصـديقه رشـيد ومـن ورائهـم جاسـم. لابـد أن يكـون هـو المخطـط لهـم، لابـد مـن أن يتخفـى فـي الظـل ليبعـد عنـه الشـكوك، وإلا مـن أيـن لـه كـل هـذا؟ لـمَ طلبوا أن أسلم المبلغ له حين أختطف محمد؟ شكرا يا أبو عادل...

عــاد قاســم للبيــت والدهشــة تتملكــه، تكــاد تفقــده صــوابه وتوازنــه، ترتجـف أطرافـه مـن كـم الهـم والحـزن الـذي تكبـل بـه وارتـاده، ومـن سحابة الفرح التي سورة قلبه وأبطط سره واغاثته برذاذها.

الحزن نابع من غدر أخيه به، والفرح من معرفة الجناة...

لـم تخطـر ببالـه فكـرة غـدر أخيـه بـه إطلاقـا، لكـن تغيـر أحوالـه وعـدم إعلامــه بزواجــه المفــاجئ وتغييــر كــاره والــذهب الــذي تترصــع بــه

زوجته نرجس، وأثاث البيت الجديد. كلها دلائل تشير إليه بأصابع الاتهام بالإضافة إلى الثقة التي اولوه له باستلام المبلغ مقابل الأفراج عن محمد.

ثم بنت رهيفة جذابة كنرجس بقامتها وجمالها، استحالة أن ترضى بشخص تافه كجاسم زوج لها دون أن تقبض المقابل الثمين، لابد من مقابل مادي يوازي فتنتها... مستحيل أن تتزوج من رجل حافٍ وهي أبنة جاه وعز كما تتدعي، مرصعة بالفتنة والجمال والذهب.

لم تفلح في محاولة إيهامه خلال زيارته لها، حين أدعت بأن حليها من ميراث زوجها السابق. منْ تملك أموالا كالتي تملك؛ تنتقي زوجا مناسبا لها وليس حمالا أجيرا. وقد أدرك ذلك في حينها، وكان قد أدرك بأنها لم تكن صادقة معه، إنما ودت أن تبعد الشكوك عنها وعن جاسم.

أنتشت أوصاله بالفرح، عرف أعدائه، عرف اللص الحقيقي، عرف القطط التي نهشت لحمه، لابد من أن يتحول لكلب شرس، لتهابه تلك القطط التي تجرأت عليه، بل لابد أن يتحول لأسد ضرغام، لابد له من أن ينتقم منهم جميعا!!

ولكن كيف؟ ما هي السبل لذلك؟............

دخل البيت وهو مضطرب، مما أوقع خيفة في قلب زوجته رقية...لأنه لا يستطيع أن يستكين وفي ذهنه جمرة تلسع احشائه، لا يمكن أن يستكين في مكانه وتستكين النار المضرمة في فؤاده.. الأعصاب مشدودة، منتبذة عن أصل حالها، صار لها أنياب تنهش فكره وعقله، أنه مكبل بالشرود، مشدود إلى الانتقام، الحيرة تقوض سلوكه، لابد من صبر ودراية لألا يستشعروا به أعدائه.

صار يدور في إرجاء البيت كالمصراع، لا تستقر قدماه على بقعة، ناثرا غبار الغضب من على وجهه، عيناه محمرتان، كانه وحش كاسر يبحث عن فريسته لينقض عليها. الواقع يقول بأن الضرس المسوس هو مصدر الألم فلابد من قلعه.... حينها استقبلته رقية بشيء من الخوف عليه لعودته المبكرة، توقعت خلفه مصيبة جديدة حلت به:...

- خيرا، لم عدت بهذه السرعة، ماذا أصابك؟
- يا رقية، الله نور بصيرتي، عرفت المجرمين!
- يا لله خير.. أخبرني منهم؟ هيا أخبرني، أذهب وأخبر الشرطة عليهم.
- لا لا لابد من تأني، أنه جاسم الكلب وأصدقائه.
- ماذا !!! أخوك؟... وكيف عرفت؟..ثم هدء من روعك، أهدأ كي لا تصيبك جلطة تفرحهم بك. أغسل وجهك بالماء البارد، أشرب قدحا من الشاي لتهدأ أعصابك، سأجلب لك إستكان شاي يزيل توترك. تعال أجس على الكنبة، ارتح قليلا. الحمد لله على كل شيء. لكن كيف عرفتهم؟
- يجب أن أنتقم منهم، هؤلاء الكلاب. تركونا نعيش في رعب وقلق دائم، سرقوا منا أحلامنا، سرقوا أموالنا، لم يَدَعونا نهنأ بالبيت الجديد ولا بحياتنا البسيطة. جعلونا نخاف من ظلنا، لابد لهم يد في سرقة الدكان أيضا، لابد أن يكون أبو عصام قد هيأ لهم سبل الجريمة، أو حثهم عليها....
- أبو المثل ما كذب حين قال (ما يصيبك برد إلا من رجليك)... ماذا يدور في بالك؟ لا تورط نفسك فتذهب حياتك سدى، أذهب وأخبر الشرطة.
- دعِ الشرطة تحمي نفسها قبل أن تحمي الناس، يجب أن أنتقمَ منهم بنفسي....
- طيب وكيف عرفتهم؟

- وأنـا خـارج مـن البيـت التقيـت بـأبو عـادل، قـال لـي: بأنـه قـد تبضـع مـن جاسـم فـي الشـورجة، ثـم سـألني أسـئلة غريبـة، قـال: هـل الحمالـة ممكـن أن تجعـل الشـخص غنيـا؟ لقـد تغيـر حـال أخيـك كثيـرا، هـل سـاعدت أخيـك؟ أنـي وجدتـه قـد تحـول مـن حمـال أجيـر لتـاجر فـي سـوق الشـورجة..... ثـم قصـة زواجـه بـامرأة شـابه مرصـعة بالـذهب شـغلت فكـري، كـل تلـك التحـولات لـم تـأتي بغتـة، كنـوز سـليمان فتحـت عليـه، فمـن أيـن له كل هذا؟؟؟-
- صدقت وأنا لم يعد مخي يستوعب الحالة.
- وأنـا فـي طريقـي إلـى الـدكان صـرت أفكـر بكـلام أبـو عـادل، أحـاول أن أبعـد الشـك عـن جاسـم، لكـن الشـك تشـعب فـي ذهنـي، قويـت مخالبـه، أثقـل العـبء علـيَّ، بـات ينكـز عبئـي، ينغـز فكـري، خاصـة حـين تـذكرت فـي لحظـة اختطـاف محمد، طلبـوا منـي أن اسلم المبلـغ بيـد جاسـم مقابـل الافـراج عـن محمد، يا ترى؛ لِمَ اختاروه؟

حينهـا قـررت أن أجمـع عليـه بعـض المعلومـات قبـل أن أتهمـه جزافـا... ولكـن بعـد أن وصـلت الـدكان، بعـد أن فتحـت كبنكـه وجلسـت علـى كرسـيي المعتـاد، تـراءت لـي صـور المجـرم الـذي خطفنـي تحـوم حـولي، ذلـك الـذي كتـف ذراعـيَّ بذراعيـه القـويتين وهـيَّ تتحـرك أمـامي، تـراءت لـي صـوره وهـو ينقـل صـناديق الملابـس مـن العجلـة للـدكان حـين اعتمـدت عليـه فـي تغييـر شـكل المحـل، حينهـا تعرفـت عليـه، عرفتـه، أنـه جعفـر الحمال وزميله رشيد...

أكيد أنهمـا صـديقا جاسـم، هـو مـن نقـل البـالات مـن الـدكان إلـى العجلـة، هـو مـن أنـزل صـناديق الملابـس الجـاهزة مـع صـاحبه رشـيد، هـو مـن تعامـل معـي وقـبض أجـوره... إذا لابـد مـن أنهـم صـحبة تعـاونوا علـى ابتزازنـا، لا أحـد غيـرهم يفعـل ذلـك، هـم

وراء كل الجرائم، ربما لهم يد في سرقة الدكان وقتل أبو عصام أيضا.

- وكيف العمل؟ لابد أن تخبر الشرطة؟
- قلت لك دعي الشرطة تحمي نفسها. ثم أنهم كلهم بلا استثناء لصوص وحرامية، أتودين أن أستند على لص في إعادة ما سرق مني؟ يجب أن أنتقم منهم بنفسي كي يبرد نار قلبي وخاصة من الكلب جاسم، لابد أن أتخلص من الضرس المسوس.

يا ترى؛ ماذا عليه أن يفعل بعد أن تعرف على الجناة، أنه أخوه الوحيد من أبويه، أخوه الأصغر، كيف سيتصرف معه؟ ثم أنه لم يكن يوما جزارا، ولا سلك سلوكا أرعنا مع أحد، لا يعرف اسلوب القسوة واساليب المراوغة.. ولكن ما تعرض له من إذلال وابتزاز كان كبيرا، لن يحتمل ضيمه وسخطه أحد.

ترى يا صديقي القارئ العزيز ما رأيك؟ لوكنت مكان قاسم كيف ستتصرف، كيف ستواجه معضلة من أذلك وابتزك وسرقك؟ أنها عقدة كبيرة قد لا يتحملها قاسم، وخاصة الطرف الآخر هو أخوه. حاول أن تعطي لنفسك بضعة دقائق وتصور المشهد من خلال خيالك، ترى هل يطابق خيالك خيال الكاتب؟

بعد أن هدأت أعصابه، راودته فكرة أن يشتري مسدسا لينال من المجرمين، سوق السلاح أصبح مفتوحا، كل الناس تتاجر به، بغداد أصبحت تكساس في هذا المجال. سلاح الجيش والشرطة وتركات نظام صدام من العتاد لا تنضب، صارت سلعة علنية في الأسواق، ثم معظم الناس يمتلكون سلاحا في البيت إلا أنا.

خلال فترة الظهيرة ذهب إلى أبو عادل فهو أقرب الناس الذي ممكن أن يساعده في هذا المجال، كونه متعاونا مع الميليشيا وله

خبـرة ممتـاز فـي السـلاح... طـرق بـاب بيتـه ... فـتح البـاب أبـو عـادل بنفسه مستقبلا له.

- تفضل أدخل أبو محمد، البيت بيتك...
- عـذرا منـك يـا أبـو عـادل، أود منـك مسـاعدة خاصـة، أنـت اقـرب الأصـدقاء والشـخص الوحيـد الـذي ممكـن أأتمنـه وأعتمـد عليه، وممكن أن يقدم لي يد المساعدة.
- أنـا فـي الخدمـة، قـل مـاذا تبغـي، أنـا فـي خـدمتك...هل تحتـاج لمبلغ معين؟
- لالالا الحمـد لله الحالـة مسـتورة، أريـد منـك أن تـدبر لـي مسدسـا جيـدا، فأنـت لـك خبـرة فـي هـذا المجـال، وأنـا لـم اسـتخدم سـلاحا مـن قبـل، وكنـت قـد اسـتخدمته منـذ فتـرة طويلـة خـلال فتـرة الخدمـة الإلزاميـة.. لا أعـرف تصـنيفاتها بشـكل جيـد ولا اسـعارها ونوعياتهـا. كمـا أنـت تعـرف قصـص الـبلاء التـي مـررت بهـا، وظـرف البلـد المتقلـب، لـذا مـن الضـروري أن أحمـي نفسـي وأحتـرس مـن محيطـي، أود أن أحمـي أهلـي مـن كيد الغادرين.
- أبشـر؛ فـي المسـاء سـيكون عنـدك غرضـك، مسـدس قـوي جـدا ومعروف، أنه روسي الصنع من نوع توكاريف.
- أريده كاتما للصوت ولا يهمك سعره؟
- لالا.. أنـه معـروف سـعره، المسـدس مـع مخـزنين ومئـة إطلاقـة بألفي دولار فقط.
- وهو كذلك، أنتظرك في المساء، شكرا لك.

ضـباب الحـزن شـف ملامحـه، أطبـق عليـه، تلاعـب بـه، صـارت الأحـداث أشـبه بالخيـال تتحـرك فـي وسـط صـمته، لا يسـتطيع أن يتخـذ قـرارا صـائبا، الحـذر والخـوف مـن المجهـول والمصـير المجهـول.. تلك العناوين باتت تقلقه في جريدة يومه.

كيف ستنتهي الأمور الشائكة...

يا ترى؛ ماذا سيحصل خلال الساعات القادمة؟ أو خلال الأيام القادمة؟ يجب أن يتخذ قراره بأسرع وقت، قبل أن يخطر في بال الجناة فرصة الهرب بما جمعوا من مبالغ متاحة، الطرق أمامهم سالكة ومفتوحة، ومجالات الهرب واسعة.

دعني أتحرك أسرع مما يظنون وأسرع من نياتهم الخبيثة. ثم أني ممكن أن أعثر على جاسم بيسر، لكن كيف سأنتقم من هؤلاء الحثالة جعفر ورشيد؟ أين ممكن أن أعثر عليهم؟

مضت ساعات المساء ثقيلة على قلبه، كأنَّ عقربة الساعة توقفت على حَجَرِها، الفكر مضطرب، البال مشغول، ينتظر عودة أبو عادل على أحر من الجمر، آملا أن يرفده بخبر سار بشأن المسدس.

أضحت الفكرة كمرض الحساسية تهرش ذهنه. حيث كأس الحياة مرير، الخبير من يجعله طيب المذاق. طالما لعق فكره ولسانه بمرارة الصبر، فلا ضير من أن يصبر على ضيمه صبره الأخير...

4

جلس قاسم جانبا وصار يحلل المشهد العام مع نفسه قائلا:...

- حسنا فعل أبو عادل بانتمائه لأحد فصائل المليشيا، لقد غير من روتين ونمط حياته كثيرا، تحسنت حالته المادية والنفسية، وبدل من أنْ يُهَدَّدْ من قبل المجرمين واللصوص؛ صار هو الذي يُهدِدْ الآخرين. كما أنه أصبح أكثر جرأة وثقة بالنفس، صار يتاجر بالأسلحة الخفيفة سرا وعلانية، استغل الفرصة المتاحة أمامه بتمعن، بذهن متفتح، لم يتأخر عن الركب مثلي ومثل أبو عصام..

ربما كنت سأكون شبهه لولا النفس المريضة الجبانة المتقمصة ذاتي، التي مهووسة بالكسل والعجز، تلك التي تروق إرهاصاتها وتخبطاتي. دعني أستفد من تجارب الآخرين، دعني أنقذ نفسي وعائلتي من الوحل الذي غصت فيه قدماي.

هناك أناس تستطيع قراءة المشهد من اللحظة الأولى كأبو عادل، وهناك من تمر عليه الحقب والمصائب حتى تلسع جلده النار ليستشعر بخطورة الظرف، حينها ينتبه على ما يدار حوله كأمثالي.... الفرق واضح بين الأثنين في تركيبة الفكر وفي القدرة والعزم والنية والجرأة، لا بل هناك سر كامن في داخل كل إنسان يدفعه لمواجهة ظرفه، هذا السر مرتبط بمدى قدرة الشخص على قراءة المشهد والمجازفة باللحظة المناسبة وامتلاك الشجاعة والتحلي بالصبر المكنون في داخله.

إين أنا من كل ذلك؟....

أكيد لن أقارنها بأبو عادل، لن أضع نفسي داخل قوس المجازفة، لأني لا أتحلى بصفة الشجاعة قطعا، لأني لم أتعرف عليها عمليا.
هناك من يبحث عن الفضلات فوق المزابل كأبو عصام، لا تهمه شخصيته ولا دينه ولا كياسته، هناك من يعيش كالبكتريا الضارة بتطفله الملح، أينما تضعه يُشم عطن جسده ويلمس خبثه كجاسم، وهناك من هو يختلف عن عامة البشر مساق خلف إرادة جبارة، ذات معدن أصيل كالذهب خالٍ من الشوائب كصفاء.
الناس أصناف والمفروض على الإنسان أن يتحلى بالتأني ويجمع من كل صنف حبة ترسم شخصيته، تبين له مساره لمقارعة الظروف التي تمر عليه، يجب عليه أن يكون ثعلبا ماكرا في مواضع معينة كأبو عادل، ويجب أن يكون ذئبا شرسا إذا ما تطلب الأمر ذلك كصفاء، وعليه أن يكون أسدا إذا ما استوجبت الحالة، كما عليه أن يتمسكن ويمثل دور الدجاجة إذا ما تطلب الأمر ذلك كأبو عصام، وأن يكون نذلا وقذرا وخبيثا في أوضاع معينة كجاسم.
الناس أصناف، معادن، وأنا معدني ركيك، رقيق كالتنك، أنطوي على ذاتي من ضربة واحدة.
ليتني أجمع بين شجاعة صفاء وعزيمة أبو عادل ودناءة أبو عصام وخبث جاسم وطيبة قاسم، تلك التي تكور شخصيتي، لأستطيع أن أرسم بانوراما حياتي بدقة مع كل حركة الموج وعصره، كي أستطيع أن الحفاظ على كياني من عبث الآخرين، كي أستشعر بالأمان والحب والحياة.

لم يتأخر أبو عادل كثيرا، أحضر له المسدس المطلوب وطلب منه تجريبه ليلا، فلا أحد يسأل عنه بعد أن يحل الظلام.

شكره على مساعدته القيمة ومن ثم ودعه بعد أن أقبضه الفي دولار.

أخيرا صار يستطيع الدفاع عن نفسه، صار يتمكن من مقارعة أعدائه، صار يلتمس تحوله من حمل وديع لنمر مفترس. التجارب المتكررة كافية لتغير طبيعة الإنسان، تلقن الفرد دروسا في العطاء والجفاء والعناء والحكمة، تجعله يتلون بلون الظرف، متقد الفكر من البداية، يتقد من قدحة حين يود تجاوز المعضلات المحيطة به، وقبل أنْ يتخطى نزق المطبات ومخططات المناوئين له عليه الاحتراس ثم الاحتراس.. حيث الفرد تُعلى مراتبه بالمواجهة، كما أنه يتوه في التلكؤ وخيوط العقد إذا ما استساغ السجال في خطوته الأولى، لذا تجده يفعل المستحيل من أجل إنقاذ نفسه ودرء الخطر عن أسرته..

مثلما أعانه الزمن على الصبر؛ سيجنبه المسدس خطط مناوئيه ومطبات المستقبل، التجارب تعطي الدروس المجانية، والدروس يجب أن يكون لها توثيق وتطبيق في حياة البشر، لتكون عبرة له ولغيره.

ثم ادرك نفسه قائلا:....

- مثلما للظلمة مخالب شرسة تنهش وجه الجرأة، فهي أيضا تمنحه فرصة التبجح والمجازفة والاختفاء والاختباء في ظلها، فهي أيضا تحظى بعالم واسع من السهد والسكينة والتفكير الحر، تعين الذات على تجاوز العقبات بالتبصر والتعقل. ففي الوقت الذي به ترهق النفوس الضعيفة، فأنها تزيدها قوة وإصرارا وحنكة وشراسة وتمعن بمعالجة العقد.. الوجل يولد الجبن، والضعف ينهك العزيمة، كما أنه يولد حماقة في النفس ويقتل النية والهدف. الوجل والضعف

والحمق مسارب ضيقة للشخص الضعيف، دائما ما تؤدي نهايتها إلى الفشل....
إذا يجب أن أرفع الوجل عن القلب، يجب أن أغير من سلوكي تماما، كي أتجاوز حالة الضعف وحدود الفشل. لابد أن يطرأ تغيير في نمط حياتي، عليَّ أن أكون ذئبا أعسعس دروب الليل، أن أجعل قناديل الأحلام تسرج في فكري، تتقد في طرقي، عليَّ أن أتخطى هاجس الخوف والحسد والعيون الناقمة بردة فعل مناسبة.
لكن؛ بأي ذنب أحاسب جسدا معفرا بالجبن؟ وذهنا مضطربا غارقا بالخوف وتقلب المواجع؟ مكبلا بصفات أنثوية تحط من عزيمتي، تحط من قدري وشخصي.. بأي ذنب؟......
تلك الصفات مدفونة بأعماقي، هي ليست صفات مكتسبة فحسب، أنما وليدة تربية خاطئة وطباعٌ بالية تراكمت نتيجة ظروف عجنت سلوكي، بعضها موروثة وأخرى مكتسبة، حيث أني لم أخضع لتجارب سابقة، لم احتك بالمصاعب، كي تمنحني الثقة بالنفس، كي تزيد من خشونة طبعي وطباعي، كي تقوي بأسي وعضلي، تزيد من بصري وتبصري.. دائما ما كنت أتجنب المشاكل والعقد والاصطدام بالآخرين، دائما ما تعودت أن أسير وحيدا بجانب الحيطان، منزويا في ظلي دون أن أختلط بالصالح والطالح لأستقي منهم التجارب.
إذا يجب أن تتبدل وتتغير المعادلة، يجب أن أتحول كيميائيا من صفة الثلج والبرود الملازمة لسلوكي وطبعي العام؛ لصفة النار والحديد، لصفة أكثر ذكورية وشراسة وجدية، يجب عليَّ أن أتحرر من القيود الأخلاقية والدينية والعاطفية التي كبلتُ بها، وبالذات في حالة النقاط الحرجة التي أمر بها، تلك التي تعيق سعيي وتلجم قراري.

الظــرف الكاســر يجبرنـــي علـــى إعـــادة بنـــاء شخصــيتي تحــت شعار - **أن لم تكن وحشا أكلتك الوحوش.**

هكذا أنصف فكره وأتخذ قراره..

ذهــب لغرفــة نومــه وأغلــق رتــاج البــاب عليــه، ليكــون بعيــدا عــن فضــول الأطفــال وإرهاصــاتهم، ليتجنــب شــر الســلاح وعبثــه، حيــث لا يــود أن يعلمــوا بــأنَّ فــي البيــت شــيطان يقــيم البشــر، آلــة قــادرة علــى أن تحيــي وتميــت... يجــب أن يتــوخى الحــذر، فــالكلاب ذكيــة، تشــم رائحــة الخطر عن بعد، مثلما تشم رائحة الفريسة..

لازال هــو فــي نظــرهم فريســة، ويجــب أن يبقــى كــذلك لغايــة لحظــة الحســاب. إذا عليــه أخــذ الحيطــة والحــذر ليتجنــب غــدرهم. يجــب علــى الحــر أن لا يلــدغ مــن جحــره مــرتين، لقــد تعلــم الــدرس، وعليــه أن يكــون أســتاذا مــاهرا فــي مجــال عملــه، مــاكرا فــي تطبيــق منهجــه، مــع احتفاظــه بصفاته المعروفة التي تبجله وتعظمه أمام المجتمع.

مــرت عليــه أقــدار جســيمة، شــائكة، لــن تحتمــل طائلهــا. إلا أنهــا علمتــه أن ينظــر جيــدا لمحــيط دائرتــه ويركــز فــي ســدم الأفــق عــن المنافــذ التــي تجيلــه لواقــع الســلام، ليكــون أكثــر حــذرا، متجنبــا الســهام المطلقــة ضــده. عليــه أن يــتمعن جيــدا بمــا حواليــه مــن شــر وخيــر، فلابــد هنــاك مــن بصيص أمل يخطر ذهنه ويضيء له دربه.

النـــور قـــد يكـــون كامنـــا فـــي أعماقـــه دون أن ينتبـــه لـــه، كـــ طيبتـــه المعهـــودة، أو فـــي طريقـــه كإشـــارة أبـــو عـــادل الاعتراضـــية لـــه، أو فـــي دكانـــه كبـــالات الأســـمال التـــي أشـــارت إلـــى جعفـــر، أو داخـــل قوقعـــة الخبـــث والشـــرك المنصـــوبة فـــي طرقـــه كملامـــح جعفـــر وغنـــى جاســـم وحســد أبــو عصــام لــه، أو فــي شــقوق الجــدار وســلم القبــو الــذي وضــع فيـــه لحظـــة الاختطـــاف....الـــخ..... تلـــك هـــيَّ إشـــارات اســـتغاثة أرشـــدته إلى السراط القويم، بينت له مسار الخطر.

فمسألة تذكره لجعفر طرأت في باله كبصيص يقين بمجرد أن جلس على كرسيه ولمح بالات أسماله، تلك الإشارة جردته من سحنة العذاب... من ذاك البصيص الباهت لمح وجه العالم الآخر، بعث في صدره نورا أزاح واجهة العتمة التي أغشته طويلا، أراحت ضميره، جعلته يتحول من حمل لذئب في مواجهة الكلاب السائبة، مثلما فاضت فطنته على إشارات القبو الذي وضع فيه، هلت عليه الفطنة كهبات إلاهية، نبهته عما يدور حوله وما يُزرع من شر في حقله وطريقه، عرفته بمن سرقه وأختطفه واختطف أبنه.

صار يجرب المسدس في الغرفة، يسحب ويطلق دون أن يحشوه بإطلاقات حقيقية.. فيما سبق كان قد أستخدم السلاح مرة أو مرتين خلال تدريباته العسكري حين أستدعي للخدمة الإلزامية، إلا أنه بعد أن سرح من الجيش لم يحاول التعلق بالسلاح بتاتا، بل أنه أبتعد عن هذا الخط نهائيا، كون الأمان كان سائدا في البلد، فلا داعٍ للتفكير به أو الاحتفاظ بقطعة من الأسلحة..

أما الآن فقد انقلبت المعادلة، أصبحت للضرورة أحكام، فلابد من وجود سلاح في البيت يزرع الثقة والامان في الذات.

خلال منتصف الليل أرتقى سطح البناية، صار يطلق إطلاقاته تماشيا مع اسراب الإطلاقات العابرة في الاجواء، المحلقة كاسراب الطيور بين الشرق والغرب، المتراشقة بين شلة المقاومين من جهة والمحتلين من جهة أخرى، أضحت الحالة سمة من سمات الليل في سماء بغداد.

عندها أخرج مسدسه وصار يطلق إطلاقات طائشة في الهواء ليزداد ثقة وطمأنينة بالنفس. فمضت قعقعت إطلاقاته باهتة، بلعها هدير ترددات الأصوات المترددة والممتدة خلال محيطه. أصوات

مـدافع الرشاشــات والبنــادق وقاذفــات الهـواوين وقاذفــات بعيـدة المـدى غطت على فعلته بصخبها، تلك التي هزت سكون الليل وسهده.

أيقـن خـلال أطلاقـه الرصــاص الجـدي بأنــه علــى قـدر العـزم، وعلــى قـدر مـا نـوى وخطـط، فلابـد مـن أن ينـتقم مـن الـذين تجـاوزوا علــى صـحنه وبـزوا غلهـم فيـه، لابـد مـن أن يتبـع أثـرهم واحـدا تلـو الآخـر عـاجلا أكـان أم آجـلا، حتـى يـزح عـن دربـه هالـة الظـلام ونبـاح الكـلاب السائبة.

الـذين تتبعـوه فيمـا سـبق حتمـا سـيتبعونه فـي تـوالي الأيـام القادمـة، لأنـه فـي ظـنهم بئـر سـبيل لا ينضـب، فكلمـا وشـلت جيـوبهم سـيتجهون إليـه لملئها من جديد.

5

مـع طلـوع فجـر اليـوم التـالي السـابع مـن حزيـران 2005، جلـس فـي فراشـه بـاكرا وهـو الـذي لـم تصـاحب عينـه غفـوة حقيقيـة مـذ يـوم الاختطـاف. لـم تصـاحب ذهنـه راحـة قـط مـذ أن قتـل حسـن، بـل بقـي طـوال الليـل يرسـم ويـدير فـي رأسـه خطـط عمليـة انتقامـه، يصـور الحالة التي سيكون عليها والحالة التي سيرد بها على أخيه جاسم..

كيف سيدخل البيت؟

كيف سيكتشف السر الذي يبحث عنه؟

كيف سينتقم من جعفر ورشيد؟

القلـق والوسـواس جـائش فـي ذهنـه كالأرضـة، نخـرا فكـره، جعـلاه هشـا لا يرتكـز علـى قـرار. فيمـا الحـزن لـم يبـرح حشاشـة القلـب وسـمات الوجـه، كـتم علـى أنفاسـه، كحـل جفنيـه بـالأرق والعـذاب الروحـي والنفسـي، جعلـه يعـيش عيشـة ضـنكة، يشـوبها لغـو وهـوس وجنـون. لاتقـاد الحالـة، أضـحى مخـه رمـاد عنـاء، منثـور بـين اشـواك الخـوف والحيـرة، الخـوف مـن الفشـل، والحيـرة مـا بعـد الفشـل، هواجس تعيق سعيه.

كـأنَّ الهـم المـراق فـي هاجسـه ترسـب علـى فكـره وقلبـه، أشـعره بثقـل الأيـام التـي مضـت وخطـورة القادمـة منهـا، بعكـس مـا كـان قـد ظـن وتأمـل؛ هـالات جـبن رسـمت لـه مسـتقبلا باهتـا، مبهمـا.... ذلـك القلـق المصـاحب لعزيمتـه هـو قلـق طبيعـي، أصـبح يعشـعش فـي داخلـه كمـارد، يغيـر لونـه كالحربـاء، يتلـون بلـون الظـن، بعمـق التفكيـر وصـور الانتقـام. صـار يغـرق فـي حسـاباته، يلفـه صـمت عميـق، ثـم يرتـد وينـتفض علـى ذاتـه مـع ارتـداد خـيط العصـب والأيـام العصـيبة

التي عاش فيها أيام النكد، لتشتعل فتائل سخطه حقدا وكراهية وبغضا على كل من تطاول وتجرأ عليه.

ثم تهبط بالونة غضبه ليعود منكبا على عاقبيه للخلف، ليغور في شجون فؤاده، في خافق النبض، حتى يرهق بعوامل العجز ومخلفات العملية التي يود القيام بها والتي لم يحسب لها حساب.... صار يشعر بعجز يقيده في تنفيذ المهمة، بالانتقام، لم يسلك خط الجريمة سابقا، لم يكن أسدا يوما ما ولا ذئبا ولا حتى كلبا ينبح على خصومه...هكذا بقي يتقلب في ظل فكره...

كيف ؟ وكيف؟.... كيف سيغير ذاته من صفة الحمل لصفة الذئب؟.

هذا القلق ضلَّ يصاحبه، لا ينفك عن ذهنه، ضلَّ يركبه، لم يستكين به ابدا. أشباح وكوابيس تزاحمت في رأسه، طافت في وسنه، عبثت في خياله... بقي يعاني من تترا الأفكار المصاحبة التي صارت تراوده، دون أن يرسى على قرار صائب. ذلك القلق الذي ساير فكره، صار يحثه على اتخاذ القرار اللازم على عجل، يجب أن يدخل في محك التجربة والتنفيذ، لوضع حدا لتلك المنغصات والمآسي التي تلاحقه.

جلس فجرا دون أن يفطر، عازما على تنفيذ قراره، شعر بالنار تشتد في داخله، نشف ريقه، حينها تناول قدحا من ماء الزير الموضوع في حوش المنزل، ثم خرج مودعا زوجته قبل أن يستيقظوا أولاده..

أوصته زوجته في خروجه تجنب العنف والتهور.. وهو بذاته طمأنها بأنه سيبحث عن أمانه ومستقبله، فالخضوع والسكوت عوامل مساعدة على تكرار مأساة الخطف والابتزاز والسرقة مرات ومرات، تجعله يبقى فريسة جاهزة في عيون مغرضيه.

وصل لبيت أخيه والذي هو بيت والدته قبل أن يهم جاسم بالخروج للعمل..

طرق الباب طرقا خفيفا، فتحت له الباب نرجس وكل ظنها بأن الطارق صديقا زوجها جعفر ورشيد اللذان تعودا أن يزورا جاسم قبل الذهاب للعمل بعد أن صار يشركهما في عمله. ما أن شاهدت قاسم بوجهه الشاحب حتى بادرت تسأله:...

- خيرا؟ ما بك؟ لماذا وجهك شاحب؟

سألته والربكة سورت لها ظن السوء.

- جاسم موجود؟
- لازال نائما في فراشه، يقول ليس لي رغبة بالعمل هذا اليوم.
- أحسن، أود رؤيته.

دخل قاسم متوجها لغرفة النوم، بقدمه دفر باب الغرفة الذي كان مفتوحا دون أن يسرج.. أبهره الأثاث والسرير الناعم، وجد ضبة من النقود على طاولة البوفيه..

بدخول قاسم المفاجئ أرتبك جاسم، جلس في سريره مبهوتا، حس بأن أخوه قد علم بخبثه ونذالته، أراد أن يقفز عليه ليسيطر على الوضع وعلى أخيه؛ لكن قاسم كان أسرع منه، شهر مسدسه بوجهه، مصوبا على صدره...أرتبك في محله موجها كلامه لأخيه...

- ما بك يا أخي؟ ماذا جرى لك؟ هل جننت؟
- نعم جننت بأفعالك يا سافل....

حاولت نرجس أن تمنعه وتدفعه بعيدا، لكنه هددها بالقتل أن تقربت، فارتبكت ووقفت بعيدا في جانب من الغرفة مبدية نصحها.

- ما بك يا قاسم من الصبح، ماذا تريد منا؟

قاسم موجها كلامه لجاسم....

- من أين لك كل هذا؟ إلا تجد شخصا آخرا في بغداد تخطفه وتسرقه وتهدده سوى أخوك.
- لا أنت غلطان، ليس لي دخل...(قاطعه قاسم)
- هناك من شهد عليك، صديقاك!
- هما اللذان خطفوك، لست أنا.

بعد أن تيقن من اعترافه وارتباكه أشتط غضبا، فمسك بيساره نرجس من شعرها ودلفها إلى جهة جاسم، حاولت منعه صارخة بوجهه، لكنها لم تسطع مقاومة غضبه وقوة ذراعه التي تصلبت كقطعة خشب صلدة.

- ألا تخجل من نفسك؟ أ من أجل هذه العاهرة بعتني يا كلب؟... اشتريتها بفلوسي؟....

لم يجد فرصة حقيقية لمنع يده من أن تتهور وتطلق إطلاقة نار صوبه، تهورت إطلاقته لتكشط عضلة ساعده، أنهار جاسم متوسلا بعد أن نزفت يده دما...

- لا يا أخي... لا يا قاسم لا تقتلني... خذ الفلوس، فلوسك تحت السرير، أرحمني، أنا أخطأت، أنت لم تساعدني فدنت نفسي على سرقتك..
- أين البقية؟
- صرفتها على هذه العاهرة... أشر على نرجس...

حينها توجه إلى نرجس أمرا بأن تستخرج كل ما تملك وتخلع كل ذهبها..

نرجس خلعت الذهب واستخرجت مبلغا بحدود 50 ألف دولار كأنت قد خبأتها في حافظة مدعوسة بين طيات الفرش لا يعرف بها جاسم. حينها تفاجأ جاسم من فعلتها، فقال لها:..

- أيا كلبة يا أبنة الكلب؛ تقولين لا أملك شيئا، منعتي نفسك عني، جعلتنني أسرق أخي، أن كيدكن لعظيم.
- كلب حقير عثر على كلبة مومس، لا فرق بينكما.

حينها اهتزت يده بإطلاقة ثانية، لتستقر هذه المرة في صدره دون سابق إنذار، رافقتها صرخة من نرجس التي هيَّ الأخرى تلقت إطلاقة حازمة في جبينها لتصمت على أثرها للأبد، لتنكب على وجهها مضرجة بدمائها.. فيما كان جاسم يصارع الموت بصحبة وحوحة أنين متعبة، أطلق عليه إطلاقة رحمة ثالثة لتفتح صنبور شريان رقبته، ليصمت على سريره إلى الأبد.

لملم الفلوس والذهب في حقيبة سفر سوداء كانت تحت السرير، يحتفظ بها بكل ما هو ثمين وقيم، وقبل أن يهم بالخروج من المنزل سمع طرقا ولغوا على الباب الخارجي، أدرك صوت جعفر وهو ينادي...

- جاسم – جاسم .

رد عليه قاسم بصوته القريب من صوت أخيه...

- أدخل..

هنا اكتملت فرحته بعد أن جاءت القطط التي نهشت لحمة يوم أمس برجليها لموقع حتفها.

نحى جعفر الباب جانبا، دخلا إلى فسحة الصالة برفقة رشيد، كان قاسم أخفى ذاته خلف ستارة باب المطبخ وخاصة لا توجد إنارة في البيت تدل عليه، حيث الكهرباء مخرسّة في كل أنحاء العراق منذ حرب الكويت الأولى 1991، بعد أن عطلت محولات توليدها الطائرات الأمريكية.

بعد أن اجتازا المفازة الوسطية والتي تمنعهم من العودة للخلف بوجود قاسم خلفهم، ظهر إليهم من الخلف شاهرا مسدسه بوجوههم، أمرهم دخول غرفة جاسم، صارخا عليهم:....

- هيا أدخلا للغرفة هيا.
- ماذا هناك؟ من أنت؟
- ما بك يا أخي؟.. من أنت؟
- ألا تعرفان الشخص الذي خطفتموه قبل أيام، ألا تعرف الشخص الذي سطرته على خده يا جعفر الكلب داخل القبو؟ هيا أدخلا للغرفة هيا.
- والله لم نكن نعلم بأنك قريبه، أنا وجعفر ليس لنا دخل في ذلك، هو الذي خطط لنا وأمرنا بخطفك وفي لحظة القسمة أخبرنا بأنك أخوه كي يلتف على المبلغ كله.

دخلا للغرفة خائفين، تفاجئا بمقتل جاسم ونرجس، صارا يولولان ويتوسلان به، راجيان عطفه...

- لم نعمل إلا بمشورة أخوك، هو الذي طلب منا مراقبتك وخطفك مقابل أن نحصل على شقفة مما يحصله منك.
- هو الذي ورطنا معك.
- هيا أخرجا كل ما في جيوبكما مما جنت أنفسكم الأمارة بالسوء، أخرجا ما تملكان وإلا قتلتكم.

أخرجا من جعبهما المبالغ التي استلموها من جاسم، تركوها على الأرض، حينها أطلق عليهما رصاصتان ليرديهما قتيلين إلى جانب جاسم ونرجس.

أخذ الحقيبة وحشر فيها نقوده والمسدس والذهب، ثم خرج من البيت دون أن يراه أحدا، مرتبكا، خائفا، محمر العينين، صاغر الفم، ترتجف ساقيه، متوجها لبيته قبل أن تفطن عليه الناس وتشاهده متلبسا بالجرمة.

لقد حضرت عدالة السماء وأرتقى السيف رقاب الجناة بعد أن جنحت أنفسهم لمصب الجريمة. رغم قساوة الموقف لكنه شعر براحة تامة في نفسيته التي تخلصت من الأعداء بتطبيرهم، هؤلاء الذين أجهشوا على فرحه. عندها شعر بذاته طيرا حرا يرفرف في الفضاء دون صقور أو نسور تتبعه.

كانت شعوذة الطائفية تزحف وتنتشر في البلاد كالنار في الهشيم، اشتد وتيرها، بدأت تضفر ضفائرها في مواقع الكراسي والشارع معا، بحيث بات الجار لا يأمن جاره، فقرر أن يترك بغداد لجهة مجهولة، إضافة لخوفه من تتبع العدالة خطواته، وخوفا من غياهب الجب، قرر أن يترك بيته ودكانه ليتولاهما عمه أبو زوجته، ليتصرف بهما كيفما يشاء، أو يؤجرهما من بعده. كان الوقت قد صعب عليه بعد أن تعقدت مسيرته، لا يسعه التفكير والتصرف بأملاكه في ذلك الوقت الحرج من زمن العراق.

أما هؤلاء القتلى فهم جميعا دون جذور، لا أحد يعرف لهم ذوي ولا عناوين تدل عليهم أو تنسبهم لجهة ما، في بلد تهلهل به الشرع تحت جَلَدْ الراعي الأمريكي الذي لا يهمه استقرار البلد. بلد دون حكومة ترعى مصالحه وخاصة بغداد بدأت تنتشر بها جثث مجهولة مقتولة على الهوية التي عمت مناطقها وشوارعها..

بعد أسبوع على وقع الجريمة، تكفلت البلدية بدفنهم بعد أن تركوا عالقين تلك المدة في برادات الطب العدلي.

"وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا" صدق الله العظيم

الجشع صار كملح الطعام في الأكل بالنسبة لحياة البعض كجاسم وأبو عادل، لم يشبع ولم يكف عن طمعه، رغم تلك المآسي التي خضبت بها جثث أصحابه وزملائه من عناصر الميليشيا أمامه- بمعنى آخر؛ أن أبو عادل لم يعد حرا طليق النفس بعد أن تلطخت يده بالخسة والجرم والنذالة، بعد أن تطبع بأخلاق ونوايا العصابة التي أنتمى إليها، لم يعد يملك قرارا بالتخلي عنها، ولم يعد يملك من الشرف شيء بعد أن دهن مرِئه بالحرام مرات ومرات، بعد أن صار عنصرا فعالا ورئيسيا بين شلته، عندها أرتقى في المنصب ليصبح أميرا على جماعته، فلم يستطيع أن ينفصل عن مجموعته، لقد خرج الأمر من تحت يده، أضحى حلقة مهمة ورئيسية ترتبط بسلسلة حلقات ببعضها البعض.. هكذا بقيت نفسه جانحة خلف لذة الطمع والجشع سالبا قوت الأبرياء....

في محاولة تكرار السرقات التي راقت له ولمجموعته، تم مداهمة متجرٍ في منطقة البياع.. كانت محاولته الأخيرة، حينها واجهوا بها عصابة أخرى منافسة لا تقل عنهم قوة وشراسة، وقد تمكنت من أن تستاف منه ومن مجموعته، بعد أن قتلته في وضح النهار. وقد شاع خبر وفاته من خلال المأتم الذي أقيم في داره قبل أن يفل قاسم من سكنه وينتقل إلى أربيل بيومين.

بذلك حصل على نصيبه العادل من الدنيا الذي سعى خلفها برجليه وأظفاره، فالعنف لا يولد إلا عنفا..."وبشر القاتل بالقتل" صدق الله العظيم.

فيمـا قاسـم بعـد أن تـرك بغـداد تمـاهى فـي العـدم، ذاب فـي صـرة المجهـول، اضـحى بعيـدا فـي راحـة بـال، فـص ملـح ذاب فـي ميـاه البحر، لم يعد أحدا يتذكره.

النهاية

للكاتب عشرات الكتب بين رواية
ومجموعات قصصية

المجموعات القصصية:-

1. فرصة هدف
2. عصير الرمان
3. لغة العود والحجر
4. زيارة طبيب
5. كرستال
6. الانتقام
7. صياد النساء
8. المجموعة الكاملة الجزء الأول
9. المجموعة الكاملة الجزء الثاني

مجموعة الروايات:-

1- عطر خلف الستار
2- فتاة الكاظمية
3- جنوح النفس
4- عبير
5- شذرة العقد
6- طريق الجحيم
7- غراب البين
8- عقاب الذات
9- الاقداح المتكسرة
10- عواصف الجنين
11- فواصل الشوق
12- حين اتقدت الرأفة
13 - الرؤيا

تقول إحدى الصحف في نشرتها لحادثة مريعة والتي تحدثت عنها وكالات الأنباء بإسهاب، عن قصة صياد سمك في جنوب بغداد، والذي ما إن خرج من نهر دجلة وهو محنيّ بصيد ثمين، حتى استقبله جندي أمريكي برصاصة في جبهته، ليحمل عن كاهله وزر حمله الثقيل من السمك، متجها به لوحدته، وكأنه قتل كلبا أو دجاجة.

قصة أخرى نذكرها، ثم ندعها في مأمن من الحدث، ثم ندع القلم من أن يتخلى عن سقطة الشر، المثل الشعبي يقول " الفقير فوق البعير وتعضه الكلب" فما بالك بالذي يمشي على قدميه في شوارع الموت؟